

سيرة معماري ويوميات محلة بغدادية

محمد مكية

دار الساقي

محمد مكية

خواطر السنين

سيرة معماري ويوميّات محلّة بغدادية



الطبعة الورقية الأولى، 2005
الطبعة الإلكترونية، 2012

ISBN-978-614-425-362-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 961 1 866442، فاكس: 961 1 866443

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

المقدمة

كنت أسمع بمفردات مثل صبابيغ الآل، وسوق الغزل، وجامع الخلفاء، وجبهة النهر قبل صحبتي للدكتور محمد مكية. كانت مجرد أسماء أمكنة بغدادية، لا فرق عندي بينها وبين حديقة الزوراء أو اسم سينما أو مشرب ومقهى من مقاهي شارع أبي نواس ومشاربه، ولا أعرف عنها غير الحاضر المؤلم، خالية من نكهة الماضي، ونسيجها الاجتماعي المتماسك. يضاف إلى هذا، أن ليس لي ببغداد بأجمعها غير سرير بفندق مجاور لتمثال الرصافي، أعود إليه مساءً بعد يوم طويل من العمل. كنت أقطع شارع الرشيد مروراً بسوق الشورجة وحافظ القاضي حتى الباب الشرقي، لم يشدني شيء في الطريق اليومي غير تخيل الأماكن في زمنها العباسي، وأين كانت تعقد مجالس وزراء بني العباس البرامكة والخليفة عبد الله المأمون العلمية والفكرية، وما هو سر تذكر البغداديين للبرامكة بالترف والثروة، فهم ما زالوا يطلقون على الكريم (الخواردة بلغتهم) برمكياً. ونسبة إلى قائد شرطة بغداد أيام المعتضد العباسي أبي منصور نازوك، يطلقون على النظيف المعتني بملبسه وهندامه نازوكياً، لأنه كان كذلك. كانت بغداد لديَّ مجرد أخبار في كتب، أفتش عنها، ولم أجد أثراً طوال طريقي اليومي من باب المعظم حتى الباب الشرقي، ومنه أتنقل إلى محل عملي خارج مركز بغداد.

لمحت اسم المعمار محمد مكية في أكثر من مكان، على واجهة جامع مثل جامع الخلفاء أو واجهة بناية الرافدين، أو سمعت بالاسم من أصدقاء درسوا في كلية الهندسة - القسم المعماري، ولم أتصور أنني سأكون قريباً من هذا الإنسان كل القرب، وأن أقوم بتحرير خواطره، ويسرد لي صفحات حياته من الطفولة وحتى المشيب، وهو الذي يحمل في ذاكرته تفاصيل قرن من الزمن العراقي. كانت الأهوار القاسم المشترك بيني وبين الدكتور مكية، أنا مخلوقها وهو يقدسها ويعتبرها المكان الأول للبشرية: وهي الريف السومري، لقربها من مضارب الحضارة السومرية، وفي مخيلته أنها البيئة المناسبة لهبوط رسل السماء. زارها فأذهله انسجام مائها وسمائها بسطوح بيضاء لم تبرحها بركات الآلهة، فأراد حمايتها بتصميم قرى نموذجية فيها، لا تستغني عن مادة القصب والطين وخبرة التاريخ، ولا تدخل في كيانها الطابوق والكونكريت. وحصل أن عرض في محاضرة له بحضور صدام حسين، قبل الحرب العراقية ـ الإيرانية بأيام، أن أحد طلابه، وهو فوزي عجام، فاز بمشروعه لتصميم قرية بالأهوار بمسابقة دولية، منعت من حضورها إجراءات حرب النكسة كما يسمونها 1967، فسأل صدام عن المشروع وصاحبه، لكنه في ما بعد سار باتجاه إيذاء الأهوار فكان التجفيف المدمر للبيئة والناس، وهي محاولة لئيمة لطي صفحات التراث الحي الغابر. الأهوار في مخيلة محمد مكية هي مكان الوحي المفترض، فحسب رأيه ليس هناك بيئة تستحق التقديس أكثر من بيئة أهوار جنوب العراق. فكان المكان بداية التعارف والصحبة العامرة مع مكية، لقد عاملني مثل إرث سومري يأمل من خلاله التأثير في ذلك المكان بمشروع يصلح ما خربته كارثة التجفيف.

يبدو أي مشروع مع محمد مكية في البداية سهلاً ومضمون التحقيق، لما يبديه من مرونة وتسهيل، ينصت لك بكل مشاعره، ويوافقك الرأي والخاطرة، ولا يضع عثرة أو عقبة أمامك، لكن بعد الدخول في التفاصيل تبدأ العقبات التي توصلك إلى حد اليأس من استكمال مشروع مثل مشروع تحرير خواطر معه. لهذا بدأ المشروع بتسجيل عشرات الكاسيتات ثم إنزالها على الورق، وكم تجده معجباً بكلمته وبرأيه لكن ما أن يسمعه مسجلاً أو يقرأه نصاً على الورق إلا ويبدأ بالتنصل منه رويداً رويداً حتى يرفضه رفضاً كاملاً.

الأشياء والمشاريع عند مكية ناقصة دائماً، ولا يقدر أحد أن يقنعه بكمال مشروع أو فكرة، ومَنْ لا يعرفه يدخله اليأس ويحذر من التعامل معه، والسبب أنه يخشى الفشل، لذا يريد الأشياء مكتملة، لكن بطريقته! قلت له مرة ـ بعد تعبي من تبديل رأيه بين لحظة وأخرى، ليس في المذكرات فقط بل في العمل معه بديوان الكوفة لأكثر من عشر سنوات: هل عمرك رضيت على أحد؟ قال: ليس بالسهولة! لكن الغريب في الأمر أنه ما من متألم من تقلبه واستفزازه إلا وظل على صلة به دائمة، لا يقوى على الخصومة معه مهما كانت الأسباب. يشعرك في معاملته بمزاج الطفل ومزاج الشيخ معاً، وهو نفسه لا يقوى على خصومة الآخرين. يحدثك عن محلته وأزقتها وكأنه يلعب فيها الآن ويتخيل وقوف نموها عند تلك اللحظة، ثم يحدثك عن الدولة وخارطة بغداد وكيف يريد هدمها وإعمارها من جديد، وعندما تنبهه من خياله الجامح يقول لك دعني أفكر! أضع حلماً أسلمه للأجيال القادمة التي لابد أن تعود إلى رشدها وتعيد لبغداد مجدها الغابر، تعيدها من غربتها عن نسيجها العمراني، ولابد لها أن تعود مفتوحة على ضفتي نهرها.

حررت هذه الخواطر، واتفقنا على تسميتها بخواطر السنين، من أحاديث مبعثرة، تبدأ بحكاية حدث من العشرينيات تقطعه باللحظة نفسها خاطرة من الثمانينيات، فمكية لا يجيد التسلسل بالتواريخ والأحداث، ولا تكتمل لديه الخاطرة، فهو دائماً يلقيها ناقصة. صعوبة العمل في تحرير خواطر مكية لا تقل عناء عن عمل الباحث في كثبان الرمل عن ذرات ذهب. والأكثر إيذاء لي أنه ينسى ويحدثني كشاهد عيان عن خاطرة حدثت له في الثلاثينيات، لأنه يريد أن يحتفظ بتلقائيته في الحديث. لا يهمه ما يسجل في الكاسيت، ولا يهمه ما سأحرر من كلمات، مع أنه يعلم أني لست من جيل الثلاثينيات ولا الأربعينيات ولا أعرف من بغداد غير شارع الرشيد والباب الشرقي. إنه إيمائي في الحديث، قد يومئ بيده إلى تاريخ أو اسم شخص، إيماءة يحاسبك عليها فيما بعد، ويعتقد أنه قالها وعليك تفسيرها أو تأويلها، وأنت تتعامل مع حديث مسجل. وبعد أن بينت له، وألح عليه الآخرون، أن ليس من عمل كتابي سيظهر نموذجاً خال من النواقص والعثرات، قال: لكنني معماري، أتدري ما يعني خطأ المصمم لبناية ما؟ يعني هدمها وتصميمها وتشييدها مرة أخرى، ولا أريد أن أفهم أن الأشياء لا تخرج كاملة، والخواطر عندي عمارة يراها الناس ويحاسبونني على تصميمها! ولتلافي أمر مسؤولية النقص أو الخطأ اتفقنا أن يرد اسمي محرراً على غلاف الكتاب، فأنا من الآن أتحمل كل نقص أو خطأ في معلومة، وإن استلمتها عن الدكتور مكية مجرد إيماءة لم أفقه تفسيرها وتأويلها، فغابت عن الخواطر!

ليس في الخواطر من تجربة مكية المعمارية إلا ما يتعلق بجامع الخلفاء والقسم المعماري بكلية الهندسة، ذلك أنها ستأتي في كتاب خاص بها. جاءت الخواطر مغايرة لكتب المذكرات، التي أجدها لا تعكس واقع الحال، فصاحب المذكرات يقدم نفسه ملاكاً من الملائكة، ليس له عثرة أو نزوة صبا وشباب ولحظة ضعف في السطو على نقود الأهل أو التجاوز مغازلة ابنة الجيران، حاولوا أصحاب المذكرات براءة الذات من الخطأ والنقص البشري، يضاف إلى ذلك التركيز فيها على الحدث السياسي، وتوجيه التذكر لطلب الرفعة في التعامل مع وجهاء الدولة والمجتمع. لهذا جاء عنوانها «خواطر السنين» حتى لا تبدو مذكرات بالمعنى المألوف، وأن لا تبدو انتقائية كغيرها.

تألفت الخواطر من ثلاثة فصول وملحق، الأول ما يخص الطفولة، وما فيها من مسرات وأوجاع، وخواطر البيت والمحلة وملاعب الصبا وحكايات الحب الأولى. لخص هذا الفصل حياة أسرة مكية في الدار والسوق والمجتمع، وحياة المحلة البغدادية الاجتماعية والدينية، وتفاصيل الحياة المدرسية من المدرسة الابتدائية وحتى المدرسة الثانوية، وموجعات اليتم المبكر، وهواجس الأم وأحزانها، وبهذا غطى هذا الفصل فترة العشرينيات والنصف الأول من عقد الثلاثينيات. بينما شغلت حياة الاغتراب الفصل الثاني من الكتاب، فبين مغادرة بغداد بسيارات النيرن والعودة بالطائرة فترة أحد عشر عاماً، بدأت بالدراسة بلندن ثم جامعة ليفربول ثم جامعة كامبردج، وما صاحبها من تفاصيل الحرب العالمية الثانية التي عاشها الطلبة الأجانب معاً مع الشعب البريطاني، وما جذب صاحب الخواطر إلى أسواق الكتب والتعرف على رفيقة العمر أم كنعان، فترة قصيرة بعمر الزمن لكنها عاصرت خمسة ملوك، مثلما يحلو للدكتور مكية وصفها.

أما الفصل الثالث فشغلته تفاصيل العودة إلى بغداد، وما فيها من تقدم وتراجع في العمل والحياة، وما تمكن من تحقيقه وما رفض له من مشاريع تخص إعادة إعمار بغداد وتسويرها بحزام أخضر، وتأسيس جمعية الفنانين العراقيين ثم مشروع جامعة الكوفة المدني، وهو مشروع خطط له من قبل جماعة من علماء ومثقفي العراق، ليكون كيان جامعي من نمط جديد، كيان تنموي وتعليمي، يهدف إلى تحقيق اللامركزية، وإصلاح شبكة قنوات الري المندثرة بعد الزمن البابلي والساساني. حاول نقل التجربة وتأسيس كامبردج أخرى بالكوفة، وحدّد كيانها بالمدينة الجامعية، فكامبردج كنيسة ومدينة جامعية، والكوفة في مخيلة مكية جامع ومدينة جامعية تطمح إلى مشروع مدني واعد لوسط وجنوب العراق. كان بين التفكير والتخطيط لهذا المشروع وحجبه بعد تموز 1968عامان من الجهود والاتصالات، ظلت خاطرة حية لا تبرح ضمير محمد مكية، يعيش تفاصيلها لحظة بلحظة، ولم يكل من التفكير بتحقيق مشروع العمر رغم تبدل الزمن واختفاء الأثر، وما كان ديوان الكوفة الثقافي وسط لندن إلا استحضاراً لذلك المشروع الكبير، ونوعاً من التواصل مع الاسم والكيان.

عندما يحدثك محمد مكية عن حضارة العراق تحضر أمامك مشاهد سومرية مازلت تملأ المكان، حياة المعبد ومدى إنسانيته ومركزيته، والملك يشارك شعبه بحمل طاسة الطين، وكلما زاد الكاهن بضربه ازداد عرش الملك عدالة ومتانة. كذلك عندما يحدثك عن بغداد تحضر أمامك السفن العباسية والحمامات والمكتبات، ورواق دار الخلافة، ورسومات الواسطي. ورغم كل هذا لا يبدو مكية تراثياً بقدر ما يبحث عن زمن أفضل للعراق وبغداد، أخبرت به الرقم الطينية السومرية وكتب التاريخ العباسي، ويشدك إلى تلك المشاهد بتقدمية ومصالحة

مع الزمن. اكتشف حسنات هذا الماضي عند دراسته في الجامعات البريطانية، التي تنافست في دراسة الحضارة العراقية القديمة، في الوقت الذي وصل فيه مكية إلى لندن وهو لا يعرف الفارابي ولا ابن سينا، ولا شيء عن كوديا.

اختلط في هذه الخواطر تاريخ المدينة والمحلة والسوق والدار، وهي أقرب إلى عرض تجربة حياتية، صاحبها النجاح والفشل، وبقدر ما نال نجاحاً شخصياً وسمعة عمت العراق والبلدان العربية وامتدت إلى أوروبا عبر الصلات مع معماريين عالميين إلا أنه مازال يعاني من ألم الفشل في تحقيق حزام أخضر لبغداد، ومشروع المدينة الجامعية للكوفة، وإقامة ميدان يمتد من بوابة جامع الخلفاء إلى جبهة النهر، يغطيه شجر النخيل، وإعادة تخطيط طرق ومحلات بغداد، وأن يجعلها تحت ظلال غابات النخيل. أحلام إنسانية ذات رومانسية عالية، هي ليست مستحيلة التحقيق لكنها مازالت خارج الزمن العراقي، وبعد الملل من انتظار اللحظة المناسبة أخذ مكية الحالم يبحث عمَنْ يتولى بعثها في قرن مقبل أو ألفية مقبلة! وعندها ستكون بغداد جنة خلد تتعالى حتى على مجدها العباسي.

جهز محمد مكية مستلزمات العودة إلى العراق بعد التاسع من أبريل/نيسان 2003، وفي حقيبته خرائط وسكيجات لعمران بغداد وقرى الجنوب والشمال، عراق خال من القمع والسطوة، واضعاً في حسابه أن عصراً جديداً سيبدأ لحظة سقوط التمثال، وهو يشعر بنفسه القدرة بتحقيق طموحات الخمسينيات والستينيات، بعد أن فاز بجوائز أُول في مسابقات دولية لمشاريع عمرانية بعد أن تجاوز الثمانين، واحتفل بمرور خمسين عاماً على ممارسته لمهام التصميم والاستشارة. لكن العودة تأجلت فأي طموح حضاري سيخطو خطوته الأولى في ظل شبح الموت المجاني الذي يضع بين بغداد وإعادة إعمارها زمن آخر من الانتظار، وسينتظره مكية وهو في مقدمة التسعين من عمره.

رشيد الخيُّون

مدخل



في الثالث الابتدائي

العقود الثمانية، ما عشت منها ببغداد، وسنوات الدراسة (1935-1946) ببريطانيا وسنوات الاغتراب الأخرى، بدت وكأنها ثمانية قرون. فالانتقال الذي شهدته فيها لم يكن بسيطاً، ومن الصعب بمكان حسابه بالعقود من السنين. كانت وسيلة النقل القارب والحمار والعربات التي تجرها الخيول، والأخيرة جديدة العهد ببغداد يومذاك. ولا زال الحكواتي يحتل مكانه بركن المقهى يقوم بمهام الراديو والمسجل.

لقد جعلت الثورة التكنولوجية الهائلة حياتي ممتدة بين وسيلة النقل المذكورة والحكواتي من جهة، وبين الطائرة النفاذة والتلفزيون والأنترنيت من جهة أخرى، إنه امتداد العصور القديمة والوسطى إلى العصور الحديثة. سار التطور في العصور الخوالي بطيئاً بلا انفجارات، نظريات وآراء وآلات لم تلفت النظر، ولم تهز البشرية وتنقلها إلى مصاف حضارة جديدة مثلما هزتها الاختراعات الحديثة. فبغداد حتى بداية القرن العشرين لم تشهد أي انفجار ملحوظ، ظل الحمار مرابطاً في أزقتها، ومقاهيها تجمع بين العصور السالفة.

لهذا كان مدى تلك العقود الثمانية التي عشتها حلقة وصل بين مرحلتين متباعدتين ومختلفتين في كل شيء، فالانتقال الذي شهدته وشهده جيلي لم يكن بسيطاً، ومن الصعب عدّه بالعقود من السنين، بل بالقرون والألفيات، فالحياة ببغداد لم تختلف في القرن الخامس عشر الميلادي عنها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكأن هناك سكون بين الأزمنة. أتحدث عبر خواطر السنين عن بغداد التي عشتها في ظل الانفجارات الهائلة، وما حصل لمحلاتها، نهرها، بساتينها، أسواقها خاناتها، كتاتيبها، مدارسها وشخصياتها، مقدار ما تجود الذاكرة. فقدت بغداد العشرينيات وما قبلها، بسرعة، هويتها الاجتماعية والعمرانية، فتعطلت العلاقة بينها وبين شاطئ دجلة، فهو لوقت قريب لا تمخر في مياهه غير القوارب البوليسية، بعد أن كان مزدحماً بقوارب النقل والتنزه، التي عدّت أسماؤها وأوصافها في العصر العباسي بالعشرات.

اختفت ملامح بغداد الشعبية وأصالتها وآثارها العريقة، لتحل محلها طرق وشوارع مستقيمة باستقامة مسطرة مهندس الطرق لمجاراة التطور الصناعي، فرضتها حركة العربات الآلية الطاغية، خالية من التهذيب والإحساس، تشير إلى التخلف الحضاري. أتذكر محلتي، محلة صبابيغ الآل، بكيانها الاجتماعي المنسجم مع نسيجها العمراني، وأزقتها وأسواقها، أتأمل تاريخ تلك المحلة بأمل العائد إليها بعاطفة جياشة، فالتذكر هو جزء من الوفاء للماضي بحلاوته ومرارته.

لعلَّ أول درس في العمارة والتخطيط والتصميم تعلمته من عمارة بيوت تلك المحلة، التي كانت، في الأيام الغابرة جوار دار للخلافة العباسية، حيث مشهد منارة الغزل وجامع الخلفاء، الذي تهيأت لي فرصة تصميمه وإحيائه من جديد، كما سيأتي الحديث. بمعنى أن المكان كان مركزاً عالمياً، حيث تمتد سلطة العباسيين على الأرض إلى أرض الروم من جهة الشمال، وإلى ما وراء النهر والهند والسند وحتى حدود الصين من جهة الشرق، بعد أن تحولت قصور الخلافة من الجانب الغربي (الكرخ) إلى الجانب الشرقي (الرصافة) من بغداد.

أسطر خواطري دون تزويق وتلميع، خواطر لم تهجر مخيلتي يوماً من الأيام، فأرى في كتابتها راحة نفسية واطمئناناً، مخافة النسيان، الذي هو الموت بعينه. أعيش تلك الخواطر صباح مساء، وتكاد لا تفارقني منازل المحلة وسطوحها، وضجة الأسواق والطرقات، والسقا وهو يحمل قربته على ظهره، أو ظهر حماره، وبئر الدار وتفاصيل البيت الأخرى. قد لا تنقل الكلمات والألفاظ المكتوبة حقيقة مشاعري وما تخيله ذاكرتي، لذا مهما سطرت من كلمات أشعر بقصور التعبير عن حقيقة المشهد، وبالتالي عدم الوفاء لتلك الأيام والتفاصيل. لكن الأمل أن أعبر عنها في كتاب «بغداد ألف صورة وصورة» بالصور الحية، مع مقارنة الواقع بالمحتمل، مقارنة بين ما هي بغداد عليه وما أنا أريدها، خالية من عشوائية البناء وسرطان العمران واستقامة الطرق.

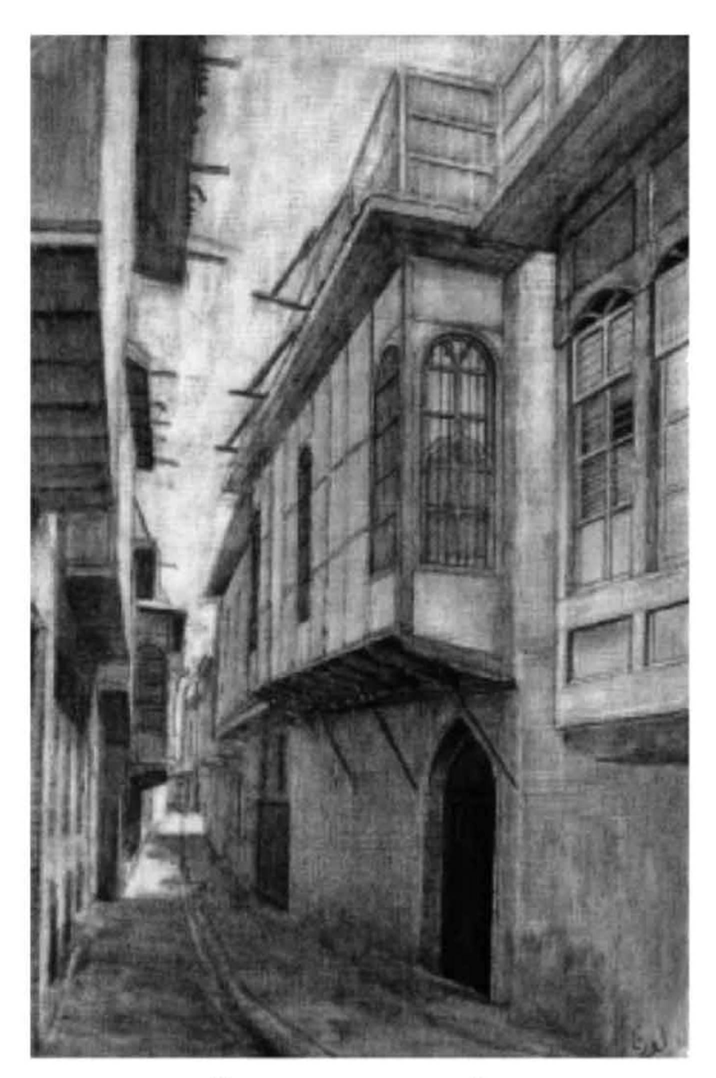
أتحدث عن والدتي، وهي تطرد المرض عني بتلاوة آيات من القرآن، أو بدعاء تتمنى فيه المرض لها عوضاً عني. أتحدث عن الهمس العاطفي بين الفتيات والفتيان الذي كثيراً ما ينفجر بعواطف شابة منفلتة لقوتها، برغم قيود المجتمع التي تَحوّل عادةً العواطف إلى مسرح أحلام يقظة فحسب. كل ذلك فيه تجارب حية، لعلها مفيدة في عصر التمزق والتشتت في الهوية والعاطفة معاً.

الجذور

أتحدَّر من عائلة قيل لي إنها ذات أصول عراقية جنوبية، فقبيلتنا هاجرت صوب العراق من الجزيرة العربية، ومعلوم أن كل عربي يبحث عن نسب قبلي، وإن لم يكن يخلقه. استقرت بجنوب العراق حيث الوادي الخصيب، بعد أن قطعت صحراء ووديان، لم يكن لها أن تستقر إلا في البطاح المجاورة للأهوار. لعلها استقرت بمدينة الناصرية بلاد سومر ذات الشمس الساطعة، والأهوار على ما اعتقدت كانت تمثل الريف السومري بكل تجلياته ويومياته، التي ما زالت قائمة. كان ذلك قبل ميلادي العام 1916 بقرون، وبالتالي قبل اتخاذ المنطقة اسم ناصر باشا السعدون، ويقال لها الناصرية.

رحلت الأسرة باتجاه بغداد واستقرت فيها. غير أن هذا لا يمنع قبول رأي آخر يفيد بأن عائلتنا، ومعظم العائلات البغدادية، ذات جذور بغدادية أصيلة تمتد إلى العصور العباسية، أقامت في هذا المكان منذ القِدم. لم تكن بغداد خالية في يوم من الأيام من الأديرة والأسواق، حتى قبل اتخاذها عاصمة من قبل العباسيين. بدأ عصرها العباسي بالمدينة المدورة، التي شيّدها المنصور العام 145 هجرية كمعسكر، في وسط مدينة كانت عامرة بقراها وأديرتها وأسواقها، وهذا التاريخ لم يمثل ميلاد بغداد، مثلما تعلمنا ذلك في كتاب التاريخ المدرسي، أو مثلما هو شائع بين الناس عبر روايات المؤرخين. فبغداد قبل معسكر المنصور المدور كانت أم القرى، تمتد من عكركوف والصليخ شمالاً وحتى المدائن جنوباً.

قيل كانت لأسرة والدتي صلات وقرابة بعيدة مع المنطقة الجنوبية، ظلت قائمة إلى فترة ليست بعيدة، فزيارات السيدة زريجة بين الحين والآخر تعيد للأسرة ذكرياتها القديمة، وتبعث فيها من جديد الحنين إلى تلك الجذور. تأتي السيدة زريجة محملة بالهدايا من منتوجات الجنوب الخصبة، مثل التمر وغيره. أتذكر جيداً تلك الغرفة القريبة من أسواق الشورجة المفروشة التي تمتلكها زريجة، وهي لها بمثابة مصلى يجاور أهم حمام من حمامات بغداد. كانت السيدة مثالاً للمرأة الجنوبية، تشبه صورتها المرأة التي رسمها جواد سليم في إحدى لوحاته.



محلة صبابيغ الآل

العمة صفية

الحقيقة، ليست لديّ تصورات واضحة عن تلك الحقبة، ولا عن كيفية هجرة الأسرة إلى بغداد، لكنني أجد في أحاديث العمة «صفية» شقيقة الوالد الوحيدة دائرة معارف في تاريخ العائلة، فذرية الجد عبد العزيز ستة أولاد وبنت واحدة. ولدت صفية على ما أعتقد حوالى منتصف القرن التاسع عشر، وعاشت تلك الأحداث بتفاصيلها الدقيقة. وتكشف قصص عمتنا لأفراد العائلة أنها مؤرخة شفاهية ناجحة، امتازت بذاكرة قوية، وبهذا أصبحت تلقائياً محدثة الأسرة الرسمية عندما يتعلق الأمر بتاريخ وعلاقات اجتماعية أو ذاكرة عامة، أي لسان حالها كما يُقال. جعلت منها لباقتها قارئة أو نادبة جيدة في مجالس التعزية، تدعى في المناسبات الخاصة بالعائلة فقط، تجدها متفوقة على قارئ المأتم الحسيني. تقوم بمهام قارئ المأتم رغم اعتراضات أخيها العم عبد المجيد مكية، إلا أنها كانت مقنعة وذكية، أخذت على عاتقها جمع شمل الأسرة في البيت الكبير بعد غياب أخيها الوالد الحاج صالح، تحافظ على تقاليد البيت والمحلة، وتفرض رأيها على الجميع، ولها نقائض شعرية مع الشاعر الشعبي ملا عبود الكرخي، ذاك بحكم المصاهرة بين الأسرتين، آل مكية وآل الكرخي، فالعم عبد المجيد مكية كان متزوجاً، بعد وفاة زوجته الأولى، من ابنة أخت الشاعر، وهي أم ناصر مكية.

حباً وتعلقاً بالوالد الحاج صالح اعتادت صفية ختم مجلس التعزية بنعيه، وتعداد فضائله والترحم عليه، وأكثر من هذا أوصت أن تدفن إلى جواره، وهي تقول: «حتى يناديني وأناديه»، كانت تداعب قريباتها بالقول: «أن لا تدفن قرب زوجها حبيب»، أوصت بذلك في مواقف مختلفة منها الجد ومنها الهزل، ولم يشق أحد بمصاريف دفنها فقد وفرتها «فلس فلس» على حد عبارتها. كانت صفية من الشجاعة أن تسير في طرقات المحلة سافرة الوجه من دون بوشية في زمن يُعدّ فيه وجه المرأة عورة يحرم كشفه، كذلك خالفت عوائد

البغداديات أن تخرج ملتحفة بعباءة واحدة بدل الاثنتين. الجدير ذكره أن نساء آل مكية كُن من أوائل النساء المسلمات اللواتي كشفنَّ عن وجوههنَّ ببغداد، أي خلعنَّ البوشية، فمن غير العمة صفية كانت ابنة الحاج مجيد مكية أم أكثم تخرج مكشوفة الوجه في أوائل العشرينيات، قبل زواجها من كاظم مكية، ولعل ذلك كان بتأثير العمة.

كانت صفية ـ التي سأتفرغ من الحديث عنها إلى أشخاص أسرة آل مكية الآخرين ـ حلوة الملامح، جريئة الرأي، ذات نظرات مهيبة وحادة، وصوت جهوري. وكانت أنيقة تحرص أن تظهر بمظهر المرأة العربية الأرستقراطية، فتضفي على نفسها الهيبة، مع التزين بالحلي الذهبية. كانت تميل إلى تفخيم أصل العائلة، هكذا كانت تتصرف مع المحبين كافة، وخلاف ولائها وانصياعها لأخيها الحاج صالح وقفت للعم عبد المجيد، الذي ينهاها عادة من قبول دعوات التعازي، بالمرصاد ترد كل كلمة يوجهها إليها.



ام نزرا مع زوجها عبد العزيز
في نهاية الثلاثينيات

تتذكر زوجة أخي عبد العزيز أم نزار فخرية عبد الحسن بن عبد المجيد مكية تفاصيل من حياة صفية الخاصة، ومما تذكرته أن «حدث في سنة 1936 أن شبت النار بدار عبد المجيد مكية، الكائنة بالكرخ طرف السادة، بسبب سيكارة أحد منظفي السجاجيد. يتم تنظيف السجاجيد عادة في نهاية الشتاء وبداية الربيع من كل عام. لم تسلم زاوية من زوايا الدار من النار غير السرداب. فلما رأت العمة صفية رماد الدار قالت شعراً وجهته الى العم عبد المجيد، الذي نزلت دمعة من عينه وهو يتأمل رماد داره القديمة: حجي: «ديارنا أمست اكشاف (مكشوفة بلا سقف)، والطير لو وكر يخاف»، لكن مجيد أسكتها بقوله مجازاً: «اسكتي عميّة (وهي ليست عمياء) المال راح يجي غيره»».

ظلت العمة صفية تحمل بريد الأسرة بين الرصافة والكرخ، تزود بالأخبار ومواعيد المناسبات، فعن طريقها ظلت أسرة مكية متواصلة مع سكنها الأصلي في سوق الغزل ومحلة صبابيغ الآل، بشكل دائم. كان العم عبد المجيد يسألها لكثرة أخبارها: «أشعندج من أخبار اليوم»، فتقول له: «عندي أخبار زينة، هل مستعد أن تسمعها؟» في نقلها للأخبار كانت تلزم نفسها بالحكمة: «هو اللسان إن تكلم بالحسن حلى، وإن تكلم بالسيئ ندم صاحبه». كانت تتعفف عن نقل القيل والقال، محاولة منها في تصفية الأجواء بين أفراد الأسرة، وإن سمعت غيبة من شخص على آخر نقلت للأخير العكس. بهذه العفوية حاولت تنقية القلوب من الأحقاد والضغائن، وقربت بين بيوت الأسرة، وشجعت تجمعهم في بيت الوالد عند عقود القران أو المناسبات الأخرى.

كثيراً ما كانت تذكر أخاها الحاج صالح بقولها، وهي تشير إلى بيتنا القديم بمحلة صبابيغ الآل: «يا دار وين العمروج، وبالعز والهيبة بنوج، يا دار عاقوني وعافوج». ذُكر لي: أن العمة صفية كانت تنادي بأشعارها على مفردات محددة، مثل: العباءة والكشيدة والملابس بشكل عام، التي يلبسها مَنْ تنعاهم في مجالس المآتم، وعند وفاة أخيها عبد المجيد مكية، سنة 1946، أثناء علاجه في مستشفى بالقدس، كان الناس يقفون في الشارع لسماع مدائحها ومراثيها.

من طبعها المغالاة بالمدح إن رغبت في قبول أداء مجلس التعزية الخاصة بالأسرة والأصدقاء، لذا كان هؤلاء يطلبونها لإحياء مجالس العزاء الحسينية، أو المآتم العادية. لكن العم عبد المجيد كان يمنعها من ذلك لأن من عادة النادبات أن ينبدن الأموات مقابل أجور، فكانت تبرر له بالقول: «رحت من خاطري»، أي تلبية واجب اجتماعي، غير مأجورة.

مؤرخة الأسرة

من روايات العمة صفية، غير الدقيقة، حول تاريخ أسرة مكية أنها انحدرت من قبيلة ربيعة، من فرعها المعروف ببني سعد. فعلى حد تعبيرها وفطنتها، قولها: «نحن من عشيرة المرضعات»، إشارة إلى انتساب عائلتنا إلى عشيرة مرضعة النبي محمد حليمة السعدية. فالذي دفعها إلى تأكيد تلك الصلة الطمع بنسب ما مع آل النبي، لما لهذا النسب من مكانة خاصة بين الناس وما يؤكده من سمو اجتماعي، فلعلها خططت في أن نكون من أهل البركات والكرامات. كل ذلك وارد وممكن الحدوث حسب تصور صفية، وولعها بالفخر بأصل العائلة. عندما تتحدث العمة على الجميع أن يسكتوا، فأحاديثها محل تأكيد وثقة، ليس من المعتاد أن يعترض أحد على رواياتها، أو أن يحاول مناقشتها، فأقوالها معفية من أي اعتراض وتمحيص، غير خاضعة لأي تشكيك، وإلا غضبت، وتوقفت عن الحديث.

وفقاً لروايات العمة صفية، حاولتُ الاستفسار من المحقق حسين محفوظ عن جذور العائلة ونسبها، وهو العلامة المعروف بالأنساب والتاريخ، إضافة إلى علاقتي الخاصة به. فمعلوماته بأنساب الأسر البغدادية قيمة جداً، وفعلاً وجدتُ عنده ما يشبع فضولي. لكن للأسف لم أدوِّن شيئاً منها، معتمداً على الذاكرة فقط، الذاكرة التي خانتني في أكثر من موقف، إلا أنني لم أنس مصادقة المحقق محفوظ على بعض روايات مؤرخة أسرتنا.

إن ضياع تلك المعلومات مرتبط بعدم الاهتمام بالمذكرات العائلية، أو السِيرَ الأُسرية إن صحت العبارة، ومنها السير الذاتية. لفترة قريبة ظلت مذكرات السيرة خارج دائرة اهتماماتي، فهذا النوع من الأدب لم يشغلني يوماً من الأيام إلا بعد فاصل طويل من الزمن، جعل الإلمام بتلك المعلومات خاضعاً لقوة وضعف الذاكرة. لم أشعر بالحاجة يومذاك إلى تسجيل الذاكرة، فليس هناك قلق من الضياع ما دامت الهوية معروفة في مسارها التاريخي، ومحمية في حيز المحلة والوطن. غير أن سنوات الاغتراب الطويلة أخذت تنهب الذكريات نهباً، حتى أشرفتُ على الانقطاع عن الصلة التاريخية. فما حصل بالعراق، خلال الثلاثة عقود القرن العشرين الأخيرة، من تغيرات سلبية يبعث على القلق، ويحفز على تسجيل الماضي.



عبود الكرخي

مع عبود الكرخي

كان للعمة صفية شبه بالملا عبود الكرخي، فكان الأخير مداهناً في علاقاته الاجتماعية، ويخشى الأموات ولسان صهره عبد المجيد، فكان الأخير لا يرحمه لا بالجد ولا بالهزل وهي كذلك. ويذكر أنه لا يقترب من طعام الرحمة، الذي يسمى بالقاقة. في كل يوم جمعة يأتي إلى بيت مجيد مكية يشترط عليهم نوع الطعام الذي يقدم له. لم يسلم من هجائه أحد، والكثيرون يتقون شر لسانه، فحصل أن هجا زوجته ضعيفة البدن بالقول: «طب ولگاها مبركَعة، وجنه (مثل) جنازة مودعة، وكَام وكع على فراش، مكَرود عبود شلاش». لكنه مدح زوجته الأخرى (كان متزوج أكثر من امرأة) الجميلة نورية بقوله: «عين الريم بالبرية، ونور يسطع من وجه نورية، ونوره صاعد إلى سابع سماء». تتذكر أم نزار، في طفولتها، أن خال أمها الكرخي صادفها في زقاق المحلة وهي تحمل صحناً من الكيمر من بيت والدها إلى بيت عمها قنبر مجيد مكية، فقال لها: «تعالي بنت مكية، هذا لمن الكيمر، أني جدك وعمك وخالك أعطيني الماعون». وبعد أن التقى مع والدها قال له: «أشلون اليوم أكبست بنتكم، أنتم تنسون الملا من يطلق لسانه عليكم».

من نماذج خشية الناس من لسان الملا عبود، أنه في يوم من الأيام ترك نظارته عند قدو مصلح النظارات، فظل الأخير يماطل في مواعيده معه، بسبب أن الملا عادة كان لا يدفع أجور التصليح، فأرسل إليه بقصيدة شعر جاء فيها: «قدو دزلي المنظرة، وأرجوك لو بالغرغرة، وأرجوك ما أگدر أتحمل بعد، وشبه الصواقع والرعد، ترى من لساني ما واحد سلم، خايف من إصواب القلم. فما كان من قدو إلا أن أرسل النظارة على وجه السرعة.

يذكر أن شخصاً أراد استفزاز الكرخي بدفعه إلى الكلام عن نفسه، فقال له ـ وهما في إحدى سهراتهما الليلية على ساحل دجلة بالكاورية ـ: «أنت غير معروف من قبل أهل الكرادة». فرد الكرخي بأعلى صوته: آني منه؟ فأجابه بصوت عال كل مَنْ كان ساهراً على ساحل دجلة قريباً من المكان، قاطعاً الظلام وتمتمات الصيادين: نعم، أنت عبود الكرخي. حينها بادر دعبول البلام، وهو مشهور بين البغداديين بأنه صاحب العفطة القوية (الزيج، حسب العامية البغدادية)، فعفط بقوة وصاح: آني منه؟ أجابه صوت من الجهة نفسها: أنت دعبول البلام! والاثنان كانا مشهورين بين الوسط الشعبي البغدادي.

تحمس الملا عبود الكرخي لانقلاب مايس «مايو» 1941، بقيادة رشيد عالي الكيلاني، لكنه سارع إلى الاعتذار بعد فشله مباشرة. وللشعراء بشكل عام قدرة على الهجاء والمدح حسب تغير الأحوال. كان الكرخي والعمة صفية يتبادلان الأشعار الهجائية، كما ذكرتُ

آنفاً. عموماً يذكر قريب من الكرخي أنه «إذا لم تداهنه يحطمك»، لذا كان الناس يتحاشون سلاطة لسانه. من مجون الكرخي ما كتبه إلى عبد المجيد مكية، وهو سائح بإيران، ونشرت في ما عرف له بالأدب المكشوف العام 1955:

قم إلى طهران يا حجي مجيد
أسرع من البرق أريدك والبريد
لأن فرصة أحب في هذا الزمان
تغتنمها يا أبا عبد الحسن
تموت لازم بالنتيجة فأذن
في حياتك يقتضي أن تستفيد
يقتضي بين الميامين الطهر
في حياتك تكظي من أحسن عمر
بالغواني تنكح وتشرب خمر
ونغمة الأوتار تسمع يا عميد
تعال واسمع لفظ من بنت العجم
تكتلك في الحال إذا كالت (جنم)

إلى قوله:

دظل ديّن صير وأتحمل مرار
قائم الليل وصائم في النهار
لما يأتيك الربيع ويا حمار
موت محشوم أنت يا حيد وعميد
الجنة (خان جغان) تتخيل لذا
أتركت اللذات وأحملت الأذى
لو حقيقي المسألة يا حبذا
فقط مجهولة ولا فيها أميد

وكم يتعارض الكرخي في أدبه المكشوف مع ما كتبه ضد الدعوة إلى سفور المرأة، حتى أنه طالب بديمقراطية نابعة من القرآن، فمن تناقضه مع ما تقدم قوله:

ديمقراطية حرة أيها الأخوان
ما تلكَوها قطعاً إلا بالقرآن
ما تقبل عمل دوني ولا عصيان
ولا تعطي إلى العذراء حرية

الألقاب

يبعث ضياع الهوية حالة من التلفيق الاجتماعي، مثلما حدث لأسرة الجار وصديق العائلة الحاج حميد أبو كلل بمحلة صبابيغ الآل، المجهولة الجذور القبلية، وهم غير الأسرة المعروفة بالنجف بأبي قلل أو كلل. والتسمية، كما تبدو، لها علاقة بحرفة رب العائلة صناعة الكُلل، أي الناموسيات، ومفردها كُلة، التي ينام في داخلها البغداديون والعراقيون عموماً في فصل الصيف فوق السطوح لاتقاء إزعاج البعوض، وشر عيون الفضوليين من الذين يتجاوزون حرمة الجيرة المقدسة القائمة بين سكان بيوت المحلة المتلاصقة منذ القدم، وهم يتطاولون من على سواتر السطوح، وكم يسر الساهر منظرها الجميل في ليل بغداد الأليف يومذاك. إن للحياة فوق السطوح جمالاً، فليالي صيف بغداد مقمرة، وتبدو السماء بقمرها ونجومها في متناول اليد، وما تبثه رؤيا الفجر من على السطوح من أمل في النفوس.

تبدو الكُلّل (الناموسيات) وكأنها أشرعة بيضاء وسط بحر من الظلام، يصاحبه الهدوء والسكينة، هذا ما كانت عليه بغداد العشرينيات من القرن الماضي، واستمرت حتى قلّل التبريد والتلفزيون من مكانة السطوح.

ومثلما حصل للعديد من الأسر بدوافع البحث عن الهوية أقدمت اسرة أبو كلل على الانتساب إلى قبيلة عربية معروفة وهي كندة، عندها ألحق أولاده بأسمائهم لقب الكندي. ولعل تحول الأبناء من مهنة الأسرة القديمة في السوق البغدادية ومكانة الاختصاص المهني فيها إلى وظائف حديثة، وما حملوا من شهادات علمية جعل هؤلاء يبحثون عن ألقاب مناسبة، لكن هناك مَنْ ثبت من أهل المهن العريقة ببغداد على ألقابهم الأولى مثل: آل الجادرجي والباجچي وآل كبة وآل القصاب وآل الجرجفجي وغيرها.

إن ما دفع أولاد أبي كلل إلى هذا التلفيق هو عقلية المحيط الاجتماعي، وطلب الأولاد التحرر من عقدة المهنة، فربما ميز الآخرون في التعامل بين آل الكلل وآل الكندي. حاول أولاد أبي كلل مجابهة الواقع الاجتماعي بلقب جديد ملفق في مجتمع تؤثر فيه الألقاب تأثيراً كبيراً. يحصل ذلك رغم أن الناس يفقهون القول المشهور والمأثور، الذي تذكرنا به دائماً دروس التربية الوطنية والاجتماعية: «ليس الفتى منْ قال كان أبي...». من الواضح أن جارنا، رب الأسرة المذكورة، حافظ على لقبه الذي ورثه عن طريق امتهان خياطة الناموسيات، التي مارسها إلى جانب المتاجرة في الصايات (لباس بغدادي تقليدي) المطرزة بالكلبدون (نسيج من الحرير). لكن بعد حين ضاق أولاده باللقب المجهول اجتماعياً، والمعروف مهنياً، وبما أنهم لم يحافظوا على مهنة والدهم فتراهم سعوا إلى التخلص من لقبهم، وفضلوا الانتساب، ولو من باب الادعاء، إلى قبيلة كندة.

لعل الاختيار كان مدروساً، فكندة من القبائل العربية التي تقطن حضرموت من جهة الجنوب العربي، ويندر أن يوجد هذا اللقب اليوم بالعراق. اشتهر ملوك تلك القبيلة بالحيرة باسم المناذرة، ومنها ملوك بني أسد، وأشهرهم الملك الضليل الشاعر الجاهلي امرؤ القيس، ومنها حجر بن عدي صاحب الإمام علي بن أبي طالب، الذي قتله معاوية على حافة قبر محفور له مسبقاً، بعد أن خيَّره بين أمرين مرين: شتم علي أو الموت، فاختار أهونهما بالنسبة إليه وهو الموت. ومنها الفيلسوف الكندي المعروف، الذي احتفلت بغداد بألفيته في مقدمة الستينيات من القرن العشرين. لهذا يبدو أن أولاد جارنا الحاج حميد أبو الكلل سابقاً والكندي لاحقاً، قد استفسروا جيداً عن تاريخ وعلاقات لقبهم الجديد، قبل أن يبدلوا الكلل بالكندي.

لكن انتحال الألقاب أو الأنساب لم يكن ظاهرة شائعة ببغداد العشرينيات، وخصوصاً بالمحلة التي ولدتُ وعشتُ بين أزقتها. فالمثال الذي ذكرته لم يتكرر إلا في حالتين أو ثلاث فقط، ومنها كان بفعل تأثيرات طائفية، كاتخاذ البعض لقب العزاوي، لتسيير أموره في دوائر الدولة، بعد أن قُتل أخوه وخاف من الحرمان مما تتوق نفسه إليه في الدراسة والوظيفة، فالغالب على لقب العزاوي أنه خاصاً بالسُنَّة، وصاحبنا كان شيعياً. وما عدا ذلك، فالعائلات ظلت محتفظة بألقابها التي تُشير إلى مهنة العائلة الأولى، أو اسم الجدّ. وبالمناسبة فأن جارنا العزيز، الحاج حميد، كان وفياً لوالدنا، الحاج صالح مكية، حتى أن والدنا جعله وصياً علينا عند وفاته، وقد قام بالمهمة بحرص وأمانة عاليين.

قال لي شقيقي الأكبر عبد العزيز: «نقل لي الحاج حميد أبو كَلل عميق حبه لوالدي، فعندما أراد بناء بيته، وكان مجال الباب ضيقاً طلب من والدي أن يضع حائط بيته على حائط بيتنا مباشرة، لكي يكون المجاز أكثر سعة، فلم يمانع الوالد بذلك»، رغم أن ذلك كان يعد تجاوزاً على حدود البيت، وقلما يسمح به بين البيوت المتجاورة.

لم ينته تلفيق الألقاب عند أولاد أبي كلل، فقد فاجأني في يوم من أيام العام 1968، سائق سيارتي لسنين طويلة خليل نصر الله بلقبه الجديد الدوري، رغم أن الجميع يعرفه كردياً محسوباً على التبعية الإيرانية، وعندما سألته قال لي: «عمي، غيرت اللقب عن طريق المختار مقابل مئة دينار». اعتبره المختار دورياً على أساس أنه من سكان منطقة الدورة ببغداد، وليس من ناحية الدور التابعة لمحافظة الرمادي، حتى لا ينكشف أمره بين الدوريين، الذين لهم لكنتهم الخاصة وعلاقاتهم الاجتماعية وصلات القرابة فيما بينهم. يبدو أن حيلة خليل نصر الله كانت في محلها، فليس هناك دورياً يحسب تبعية إيرانية، فهم من أسر سنِّية، والتبعية تخص الأسر الشيعية فقط، أو أن يُشك في جنسيته العراقية ذات التبعية العثمانية. فعل خليل ذلك وكأنه حسب حساب عمليات التهجير القاسية، وأن تموز 1968 سيأتي بدوريين لا عدّ لهم إلى مناصب حكومية مرموقة، وهذا ما حدث بالفعل. لا أدري، هل استطاع خليل النجاح أم لا، فقد انقطعت أخباره عني منذ زمن بعيد؟

لقب مكيّة

عاش الأجداد والآباء من عائلتنا بمحلة صبابيغ الآل بجوار سوق الغزل وجامع الخلفاء في مركز بغداد. المحلة التي احتلت حيزاً كبيراً من ذاكرتي، ففيها قضيت سنوات الطفولة والصبا (1916-1935)، وفيها معالم تاريخ بغداد القديم من دار الخلافة العباسية، مثل منارة مسجد الخلفاء، التي اشتهرت بمنارة سوق الغزل التاريخي بالمحلة، ولا زال معلماً من معالم بغداد التجارية والحرفية. امتلكت عائلتنا خاناً للغزل في السوق يتصل بعلاقات واسعة مع غزالين وحائكين وتجار صوف. كان الجد عبد العزيز، جدنا الثالث (قبل اسكندر وعزيز)، زوج الجدة مكيّة، يرعى ذلك الخان وتلك الحرفة القديمة، يبعث الغزل أو النسيج إلى العبخانة، حيث صناعة العباءات، أو يُصدر عبر بواخر شركة لنج إلى مصانع النسيج العالمية، ولعله يصدر عبر طريق الحرير المعروف، الذي يمتد حتى الصين.

بعد وفاة الجد عبد العزيز، حوالى نهاية القرن السابع عشر، تولت الجدة مكية رعاية الخان لتسيير مصلحة الغزل والنسيج فيه. كانت مكية امرأة عصامية اخترقت عقبة العادات والتقاليد. فخروجها من البيت وتعاملها مع تجار السوق، في ظل الحقبة العثمانية خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر، وفرَّ لها مكانة اجتماعية، فبرز اسمها متفوقاً بين أقرانها من تجار الغزل والنسيج وسط بغداد، ثم يغيب اسم الحاج عبد العزيز تدريجياً لتعرف عائلتنا باسم مكية.



كاظم مكية (١٩٦٧)

ظل اسم مكية معروفاً وسط محلة صبابيغ الآل بين الرجال والنساء على السواء، فما أتذكره جيداً أن ابن العم كاظم مكية هو أول مَن كتب اسم مكية على واجهة متجره في عمارته المعروفة في شارع المنتصر المحيطة بمكاتب شركة بيت لنج، وهي شركة لأخوان لنج للنقل البحري كامتداد لشركة الهند للنقل التجاري، كان ذلك في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي. غير أني لم أتذكر أن الوالد لقّب نفسه بلقب مكية، أو عُرفنا ونحن صغار بهذا اللقب، وإنما يشار إليه بالحاج صالح، بسبب هيمنة الوالد في الأسرة أولاً، ومقامه بالمحلة

وديوانه المفتوح طوال أيام شهر رمضان وعاشوراء ثانياً. ولكن عند الوصول إلى بريطانيا (1935) لم أتأخر في تسجيل اسم مكية لقباً لي ليصبح (سرنيم).

بشكل عام، إن تسمية الأسرة باسم امرأة لم تكن أمراً نادراً في العراق، فهناك من الأسر العراقية الأخرى التي اتخذت اسم إحدى نسائها لقباً لها، مثل بيت بُنية وبيت بهية وغيرهما. وارتبط ذلك التقليد بمكانة المرأة الاجتماعية بالمحلة، وحين تتوافر الأسباب تتمكن من فرض وجودها على مجتمع الرجال رغم معارضة الموروث الاجتماعي. ولعلَّ قبول أسر عراقية أن تُعرف بأسماء نسائها له ما يبرره، فالأديان اعترفت بتفوق عدد من النساء مثل بلقيس رفيقة النبي سليمان، ومريم أم المسيح، ونساء النبي محمد، وفاطمة الزهراء، وقديماً كانت الإلهة أنانا السومرية أو عشتار البابلية ذات سيادة روحية في المجتمع السومري والبابلي.

ما أعتقده أن اسم مكية دخل على أسرتنا بشكل طبيعي، لم يتأثر بهمس المتزمتين من أبناء محلتنا، أحسبه كان مجرد تساؤل بدافع الفضول، وشخصياً لم أتذكر أي رد فعل صدر من شخص ما يشير إلى الاستهجان أو السخرية حول تسمية أسرتنا باسم امرأة، فهذه الحال كانت واقعاً معاشاً، لذا تعامل الناس معها بشكل طبيعي بحكم العادة.

على أية حال، لم يعط الناس ولا الدوائر الرسمية في حينه أهمية كبيرة للألقاب، بل المطلوب الاسم الثلاثي فقط، فطوال دراستي في المدرسة الابتدائية والثانوية ببغداد كان أسمي محمد الحاج صالح عبد العزيز، فلعل الناس التزموا طواعية بما ورد في القرآن: {ولا تنابزوا بالألقاب}.

إن التمييز باللقب، ببغداد على وجه الخصوص، كان أكثر ما يكون على أساس المهنة، التي اشتهر بها الجد أو الأب، وقد لا يستمر ذلك طويلاً، فربما تظهر مهنة جديدة أو شخصية مرموقة تتبنى الأسرة اسمها. فلا أعتقد أن آل الساعاتي على سبيل المثال كانوا يمتهنون تصليح أو تجارة الساعات منذ زمن بعيد. ينطبق الحال أيضاً على آل الدباغ أو آل كبة وأبو التمن وغيرهم. وبالنسبة إلى أسرتنا، رغم دور مهنة الغزل والنسيج في تاريخها إلا أنها تسمت بأسماء الأشخاص، فما أن ظهرت مكية حتى تحول اسم الأسرة إليها، بعد أن عُرفت زمناً طويلاً بأسرة الحاج عبد العزيز. ظهر في تاريخ أسرتنا، بعد مكية، نساء عديدات تمتعن بشخصية قوية، لكنهنَّ لم يستطعن فرض أسمائهن على الأسرة، ذلك لأن اسم مكية ارتبط بعلاقة السوق والمهنة، ثم التعامل المباشر مع الناس. لم أهتم حينها وأسأل المسنين عن أخبار الجدة مكية، ودورها المؤثر في أسرتنا، فما ذكرته كان من سماع حكايات عابرة لم ترتق إلى مستوى تسجيل مذكرات.

تكرر اسم الجدين عبد العزيز ومكية كثيراً بين الأجيال الماضية، حتى بات من الصعوبة بمكان تحديد الأزمنة بين الأسماء بدقة، فما أتمكن من تخمينه كان أول جدين عاشا في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. إن صعوبة التوثيق عموماً بين العراقيين المسلمين، بسبب عدم توثيق الولادات، وما نقرأه في التاريخ من تحديد زمن الأشخاص المؤرخ لهم، من حكام ووجهاء، هو تاريخ الوفاة المكتوب على شاهد القبر، الذي يزول بعد تقادم الأيام. ارتبط توثيق الولادة أو الوفاة بمناسبة ما مثل الأعياد أو أيام عاشوراء، أو حدوث فيضان أو حرب، أو خسوف وكسوف، فولادتي مثلاً صودفت العاشر من محرم، فكانت هذه المناسبة تأريخاً لها، وبأثرها سميت بحسين كما سيأتي لاحقاً.

لعلَّ تقليد اقتران الولادة والوفاة بحادثة ما كان استمراراً لتقليد عراقي قديم، سومري وبابلي، هذا ما أشار إليه بعض خبراء الآثار والمجتمعات القديمة. فمن طريف ما ذكره لي أحد المعارف بشأن عدم توثيق الولادات، أنه لم يتمكن من التفضيل بين رواية والدته ورواية والده في ميلاده، فوالدته تقول: إنه ولد عام الفيضان، وهناك فيضانات لا عدَّ لها حدثت في الثلاثينيات والأربعينيات، ويقول والده: إنه وُلد في السنة التي اشترى فيها ماكنة طحن، وفتح معملاً للطحين، والفرق بين الروايتين ست سنين أو يزيد.



منازل سوق الغزل

مهنة الغزل والنسيج

كانت مهنة الأسرة القديمة تجارة الغزل والنسيج، بعد تجميعهما من ورشات الحياكة، في البيوت أو الدكاكين الخاصة. ومن دون شك، كان لهذه المهنة مكانة خاصة بالعراق، فأوسع الأسواق كانت أسواق الغزل والنسيج، وما يتفرع عنها من تجارة الأقمشة والألبسة والأزياء المختلفة. توسع الأجداد عبد العزيز ومكية وذريتهما في تجارة الحرير، وهو أفخر أنواع النسيج، بعد وصوله من الصين وأماكن أخرى، أي عبر طريق الحرير الذي ينتهي بموانئ البصرة، ثم تولى الوالد الحاج صالح والأخوة وأبناؤهم مهام التجارة في سوق البزّازين. فمن أبرز المتأخرين في تجارة النسيج ابن العم خزعل مكية الذي عمل على تصدير النسيج واستيراده بين بغداد وحلب، وإثر ذلك تزوج بسيدة حلبية، وكان مخزن ابن العم كاظم مكية للأقمشة مشهوراً ببغداد بالأقمشة المستوردة من الخارج خصوصاً الأقمشة الإيطالية. فكاظم مكية كان أول مَنْ نافس اليهود في الاستيراد من الخارج، ليصبح، في ما بعد، من تجار بغداد الكبار في الغزل والنسيج المستوردين، وقد استقطب لمتجره زبائن من العائلات البغدادية الغنية، من يهود ومسيحيين ومسلمين.

دور يهود بغداد

شكلت أسواق بغداد محطات جذب واستقطاب للتجار وأصحاب المهن، والحركة التجارية أنشط ببغداد من غيرها من المدن العراقية، وما ميّزها آنذاك وجود يهود بغداد وتفوقهم في التجارة والأمور المصرفية، وكانوا أفضل العراقيين في هذا المجال. أذكر من العائلات البغدادية اليهودية، النشطة في التجارة، عائلة فتال. فربما ارتبطت التسمية بحرفة فتل الحبال، أو بيع فتائل الفوانيس ووسائل الضوء الأخرى، وما لذلك من علاقة بالحياكة وتجارة النسيج، التي برزت فيها عائلة مكية، وكانت هناك علاقة وصلات بين العائلتين بحكم المهنة والجيرة.

كان اليهود العراقيون متفوقين في إدارة حركة السوق الداخلية والخارجية، ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغات الأجنبية الضرورية في عمليتي الاستيراد والتصدير، أتاحتها لهم مدارس طائفتهم الخاصة ببغداد. فليس اعتباطاً أن تختار الدولة العراقية في أول وزارة لها اليهودي العراقي ساسون حسقيل وزيراً للمالية، وقد نجح هذا الوزير في حفظ حقوق العراق في المعاهدات النفطية والتجارية، عندما اشترط سعر النفط بالذهب. والجدير بالذكر انتباه التجار الشيعة، بسبب استيراد السماورات من الخارج، إلى التقصير في تعلم اللغة الإنكليزية أو اللغات الأجنبية بشكل عام، فعمدوا إلى تعليمها أبناءهم في مدرسة الجعفرية، الكائنة بمحلة صبابيغ الآل. عموماً، ارتبط البغداديون الشيعة واليهود وغيرهم بعلاقات السوق والمهنة والمحلة، وكم عزز هذا من اللحمة العراقية، فغرفة التجارة كانت برئاسة جعفر أبو التمن ونائب الرئيس إبراهيم حاييم، وسكرتير الغرفة مير بصري.

كانت المهنة إرثاً يخلفه الآباء للأبناء، فليس هناك مدارس ومعاهد تتكفل كسب مهنة أو وظيفة جديدة، غير التي يتوارثها الناس أباً عن جد. فتصبح هوية لفترة طويلة من الزمن. أصبحت المهنة دالة على هوية العديد من الأسر البغدادية، حتى بعد تركها بزمن طويل، مثل أسرة السراج، أبي البن، أبي ذهب، العطار، الباججي، البياع، الصباغ، البقال، الفتال، الساعاتي، أبي طحين، آل كبة، الحداد، آل عجينة وغيرهم.

بعد وفاة الحاج صالح انتقلت مهنة تجارة الغزل والنسيج إلى أبناء عمي وهيب، وقنبر وناصر أبناء عمي الحاج عبد المجيد، وكان ناصر ضابطاً في الجيش العراقي، ربطته علاقة زمالة مع الضباط الذين قاموا بثورة 14 يوليو/تموز 1958، أثناء دراستهم في الكلية العسكرية. وكما أسلفنا نجح في المهنة أيضاً أولاد العم خزعل وكاظم مكية. ورغم ما تشير إليه منزلة الضابط من مكانة اجتماعية، إلا أن ناصر كان يجمع بين عمله في الجيش والعمل في متجر الغزل والنسيج، ثم فضل العمل بالمتجر على المنصب العسكري. بالنسبة إلينا، نحن أبناء الحاج صالح، لم نستطع وراثة تلك المهنة عن والدنا، ففضلنا كغيرنا دخول المدارس ثم الدراسة الجامعية.

الحاج صالح والحاجة بهية

كان الوالد أكبر الأخوة الثمانية سناً، أخمن ولادته كانت حوالى العام (1860)، وأعمامي هم: وهيب، صافي، حسن، غناوي، عبود وعبد المجيد، والعمة الوحيدة صفية. ربطته بالوالدة الحاجة بهية علي الذراع علاقة الجيرة بمحلة صبابيغ الآل. كانت دار أخوالي متواضعة ونادراً ما يُقام فيها مجلس عزاء حسيني أو حفل استقبال على طريقة مجالس الدواوين العامرة آنذاك، مثل ديوان الحاج صالح. فالأمر ارتبط أساساً بالحالة المعاشية، فالوالد يُعد نسبياً من الميسورين، مكنته حالته من فتح ديوان تعقد فيه المناسبات من أعياد ومراسيم عاشوراء، وتُقام فيه مأدبة إفطار لأكثر من أربعين فقيراً ومتعباً طوال شهر رمضان من كل عام. كان بيت الأخوال بسيطاً، متوسط مساحة الحوش، يحوي تكية، ولم يحو طارمة (بلكون) ولا إيواناً، ورغم صغره كان حميماً تتوسطه شجرة تألفها الطيور طوال النهار.

ساعدت منزلة والدي الاجتماعية بالمحلة في زواجه من والدتي، رغم فارق السن بينهما، فكان يربو على الخمسين بينما هي في أول العشرين من عمرها، فحسب تخميني أيضاً كانت من مواليد 1890. توفي الوالد عنها وهي في عزِّ شبابها، يومها كان لا يزيد عمري على الخمس سنوات. قبل الزواج من والدي كان من المفروض أن تتزوج قريبها محمد علي مقصود، فهو الأقرب سناً، ولما بينهما من مودة وإشارات محبة، فعلى ما أظن كانا يتبادلان الهدايا، فحسب تقاليد الأسر العراقية المحافظة الإيماءات والإشارات أقصى ما تبلغه العلاقة.



الوالدة بهية مع عائلة عبد العزيز

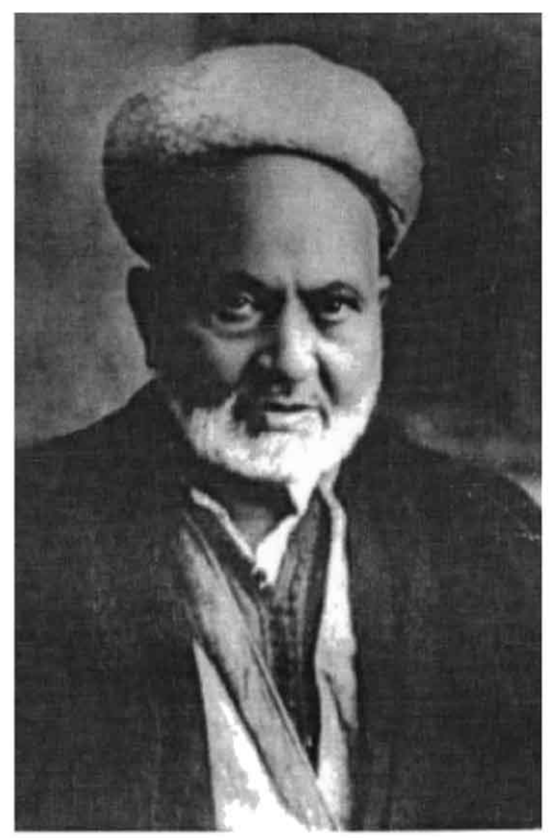
كان الحاج صالح تقياً يؤمن بالعدل والعمل الصالح، وميثاق المسلم الخلقي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان لا يعترف بشرعية دينية وقانونية ومذهبية غير شرعية المؤسسة الدينية بالنجف الأشرف، رغم أنه عاش في العهد العثماني، وكان المذهب الحكومي آنذاك المذهب السني. حرص على تسليم الحقوق إلى الإمام أو المرجع المُقلد طوال حياته. تذكر آية الله السيد محسن الحكيم والدي، فهو الذي تولى الصلاة عليه في جنازته، قال لي ذلك عند لقائي معه حول مشروع جامعة الكوفة العام 1967، وكان ابن أخيه الحاج خزعل يتقدم المشيعِّين إلى النجف. ذلك قبل تولي السيد الحكيم أمور المرجعية الدينية بحوالى ثلاثة عقود. كانت الحقوق التي يحرص الوالد على تسليمها للمرجع الأعلى هي الزكاة والخمس، من غير النذور التي تهديها والدتي عادة بين الحين والآخر إلى أضرحة الأئمة بالنجف وكربلاء وسامراء، وغيرها من الأماكن المقدسة.

توفي والدي ولم تحتفظ ذاكرتي له سوى طيف أو خيال. لكن شقيقي عبد العزيز، الذي التقيته بالأردن آخر لقاء قبيل وفاته مع أفراد العائلة في 14 يوليو/تموز 1994، أعاد لذاكرتي ذلك الخيال الشارد، قال: «كان طويل القوام، أصيبت إحدى عينيه بمرض مزمن، أدركته وهو طريح الفراش في المرض الذي توفي فيه، لعله مرض السرطان». استرسل عبد العزيز في ذكرياته قائلاً: «أتذكر الطبيب التركي (كاني) يأتي لمعالجته راكباً حماره الأبيض. كان الوالد شديد التدين، لكن ديانته لم تجعله متعصباً في فرض طقوس العبادة على إخواننا الأكبر منا، تدين ممزوج ببساطة وطيبة، لا يجعله يضغط على الآخرين».

بعد وفاة الوالد كان حضن الوالدة الملجأ الدافئ، فتحول مجرى العلاقة من بيت والدي والأعمام إلى بيت الخال عبود الذراع. كان تأثير أسرة أخوالي في شخصيتي أعمق من تأثير أسرة مكية، والسبب هو غلبة مشاكل الوالدة مع إخواني أثناء مرض الوالد الذي استمر حوالى السنتين، وامتدت إلى بعد وفاته.

كانت ثقافة والدتي الدينية بسيطة، حالها حال المجتمع البغدادي آنذاك، تستطيع وصفها بالثقافة الأخلاقية أكثر منها دينية، وأهم ما فيها الأمانة، والتمييز بين الحلال والحرام بقوة. كانت الوالدة أفضل من كثير من نساء المحلة، فهي تُجيد قراءة القرآن، دون قراءة الكتب الأخرى. تعلمت تهجئة الحروف بالخط الذي يُنسخ فيه القرآن، مثل رسوم ورموز وصور، فهي بذلك لم تعتن بعمق المعنى بقدر عنايتها

بصور الكلمات، وبهذه الإمكانية البسيطة استطاعت القيام بمهام تعليم قراءة القرآن لأولاد المحلة وبناتها، من جيران وأقرباء، وكنتُ أقوم بمساعدتها، في أداء هذه المهمة، وذلك بعد تعلمي لأوليات القراءة والكتابة في المدرسة.



الحاج علي المطار خان
الوالدة

بعد وفاة الحاج صالح

كان الأخ الأكبر مهدي يقوم، أثناء مرض الوالد، بمهام رعاية الخان، لكنه استأجر دكاناً بالكاظمية دون علم الجميع، وأخذ ينقل إليه من بضاعة الخان. فبعد وفاة الوالد لابد من قسمة الميراث بين الأخوة بالتساوي بعد أن توفيت أختنا الوحيدة مراتب في طفولتها. كانت الوالدة تقول عن مهدي في لحظات غضبها بعد مماطلته في دفع حصتنا من الميراث: «أريد أشوفك تشحذ بباب الحضرة»، أي أن يفتقر ويقف ينتظر الصدقة بصف الشحاذين بباب ضريح الإمام علي بن أبي طالب. فما هي إلا شهور واحترق الدكان الذي استأجره بالكاظمية، وذهب كل ما أخفاه عنا وقوداً للنار. ترك مهدي البيت الكبير بعد وفاة الوالد مباشرة، ليسكن مدينة الكاظمية، قبل الحريق الذي فضحه، ثم ترك بعده أخوانه، فتركنا نحن أيضاً إلى بيت خالي عبود، فأستُأجر البيت من قبل عائلات مسيحية.

كانت الوالدة تبعثني إلى مهدي لاستلام المقرر من حصتنا، يعطيني لكن بعد مماطلة ومراجعة طويلة، وهذا ما دفع بالخال عبود إلى الوقوف له بالمرصاد حتى أخذ حصتنا منه، إضافة إلى ما أسفرت عنه جهود جارنا القديم ووصي الوالد علينا أبي كُلل. أخذت الوالدة حقنا كاملاً عن طريق المحكمة الشرعية، وساعدت فيما بعد عبد العزيز في شراء حصص الآخرين من بيت الوالد، عن طريق بيع ما تملكه من حليّ وبهذا أصبح البيت كاملاً لنا. أما حصة الثلث من البيت، التي أوصى بها الوالد لفقراء الأسرة، فلا يمكن التصرف بها، فحصل الاتفاق على شراء ملك خاص كدكان يكون ريع إيجاره للموصى بهم.

تردت حال مهدي كثيراً، حتى تحول إلى بائع على الرصيف، وشاءت المصادفة أن أراه في أحد الأيام على قارعة الطريق دون أن يعرفني، كان عمري آنذاك خمسة عشر عاماً، أي حوالى العام 1929، فالقطيعة بيننا كانت طويلة. أذكر سألني، مثله مثل غريب، عن

بيت كاظم مكية، فأوصلته إليه دون أن أفصح له عن شخصي، رغم ما جال بداخلي من شوق إلى الحديث معه، لكن تذكر شدة تلك الأيام ومرارتها منعني من كشف شخصيتي له.

عرفت بوفاة مهدي أثناء دراستي في الخارج، أي بحدود مقدمة الأربعينيات. مات بعد أن أضاع كل شيء، فنظر إليه العارفون بما فعله بتركة الوالد نظرة ازدراء، فقال مَنْ قال: «هذا مصير مَنْ يأكل حقوق الأيتام»، ويعنون بذلك أنا وأخي عبد العزيز. لم يشعر مهدي بذنبه اتجاهنا إلا بعد عزمه الذهاب إلى مكة لأداء الفريضة، عندها طلب الصفح بواسطة العمة صفية، أي نقول له «أنت محلل وموهوب»، لكنه سمع من البعض عبارة: «أنت لا محلل ولا موهوب»، فعزف عن أداء فريضة الحج. وأخيراً، لخص الخال عبود الذراع قساوة إخواننا، والمقصود مهدي وأفعاله، بقوله لي، عندما استخدمت لقب مكية (سر نيم) وأنا ببريطانيا: «لماذا انتسبت إلى آل مكية، بعد الذي حصل معكم»؟ لكن الفضل بعودة العاطفة الأسرية إلى مجراها السابق يعود إلى العمة صفية، وإلى العم الحاج عبد المجيد مكية الأخ الأصغر للوالد.



مع شقيقي عبد العزيز (إلى اليسار)
مطلع الثلاثينيات

حمودي ومصطفى

أما أبناء والدي الآخران، مصطفى وحمودي، الأصغر سناً من مهدي، فلم يبد منهما ما بدا من شقيقهما الأكبر ضدنا، غير أنهما لم يستفيدا من تجربة الوالد ومكانته التجارية في السوق، فظلا على هامش الحياة. عمل مصطفى في كاراج الباصات، ثم في استيراد الأقمشة، ولديه دكان صغير في سوق البزازين، لكنه خسر كل شيء، وظلت صلته بنا مستمرة من بعيد، حصل ذلك بفضل زوجته بدرية وصداقتها القديمة مع الوالدة، منذ أيام السكن في البيت الكبير، وكانت تصطحبها إلى زيارة مرقد الإمام موسى الكاظم، وعادة كنت أرافقهما في مثل هذه المناسبات.

أما حمودي وهو أقرب الإخوان الثلاثة بالنسبة إلينا، فكان عاطفياً يحب الشعر، ويميل إلى البساطة والترف في آن واحد. لكنه من جانب آخر كان غير أمين في تعامله التجاري، فعندما كان يعمل مساعداً مع عبد الحسن بن عبد المجيد مكية في دكان القماش كان يغالط في التسعيرة على المشترين البسطاء من أهل الريف، رغم أنه ذهب إلى الحج. فمن الطريف أنه كان يقسم بأيمان لا يعنيها، بعد أن يتلاعب بالألفاظ ويحيل المعاني إلى باطن وظاهر. على سبيل المثال أنه كان يقسم للمشتري ويفلسف قسمه على هواه : «وحق ألي

يرحوله عرايا»! فالمشتري يفهم أنه الله، فعند حج بيت الله الحرام لا يلبس الحاج غير المُحرم، وهو عبارة عن قطعة قماش بيضاء خالية من الخياطة، لكن حمودي كان يقصد الحمّام. ومن قسمه الطريف أيضاً قوله للمشتري: «دم الخنزير يحرم عليّ وعلى والديه إذا كذبت عليك». فالخنزير، وليس دمه فقط، كان محرماً على المسلمين تحريماً قاطعاً، لكن العبارة توهم المشتري لبساطته. والشيء بالشيء يُذكر نقل لي عن ظرفاء النجف أن أحدهم قبل الخروج من الدار يطلب من زوجته شراء سيارته منه، التي ينوي بيعها في الكاراج، بمبلغ ألف دينار وبعد أن تنطق بالمبلغ يرد عليها أنه لا يبيعها، وعندما يتقدم أحد لشرائها يقسم له أنه في الصباح تقدم مَنْ دفع بها ألف دينار ولم يبعها. أو أن يضع رغيف خبز وسط السيارة، ليقسم للمشتري أن له خبزة، موحياً له أنها جيدة، وسيكسب منها ومن هذه الطرائف كثير.

أخبرني ابن العم كاظم ما حدث لحمودي مع الوالد، قال: «سأل حمودي يوماً إلى متى تبقى عالة، روح وأخذ لك جومة (غزل ونسيج)، وأعطاه ليفتح له محل عمل، لكنه أخذ النقود واشترى بها ملابس، ثم ذهب إلى دكان عبد الكريم الطحان واشترى من بضاعته بمبلغ عشرين أو خمسة وعشرين مجيدي (عملة عثمانية)، كان حينها مبلغاً كبيراً، فقال له سجلها على والدي، وبعد أسبوع جاء الطحان يطالب الحاج صالح بالمبلغ، فانفعل الحاج وولى حمودي من أمامه».

أخلاقية محلل وموهوب

أدى الحاج صالح فريضة الحج مرتين، ذهاباً وإياباً، مع قافلة جمال تحمل الحجاج البغداديين السنوية إلى مكة عبر الكوفة والنجف، وهو الطريق نفسه الذي كان يسلكه البغداديون من الزمن العباسي، وآخر نقطة توديع القافلة عند نهايات النجف. كان تعامله في السوق، مع الوافدين من القرى والأرياف، قائماً على أساس الثقة، وفق حكمته المتمسك بها على الدوام «محلل وموهوب». يبتاع الريفيون من خانه العباءات والجراغد والفوط (معروفة بين العراقيين بالشيلة غطاء لرأس وصدر المرأة منسوج من الحرير أو الغزل الناعم). يحفظ الطرفان البائع والمشتري عن ظهر قلب ثمن البضاعة وموعد تسديدها بعد يُسر الحال، ويتم تسديد الديون المؤجلة بالنسبة إلى أهل الريف أثناء تسوقهم السنوي. وحصل أن مدد الحاج صالح فترة التسديد في مناسبات القحط، ورفض عرض بعضهم في إعطاء أرضه، وهي أعز ما لديهم، لتسديد الدين، مثلما فعل بعض في مدينة البياع، اعتقاداً منه أن ذلك حرام، وما كانت موافقة المدين في وقت العوز إلا اضطراراً.

حفلت تجارة الغزل والنسيج بمستويات وطبقات اجتماعية متفاوتة داخل أسرتنا، فهناك التاجر والدلال والبائع الصغير. كان مركز التجارة يُدار من الخان المشهور الواقع في نهاية شارع البنوك أو السَّمَوأل نسبة إلى الشاعر اليهودي القديم، يواجه حافة الشريعة على دجلة مباشرة، والمقهى المقابل للخان كان بمثابة مركز البورصة.

كنت أذهب إلى الخان مع شقيقي عبد العزيز، حينها كان عمري يراوح بين خمس إلى ست سنين، أي في السنة التي توفي فيها الوالد تماماً، على ما أظن كانت بين 1919 أو 1920. شاهدت أحداث الخان اليومية، ولا زالت تفاصيلها مطبوعة في مخيلتي، يتم الكثير من معاملات الغزل والنسيج داخل بغداد وخارجها عبر الخان. أخبرني ابن العم كاظم مكية، الذي عاصر حياة الوالد وتفاصيل نشاطه التجاري، حكاية طريفة، قال فيها: «كان الحاج صالح يعتبر العمل عبادة، دون دراية فقهية أو درس بفروع الدين، إنها فطرة الإنسان الطيب، فحدث أن زاره نفر من الزبائن ودفع له ليرات ذهبية بدلاً من العملة السائدة آنذاك الروبية، فقال الحاج صالح للزبون: أنا تعاملتُ معك على أساس أن الدفع بالروبية، فماذا أعمل بهذه الليرة الذهبية؟ خذها وتصرف بها في مكان آخر، عمد الحاج صالح إلى ذلك رغم درايته بفارق القيمة بين الليرة الذهبية والروبية».

كان يرفض عرض المتعاملين الاستدانة منه مقابل رهن عقاراتهم، أو ما يملكونه من الضروريات، لتُصادر منهم بعد عجزهم عن التسديد. فالتعامل بالليرة الذهبية أو قبول الأراضي رهينة مخالف عند الحاج صالح لقاعدة «محلل وموهوب»، التي تعامل بها مع الناس، كعرف أخلاقي لا يمكن تجاوزه بمكان. كثيراً ما يحدث ذلك التعامل باتفاق اجتماعي، بقوة الضمير، بعيداً عن الرسميات الحكومية. فكم كان ذلك الاتفاق قوياً وسارياً بين الناس وهم يعرضون أرضهم وما يملكون من حيوان ونبات مقابل تسديد الديون والوفاء بالعهد الشفوي بينهم وبين البائع!

عبر أدب وتقليد مجتمع السوق حينذاك عن آصرة اجتماعية متينة بين الناس، وكشف أيضاً عن قدرة الناس على إدارة حياة السوق وفق التعاطي اليومي بعيداً عن المؤسسات القانونية. كان الحاج صالح يبارك المشتري بعبارته المفضلة «محلل وموهوب» عند نهاية كل صفقة تجارية، وكأن تلك العبارة تُضفي الشرعية الأخلاقية على البيع. اعتقدت والدتي، في ما بعد، أن الخروج على القاعدة، سبب شقاء وفقر أخي الكبير، غير الشقيق، مهدي.



الخال عبود الذراع

الخال عبود

بعد وفاة الحاج صالح، والانتهاء من مراسم العزاء التي فرشت لها الحصران على امتداد شارع محلة صبابيغ الآل، لم يبق ما يشجع على الحياة في البيت الكبير بعد فقدان مكانته والرابط بين أفراد الأسرة، فبعد مرور سنة كاملة على الوفاة قرر خالي عبود تركنا البيت وتولي مهام رعايتنا، أنا والولدة وأخي عبد العزيز، بعد أن أصبحنا من دون را عٍ، وما حصل من خلافات مع أخوتنا حول الميراث، رغم أن الوالد أوصى برعايتنا للجار الوفي حميد أبي كلل، الذي حرص على تنفيذ الوصية. انتقلنا إلى بيت الخال، وكان مجاوراً لبيتنا الأول، وكنا نعيش على حصة الوالدة من التركة، وإيجار البيت. لكن ذلك لم يسد ضائقتنا المالية، فأحوال الخال كانت غير جيدة، لهذا رافقت الوالدة زوجة خالي إلى محل رهن صيغتها وهي عبارة عن ملوي أو سوار ذهب، وقد استفاد الخال من الرهن فتمكن من نقل دكانه الكائن بمحلة الدهانة إلى دكان أكبر يقع في الشارع العام.

أخذنا نتنقل مع الخال من بيت إلى آخر، فالبيت الأول كان في محلة صبابيغ الآل، والثاني بمحلة القشل، والثالث بمحلة السويدان، وكان الجيران من اليهود، كثيراً ما ذهبت لمشاهدة طقوس أعيادهم، وكل يوم سبت تأمرني الوالدة بمساعدتهم في تنظيف وإشعال الفانوس، وبعد رجوعي كانت تطلب مني تعليل فمي ثلاث مرات، وتقول لي ساعدهم، ولكن حاول أن لا تأكل عندهم، لكن لم يؤثر هذا في آصرة الجيرة وعاطفتها الحميمة، بقدر ما هو تنفيذ غير وا ع للوصايا الفقهية.

أخيراً استقر بنا الحال مع الخال في بيت يقع بمحلة الدهانة. كان تعلقه بنا كبيراً، رغم صلابة تعامله معنا بين الحين والآخر، ليس بسبب الخؤولة فقط، وإنما كنا نسد له فراغاً كبيراً في حياته الشخصية، لعدم وجود ذرية لديه. كنا نعمل معه في الدكان لساعات طويلة بعد العودة من المدرسة وفي أوقات العطل. أتاح لي الطريق اليومي من البيت إلى الدكان رؤية تمارين رياضة الزورخانة في محلة صبابيغ الآل، الرياضة التي خرجت المصارع المشهور عباس الديك، وهو شخصية بغدادية محبوبة، شديد التواضع مع ضخامة البُنية ومتن العضلات، فكان غزير العاطفة تجاه الناس وأبناء محلته. كانت المنازلة بين ابن محلة صبابيغ الآل الحاج عباس الديك والمصارع الألماني الهر كريمر عند زيارته لبغداد العام 1935 مناسبة مشهودة ملأت أخبارها المقاهي والأسواق البغدادية. مارس الخال رياضة الزورخانة في نواديها وفي البيت كجزء من حياة محلتنا المألوفة.

كان زواج خالي الثاني، لأجل الذرية، وسط تكتم وحضور محدود، مراعاة لمشاعر زوجته الأولى. ففي يوم زفافه ذهبنا معه إلى أحد المطاعم، تعويضاً عن حفلة الزفاف، ولدت له الزوجة الثانية منير، الذي عمل الأخير في الملحقية العسكرية العراقية بلندن، وبأثر ذلك زار خالي لندن، كان ذلك بالستينيات على ما أذكر. بعد حين لاحظنا علاقة الخال المتوترة بولده منير وأخته، حتى أن ولده الوحيد اضطر إلى ترك البيت قبل أن ينهي الدراسة.



مقبض معدني داخل الدكان

وبطبيعة الحال أغضب زواج الخال زوجته الأولى، وحملت جزءاً منه للوالدة، لذا ساءت العلاقة بينهما، حتى انتهت إلى خروجنا من البيت. فالنزاع المستمر بين الوالدة وزوجة الخال من الخواطر المؤلمة، وأصبح أمر لا يطاق عندما أخذ الخال أسناد زوجته، فشعرت الوالدة بمرارة من موقف أخيها غير المتوقع. اضطررنا بعد ما حصل إلى ترك البيت واستئجار بيت خاص بنا، وهذا ما سيأتي في نهاية الفقرة. إن نسيت أحداثاً وتفاصيل كثيرة من بيت الخال، لكنني لا أنسى اعتداءه على والدتي، بسبب نفاق زوجته، وضربه لها في السطح أمام عيني، حينها لم أتمكن من الدفاع عنها رغم محاولتي في دفع يده عنها، فحُبس الغيض في صدري حتى هذه الساعة، فالقسوة التي تعرضت لها الوالدة أمر يصعب نسيانه.

كان وجودنا في بيت الخال لا يعني أنه ينفق علينا، بل كنّا عائلتين في بيت واحد، كل عائلة تختص بمصروفها ومستقلة بمطبخها. كانت لوالدتي ديون كثيرة على الخال، فبعد أن خسر تجارته بسبب الأمطار التي هطلت بالبصرة ودمرت موسم التمور في تلك السنة، اقترض منها حصتها من ميراث والدي، وكان يسدد المبلغ لنا مواد نشتريها من دكانه، كنت حريصاً على تسجيل ما نأخذ من سكر وشاي وغيره في دفتر أو سجل الدكان اليومي. كنا، أنا وأخي عبد العزيز، نشعر بمراقبة الخال عملنا في الدكان، وإرضاء المشترين واليقظة المستمرة مهمة جداً لديه، بل كان يحسب الدخل عند مغادرته الموقتة، وأحياناً نراه ينظر إلينا من الجهة الثانية ليرى هل انشغلنا عن الدكان، أو هل نضع النقود بالدخل عند البيع أم لا؟



الزقاق المؤدي إلى بيت
الخال عبود الذراع

تعرفت من خلال مساعدة الخال على أحوال السوق والتجارة، فقد كلفني بمهماته بتسوق بضاعة الدكان، مثل: الصابون، وصابون أبو الهيل، والأعشاب، والجكليت، والنستلة بشكلها القديم، وغيرها من البضاعة الضرورية والكمالية المستوردة، التي دخلت أسواق بغداد حديثاً. لم تخل تلك الفترة من الغزل الذي لا يتعدى حلو الكلام والانتظار الجميل، بالفتيات اللواتي يشترينَّ الحاجات اليومية. كنت أشعر وأنا بمكان خالي كبائع، وصاحب محل بالزهو أمامهنَّ.

من نوادر ما يحصل أن نشتهي تناول بعض الحلوى دون علمه، أو أخذ عانتين أو ثلاث لشراء عرموط من الفاكهاني الذي يجلس في رأس الدربونة، وكان يخفض لي سعر الفاكهة الناضجة (الاحكَة) كما يسميها البغداديون. رغم ذلك كان اهتمامه وغيرته علينا لا توصف، فقد حصل أن تشاجر وكاد يفقد حياته بسبب عبد العزيز، عندما اعتدى بائع الدوندرمة المقابل للدكان عليه، وهو يجلس مكان خاله، فلما عاد الخال وعلم بالأمر ذهب إلى صاحب الدوندرمة وطرحه أرضاً، لكن الأخير سحب سكينة وحاول طعن خالي ببطنه، أصابت الطعنة فخذه، وتم علاجه بمستشفى المجيدية، المستشفى الجمهوري أو مدينة الطب حالياً.

نظرت يومها بتجاهل إلى تلك الصخرة الكبيرة المربعة، التي اصطدم بها معولا خالي وأخي عبد العزيز وهما يحفران حفرة داخل البيت، وكم حاولا اخراجها لكنهما لم يستطعا. لكني عدت إلى استرجاع تفاصيل ذلك الحدث بعد سماعي الدكتور مصطفى جواد إن دار الخلافة العباسية كانت ممتدة إلى محلة صبابيغ الآل حيث سوق الغزل وجامع الخلفاء، وإن العديد من البيوت الحديثة شُيدت بأحجارها وفوق أطلالها. لم يحدث أي تنقيب أثري في ذلك المكان، فمن المؤكد أنه يحفل بآثار القصور والدور العباسية.

أحزان بيع البيت

جعل اعتزاز البغداديين ببيوتهم التقليدية حدث بيع البيت أصعب ما يواجه أهله، فمن النادر أن يمر ذلك بسهولة. لا يتعلق الأمر فقط بالأرض والحيطان والأبواب، بقدر ما يتعلق بالنفوس التي تركت آثارها بين تلك المفردات. ولعلَّ سبب هذا الاعتزاز تلك العلاقة الحميمة، التي يفرضها التعايش اليومي بين أحضان ذلك البيت، فالذكريات متراكمة آباء عن أجداد. كان مشهداً محزناً يوم بعنا البيت وانتقلنا مع الخال. رأيت أجواء حزن شديدة، تتخلله نوبات من البكاء المؤلم، فاعتقدتُ أن هناك مصاباً قد حل بفرد من أفراد العائلة، لكن بعد الاستفسار عرفت أن المصاب هو بيع البيت. يتذكر عبد العزيز في آخر لقاء لنا بعمان 1994 «عندما باع خالي بيته لإبراهيم مبارك جلب الأخير كيساً فيه ثلاثة آلاف روبية، وبعدها بدل خالي بضاعة دكانه من البقالة إلى العطارة، وبقيت أساعده حتى انتقل إلى دكان في شارع الرشيد»، وهو نوع من التحديث في صنف البضاعة، أي بدل المتاجرة بالمواد العطارية التقليدية أخذ يتاجر بالمعلبات المستوردة من العالم الغربي.

الاستقلال ببيت خاص

بعد الخلافات العائلية مع زوجة الخال والخال وبلوغ عبد العزيز السابعة عشرة، حوالى عام 1928، وهي سنٌّ تؤهل إلى تحمل المسؤولية آنذاك، قررنا السكن في بيت خاص بنا. فأول بيت مستقل سكناه كان بمحلة السويدان، وهي المحلة المكملة لمحلة صبابيغ الآل، ثم سكنا بيتاً بمحلة القاطرخانة، ثم سكنا بيتاً بمحلة العبخانة، حيث محلات صناعة العباءات. ومن هذا البيت سافرت للدراسة ببريطانيا، بعد أن أكملت الثانوية في المدرسة المركزية ببغداد. وافق أيضاً أن حصل عبد العزيز على وظيفة مدرس بالمناطق الجنوبية، الشطرة وسوق الشيوخ، قبل دخوله إلى كلية الطب ببغداد في الأعوام الأولى من تأسيسها. حينها أخذ يدخر ما يفضل من راتبه عند الخال، وقرأت لخالي رسالة طلب فيها عبد العزيز بطريقة مهذبة ورمزية جداً أن يوقع له إيصالاً بما يصله من النقود، ربما يتعلق الأمر بحدوث طارئ ما.

وبهذه الطريقة تمكن عبد العزيز من شراء حصص إخواننا الآخرين في بيت الوالد، من راتبه ومن الباقي من حصة الوالدة، فاتخذه سكناً ومحلاً لعيادته الطبية بعد حين. كانت عيادته أول عيادة بمحلة صبابيغ الآل، وضع على واجهتها لافتة بخط عريض «عيادة الدكتور عبد العزيز مكية». بعدها قام ببيع البيت والسكن في محل آخر، وظل يحتفظ بحصتي حتى طلبتها منه وأنا على أبواب التخرج من جامعة كامبردج، فاشتريت بها كتباً قديمة من مزادات الكتب ببريطانيا. واعتزازاً ببيت الحاج صالح، الذي شهد ولادتنا ونشأتنا الأولى، وحنيناً إلى محلة صبابيغ الآل حاولت، في ما بعد، عدة محاولات لشراء البيت لكنني لم أوفق.

بعد الاستقلال في بيت خاص بنا، ظهرت توجيهات والدتي كسيدة بيت لا ينافسها أحد، كما كان الحال في بيت الوالد أو ببيت الخال. فكل ترتيبات البيت، الصغيرة والكبيرة، تأتي بتوجيه منها. من مظاهر هذا الاستقلال، أخذت تستقبل صديقاتها كل يوم خميس لغرض الحمام، ففي البيت حمام تركي، بعد أن كنَّ يذهبنَّ إلى الحمام العمومي بالمحلة. كانت آخر مصاحبتي للوالدة إلى ذلك الحمام يوم اعترضنَّ عليَّ النسوة، ودارت معركة كلامية مع الوالدة، فعمري آنذاك كان حوالى التاسعة، لذا قمت بعدها بمرافقة خالي عبود فجراً إلى الحمام، ونحن في طريقنا إلى الدكان.

عيد النوروز

اهتمت الوالدة مثل بقية نساء المحلة بدورة رأس السنة أي مناسبة عيد النوروز، وهي غير ما نعرف من رأسي السنة الهجرية والميلادية. ورغم أنها مناسبة خاصة بالكرد والفرس إلا أن الوالدة لم يفتها الاحتفال بها. من الواضح كانت المناسبة تمرُّ دون مشاركة اجتماعية صارخة، فالاحتفال بها يختصر على تجديد الأشياء، كتبديل أواني المياه الفخارية من الكوز أو الإبريق والشربة (التُّنَكَة) بأوانٍ جديدة. وفي ظلها ينتعش سوق الفخار، الذي يُعرف بسوق الكواز.

من طقوس حلول النوروز بمحلتنا أن تُصف شرابي الماء الجديدة في صينية، الأباريق للأولاد والتنك للبنات، مع قماش تُنثر عليه حبات قمح ثم يُصب عليها الماء. بعد فترة وجيزة تتفتح الحبوب، فتبدو الصينية خضراء، حيث يُحيط النبات بالشرابي، ثم يُوزع على أوانٍ أخرى. ما أعتقده أن طقوس هذا الاحتفال ما هي إلا بقايا من احتفالات قديمة، كانت ترمز إلى الخصب ورمزه النباتي. إن ظهور العشب والنبات يعني ظهور ربيع جديد، فنوروز يصادف منتصف الربيع. كنا نحتفل ونمارس الطقوس دون أن نسأل لماذا وكيف؟ لهذا ظلت مظاهر حياتنا دون تفسير إلا بعد أن أبرزها الباحثون بعنايتهم بتفسيرها.

البيت الكبير

كانت دار الخلافة العباسية في محلتنا كما أسلفنا القول، فجامع الخلفاء ومنارة سوق الغزل فيها أيضاً، فهذا سبب كافٍ للتعلق بتاريخها وعمق الحنين نحوها، ناسها، بيوتها، وطرقاتها عبر التاريخ الغابر. مثلت تفاصيل حياة المحلة الماضي الجميل في حياتي، فقد كانت بداية تأسيس شخصيتي، وعلاقتي المباشرة مع حاضري، أحملها معي في إقامتي وترحالي.

ولدت ونشأت ببيت من بيوتها، المتميزة بهيكلها العمراني، فعلى الرغم من المساحة الاعتيادية لمثل هذه البيوت، التي لا تتجاوز مئتي متر مربع، كان بيتنا يضم بين جدرانه ثلاثة أخوان بأربع عوائل، هم إخواني غير الأشقاء: مهدي وزوجتيه، ومصطفى وحمودي، وأنا وأخي عبد العزيز ووالدتنا ووالدنا، إضافة إلى عمنا صافي الذي كان يشاركنا السكن بين الحين والآخر. كذلك اتخذ من الطابق الأرضي مسكناً لفترة طويلة أولاد عمي المذكور، رشيد وتوفيق، وكانا يعملان في دكانهما بسوق القماش، وليس لديهما محل سكن غير بيت والدي.



بيت الحاج صالح

الغريب حقاً، أن ذلك البيت، رغم صغر مساحته، يبدو واسعاً إلى حد كبير، فليس هناك شكوى من ضيق. إلا أن الأمر كما بدا لي أن مساحة الدار تتناسب طردياً مع عمق العواطف بين الساكنين، وسلامة العواطف كانت بفضل صبر والدتي وحكمة والدي، فبحجم قلبيهما كان بيتنا كبيراً قياساً بعظم كثافة سكانه. فكم سيبدو ضيقاً، حتى لو كان قصراً منيفاً، لو استسلم الوالد والوالدة لحقد السيدة خجة زوجة أخي الكبير مهدي، المتولية إدارة أمور البيت. نظرتُ باستغراب، بعد السكن في مكان آخر، لذلك التناسب العاطفي بين المساحة الصغيرة وعدد السكان الكبير، كان ذلك مؤثراً في فهمي المستقبلي لعمران البيت البغدادي.

لم تتبدل طبيعة البيت، في تحمله لعدد من العوائل، بعد استئجاره من قبل عدد من العائلات المسيحية، ثم تحوله إلى مالك آخر. ظل يأوي الكثافة السكانية نفسها أو يزيد. ففي ترددي عليه، بعد عودتي من الدراسة في العام 1946، بما توجبه العاطفة نحوه بين الحين والآخر، وجدتُ فيه خمس عائلات كردية، اجتمع أفرادها على مساحة لا تتجاوز مساحة مشتمل ملحق ببيت من البيوت الحديثة.

تتراوح مساحة المشتمل (البيت الملحق بالمنزل الحديث) بين 150-200 متر مربع. غالباً ما يُلحق بها كراج، وغرفة إضافية. لكنه مقارنة بالبيت التقليدي كان خالياً من الألفة، التي تجمع أكبر عدد من الناس في مكان ضيق. فما يميز البيت البغدادي التقليدي عن البيوت الحديثة هو توزيع غرفه حول فناء الدار الداخلي، حيث تتقابل أبوابها، مع احتفاظ كل غرفة بشخصيتها وكيانها، تجمعها مع الغرف الأخرى علاقات البيت الداخلية. هناك علاقة مباشرة بين فناء الدار والفضاء الخارجي تبدو وكأنها امتداد له، حيث تطل السماء عليه

بشمسها وقمرها ونجومها. تركت تفاصيل البيت الكبير، وما فيه من التعامد بين السماء وفضائه، أثراً في نفسي، ثم ترجمته في معظم أعمالي المعمارية، وتحديد نظرتي إلى التراث، وعلى وجه الخصوص العلاقة الحميمة بين البيت التقليدي والمحلة.

مفردات البيت

سيجد مَنْ يطّلع على كتاب البيت العراقي، الذي نال به الألماني أوسكار رويتر العام 1909 شهادة الدكتوراه، تفاصيل البيت البغدادي مع دقة الرسوم والتخطيطات، وسيكتشف مدى جهلنا في التفريط بعمارة هذا البيت، شملت دراسة أوسكار بيوت النجف وكربلاء والحلة، والسؤال هو أي قيمة لهذا العمران جعلت أوروبياً يتجشم مشاق السفر والإقامة في زمن ليس فيه وسيلة نقل مناسبة ليقدم دراسة فريدة من نوعها في البيت العراقي؟ هذا الكتاب الذي سعيت إلى ترجمته ونشره بعد أن ظل طوال قرن من الزمن مختفياً في المكتبة الألمانية. فبعد أن طلبت نسخة منه من مكتبة برلين، عثرت على نسخته الأصلية في مزاد الكتب بلندن.



شباك غرفتي في البيت الكبير

كان الفناء الوسطي، الذي يُعرف بالحوش أهم مفردة في البيت البغدادي، ثم تأتي الطارمة أو الشناشيل وهي محل اللقاء اليومي والألفة بين الأسرة، فالمداخل التي تفضي إلى الفناء أو الساحة تكون عادة بأشكال منحرفة. فبعد تجاوز الباب الخارجي يستقبلك الممر، الذي يُعرف بالمجاز، وهو بمثابة التهيئة لدخول البيت، فيه يحاول الضيف أن يُسمع أهل الدار كلمات دعاء، أو يطلق بسملة، أو القول يا الله، أو يا ساتر، أو يطلق نحنحة بصوت مسموع.

أما لحظة استقبال الضيف، فيقال بصوت عالٍ من قبل صاحب البيت أو من ينوب عنه من الرجال: «سووا طريق». كلمة الطريق هنا لا تعني المشى، بل تعني تواري النساء في الغرف، وإشارة إلى استعداد العائلة لاستقبال ضيف عزيز وغريب بالوقت نفسه. أثناء مرور الضيف بالممر تكون العائلة قد أخذت مكانها في الغرف، أو ارتدت الحجاب، أي لبست العباءة. لا يعني الحجاب آنذاك مقصده الديني المتزمت، بقدر ما يعني الستر عن عين الغريب، وبطبيعة الحال لا يشمل الأقارب والجيران والمقربين من الأصدقاء.

ينتصب عند المجاز مرتفع أرضي يعرف بالدكة (الدجة)، المكان المخصص لجلوس قارئ القرآن، أو قارئ المجلس الحسيني، في مناسبات الحزن أو الإيفاء بنذر من النذور الكثيرة، ومنها إقامة مثل هذه المجالس في المناسبات المهمة مثل: الزواج، المأتم، الطهور. يتسع البيت لنساء المحلة، أما الرجال فمكانهم الشارع بعد فرشه بالحصران والسجاجيد، عندها يتحول الشارع إلى مقهى ومطعم كبير، يتم فيه تهيئة القهوة والشاي وما يليق بالمناسبة من مأكل ومشرب، أو الهريسة في عاشوراء. أما في المناسبات العادية فيكون الحوش معداً لجلوس الرجال، بينما النساء يجلسنَّ في الطابق العلوي من البيت، ويشرفنَّ من خلاله على الحوش ليسمعنَّ قراءة القرآن، أو القارئ الحسيني.

لكل مفردة من مفردات البيت البغدادي مهما كان حجمه وظيفتها، فالشناشيل هو المكان الذي يُطل منه على الطريق وهو بمثابة امتداد إضافي لمساحة الدار، وتعقد فيها دار ندوة أهل البيت. كنا نتحلق تحت ظلها حول السماور وصينية الاستكانات لشرب الشاي، فزمن انعقاد الندوة بعد الغداء وقبل القيلولة. أثناء ذلك قد تُحل أو تُناقش على الأقل مشاكل قد تراكمت بين أفراد العائلة، عبر الاحتكاك اليومي بين أربع أو خمس عائلات، كما كانت تركيبة بيتنا.

تبدأ حفلة الشاي بتكسير رأس القند، ذلك الهرم الصغير الملفوف بكاغد أزرق، مشدود بخيط أنيق، غالباً ما كنت أتولى مهمة التكسير دون مزاحمة، إضافة إلى المهام الأخرى التي كنت أقوم بها بشكل يومي، من التسوق والتراسل مع الجيران والأقارب إلى مساعدة الوالدة في عملية الغزل، حيث كنت اشدّ لها الدولاب لتطوي عليه الخيوط، أو أحرك لها ماكنة الخياطة اليدوية. كان فأس القند دقيقاً، فليس هناك مهمة أخرى لهذا الفأس غير التعامل مع القند وحلاوته.

البئر

يصعب معرفة تاريخ حفر البئر في وسط البيت، كان محفوراً قبل شراء والدي البيت، ويوسع فيه. فإذا كُنا لا نهتم بتسجيل تاريخ ميلادنا! فكيف نهتم بتسجيل تاريخ حفر البئر؟ أتذكر كان موقعه أسفل السلالم المؤدي إلى الطابق العلوي، ومجاوراً لموقع زير ماء الشرب. يحاط البئر عادة بسور لحماية الأطفال من السقوط في داخله، ودرج الناس على استدعاء المتخصص بتنظيفه أو التقاط الأدوات التي تسقط فيه. يُغرف الماء من البئر بواسطة الدلو، والماء المستخرج يقتصر على الاستعمال في التنظيف ورش فناء البيت. وفي فصل الصيف تُترك الخضروات والفواكه المطلوب تبريدها في عمق البئر، وتنزل وترفع بواسطة آلة تسمى شيخ الجناكَيل، وهو عبارة عن مجموعة جناكَيل (ماسكات) مشدودة بحبل تتمكن من مسك الأشياء بقوة.

السرداب البادگير الزنبور

تبدأ وظيفة سرداب البيت في فصل الصيف، يرتبط بما يُعرف بالبادگير والزنبور. والبادكير هو حائط مجوف يصعد من السرداب إلى السطح، أما الزنبور فهو مجرى الهواء المتحرك داخل البادكير، يأتي بالهواء الجاف من القسم العلوي ليتحول إلى رطب في داخل السرداب. ليس خافياً أن هذا النوع من التكييف كان معروفاً ببغداد منذ العهد الساساني، لما تدل عليه تسمية البادكير الفارسية. وهذان العنصران، البادگير والزنبور، مهمان في عملية التكييف الطبيعية صيفاً، وقد ظلا يؤثران في قياس المعماريين المحليين، الأسطوات، لسمك الحائط. بيد أن هذه المجاري الهوائية لم يكن لها أي دور في عملية التدفئة في فصل الشتاء. ولم يؤخذ بالحسبان استخدام تلك المجاري لغرض تهوئة غرفة المطبخ، على الرغم من أن ذلك كان ممكناً، وبسهولة. كانت عملية التدفئة الشائعة تتم عن طريق مواقد الفحم المتحركة (المناقل). أما أداة التكييف صيفاً، قبل ظهور المروحة الكهربائية، فكانت المروحة السقفية اليدوية.

تُلاحظ هذه المروحة في بعض الخمارات (المايخانات) والمطاعم. تُحرك بشدِّ الحبل المربوط فيها وارخائه، ويُخصص لتحريكها عامل ليس بيده عمل أخر، غير شدِّ الحبل وإرخائه، والويل له لو توقفت المروحة عن الحركة. دخلت المروحة الكهربائية البيوت البغدادية حوالى منتصف العشرينيات. كانت في البداية محدودة الانتشار، فقد تعايشت معها طرائق التكييف البدائية ردحاً من الزمن.

إضاءة الدار

أما أدوات الإضاءة، قبل حلول المصباح الكهربائي، فهي: الفانوس واللمبة واللوكس إضافة إلى الشموع. تحيط نار الفانوس شيشة زجاجية، يتم مسحها يومياً قبل حلول الظلام، وتزويد خزانها الصغير بالنفط، مع تشذيب الفتيلة، ويقوم بمهام إشعالها وتنظيفها في الطرقات اللمبجي، وقد خلد قارئ المقام أحد لمبجية بغداد بأغنية معروفة. كنت أراقب اللّمجي متعجباً من سرعته الفائقة في تنظيف فوانيس طرقات المحلة وإشعالها، فحينذاك كانت إنارة الطرقات بواسطة فوانيس منصوبة على أعمدة. أما اللوكس، وهو فانوس كبير قوي الإضاءة، فيطلق صوتاً متواصلاً، وكثيراً ما يُختصر استعماله على المناسبات الكبيرة، مثل الأعراس أو المجالس الحسينية في عاشوراء. ويعتمد عمل اللوكس على ضخ النفط بواسطة مكبس خاص مثبت في الخزان، ويعمل بالطريقة نفسها التي يعمل بها الطباخ النفطي المعروف بالبريمز (طباخ يعمل على النفط من خلال نافورة دقيقة). كان بيتنا، كما أسلفت، يتكون من خمس غرف، وما تحويه هذه الغرف، من أثاث، الفراش وأدوات أخرى، ويجتمع سكان الغرف الخمس في باحة الدار عند وجبات الطعام، أو شرب الشاي، بعد تحضيره على طبّاخ أبي الفتيلة، أو على ما يُعرف بالبريمز.

من الكماليات التي زاحمت الفوانيس، من دون أن تحتل مكانها، فوانيس الكريستال الملونة، التي تُستخدم عادة في الأعراس ومناسبات الأفراح الأخرى. فهي أفضل وسيلة لتزيين البيت، وتحقيق إضاءة رومانسية. ويعتمد استخدام فوانيس الزينة على مستوى العروسين الاجتماعي. استوردت اللمبات الزجاجية، الكريستال، من تشيكسلوفاكيا، مع ما يستورد من زجاجيات جميلة وأقداح شاي. لم يفقد الفانوس الملّون مكانته بين أثاث البيت بعد المصباح الكهربائي، فقد استمر عنصراً من عناصر الزينة. لم يكن النفط هو المادة الوحيدة التي استُخدمت في الإضاءة، بل ظل استخدام الزيت الحيواني متواصلاً، كما كان في العصور الغابرة، في الإضاءة وتشغيل الحمامات العمومية.

الرحى والهاون

كانت رحى طحن الحبوب من أدوات البيت اللازمة، يكاد لا يخلو بيت من دويها. وعادة كان يُصاحب ذلك الدوي غناء حزين ينساب بهدوء من حناجر النسوة وهن يُدرن الرحى حول قطبها، فيختلط غناؤهنَّ بصوت الرحى المدوي. يغنينَّ شعراً شائعاً بين أهل المحلة لكنهم لم يكترثوا لمعرفة قائله، ولا المناسبة التي قيل فيها. كثيراً ما كنتُ أدور الرحى مع والدتي، وكنت أنذاك في الثانية عشرة، لكني لم أحس بالدوي إلا عندما أكون خارج البيت، حيث ينبعث صدى له وقع خاص على النفس.

إلى جانب صوت الرحى، المدوي ببيتنا، ينبعث بين الحين والآخر صوت الهاون، الذي لا يصلح للغناء بقدر ما يصلح للإنذار أو التنبيه. لكن مدلول صوت الهاون في المحلة البغدادية مختلفاً عنه في جنوب العراق. ففي مضايف الأهوار، كما لاحظت ذلك أثناء زيارتي للمنطقة في الستينيات مع طلبة القسم المعماري وما نتج منها من تبنٍ لمشروع القرية النموذجية، يدل صوت الهاون على الدعوة لشرب القهوة، أو للتجمع لأمر ما. أما في المحلة البغدادية فلا يترك صوت الهاون غير الضجيج، الذي قد يُعبر عن مناسبة ما يألفها الناس، فالرنين هنا ليس له معنى محدد، كما هو الحال بالأهوار والأرياف الأخرى.

الباب والمفتاح

كانت أبواب بيوت المحلة متشابهة التفاصيل بما فيها شكل المفتاح، ولا ما هو بديهي، أي اختلاف الأسنان التي تقفل وتفتح، بل شكل المفتاح ورنته، عند القفل والفتح. إن أسرار مفاتيح أبواب المحلة عند حداد المحلة المعروف من قبل الجميع، فهو الأمين عليها، كونه يعرف الأبواب باباً باباً، ولضخامة حجم المفتاح الكبير يستخدمه حامله سلاحاً في المواقف الحرجة.

أما آلة طرق الباب، قبل ظهور الجرس الكهربائي، كانت عبارة عن حديدتين: واحدة مثبتة وأخرى متحركة. في عدد من البيوت يتم التعرف على جنس الطارق فيما إذا كان رجلاً أو امرأة من صوت الطرق أو عدد الطرقات، حيث يُثبت على بعض الأبواب مدقتين، واحدة للرجال ينبعث منها رنين قوي يتناسب مع الرجولة، وآخر رقيق يحاكي الأنوثة في رقته.

رأيت مثل هذا التمييز في طرق الباب بين الجنسين في محلات سكنية بإيران، عند زيارتي الأولى بصحبة أم كنعان، أيام رئيس الوزراء مصدق العام 1953. كانت الرحلة بسيارتي الخاصة عبر خانقين وكرمنشاه. كان هناك تمايز آخر في طرق الباب، فالطرقة الواحدة تعني أن القادمين من أهل البيت، أو تعني قدوم السقا، يتم ذلك بتنسيق مسبق بين أهل البيت والقادمين. جاء هذا التمييز بدلاً من نداء رب البيت أو مَنْ ينوب عنه، الموجه للنساء عند استقبال الضيوف بالعبارة: «سووا طريق»، أو أي حركة صوتية أخرى. يصنع أبواب البيوت نجارون مختصون بها، نستطيع تسميتهم بالنجارين الفنانين، يصنعونها حسب الطلب، أو تُباع جاهزة في سوق محلة القاطرخانة.

كان السطح متنفساً لأهل البيت، وخصوصاً النساء، حيث الاحتجاب الطويل، والملل من وتيرة العمل المنزلي اليومي، الذي لا ينتهي. يشرفنَّ من السطوح إلى تفاصيل المحلة، وحركتها الدائبة من الصباح حتى آخر النهار. كان السطح أيضاً مسرحاً للعب الأطفال ولهوهم. وهو المكان الملائم للهروب من حرّ الصيف ليلاً، وبالتالي هو محل استقطاب أفراد العائلة، الذين يتحلقون حول صحن البطيخ أو الرقي البارد، كتحليقهم حول النار في داخل الغرف، في ليالي الشتاء الباردة.

يوميات السطح

تبدو سطوح البيوت البغدادية من دون حدود أو عوازل، فهي متلاصقة ومتشابكة، إلا أنها ظلت غرفاً موصدة، لا يباح النظر عبرها إلى حرمة الجار وخصوصياته، كما لا يسمح أن تكون ممراً لسارق مالٍ أو طامع بعاطفة ولذة غير مشروعة. فالالتزام الأخلاقي بالمحلة البغدادية فرضته العادات والتقاليد المتوارثة.

أخبرني كاظم مكية عن الوالد بالقول: «كان ملتحياً، لحيته بيضاء، ولما توفي حزن عليه أصدقاؤه اليهود قبل المسلمين بشكل ملحوظ، فكثيراً ما كانوا يراجعونه في قضاياهم، فيشفع لهم ويدفع عنهم الاعتداء. كنت أجالسه في الخان وأتعلم منه الخبرة في تجارة النسيج». وما يتعلق بأصرة الجيرة الطيبة مع اليهود أن تعرض كاظم إلى موقف محرج أشار إلى عمق العلاقة بين البغداديين رغم اختلاف الدين والعقيدة، إنه كان نائماً فوق السطح، وحصل أن صعد على السرير متجاوزاً ستارة السطح، فطلّ على الجيران من الأسر اليهودية، ورأى منظراً عائلياً، وحسب تعبيره «رأيت عجايب»، فاضطر حياءً أن ينزل سريره من على السطح، فسأل الجيران والده العم وهيب عن سبب نزول سرير كاظم، وعدم استخدام السطح، فقال لهم لا أدري، لكنهم قالوا له: «هذا من حسن أخلاقه»، بمعنى أنهم شعروا بموقفه المحرج.

كانت المحلة محمية بأبنائها دون الحاجة إلى مراكز شرطة، أو دوائر أمن. بعد حلول الخريف يبدأ الناس يودعون السطوح، وحرية الفضاء فيها، وبين الصعود إلى السطح والنزول إلى الغرفة تتحقق للبغدادي رحلة الصيف والشتاء.

كانت العائلة تنتظر مرور السقاء ليصب من قربته الجلدية ماءً صالحاً للشرب. فماء بئر البيت، كما ذكرنا آنفاً، يستعمل لأغراض الغسل والتنظيف، وترطيب أرضية الدار وسطحها صيفاً. والسقاء هو الممون الرئيسي للمياه الحلوة، في وقت لم تكن هناك شبكة أنابيب مياه، فما زالت آنذاك العلاقة مع دجلة حميمة ومباشرة، قبل أن يصلنا الماء عبر الأنابيب المدفونة تحت الأرض. يملأ القربة من الماء النظيف بعد خوضه في داخل دجلة عدة أمتار، حتى يصل إلى الماء الزلال. أفضل أوقات السقاية في الصباح الباكر، حيث ركود المياه ورؤية قاع النهر بوضوح.



أحد سقاة بغداد

السقاية والنزاحة

قام السقاء البغدادي بملء الفراغ الذي تركته نهيرات بغداد في العصر العباسي، فقد كانت شبكة الأنهار تخترق البساتين والمحلات، لكنها جفت بسبب الإهمال طوال قرون من الزمن، فبين الأنهار وشبكة الأنابيب الحديثة فترة طويلة، ظل السقاء خلالها يقوم بمهام السقاية. يأتي بالماء فيصبه في الزير (الحب)، دون استئذان من أهل الدار، فهو يقوم بمهام يومية لا تستوجب الإذن، ماعدا الطرقة الخاصة المتفق عليها، التي لا تشير إلى قدوم ضيف أو شخص غريب، فتقاليد العمل تتم بتلقائية.

عادة يأتلف السقاء مع أهل البيت البغدادي، فتعامله اليومي جعلهم لا يُعاملونه معاملة الغريب، فهو يعرف مكان زير الماء في أي زاوية من زوايا البيت، فيملؤه وتنتهي مهمته. يضبط أجوره الزهيدة بتأشير عدد المرات التي يحمل بها الماء على جدار البيت. وإضافة إلى أجرته الزهيدة يمر على بيوت المحلة، التي يتعامل معها، في مواسم الأعياد، لأخذ العيدية المعدة له سلفاً. من معدات شرب الماء مغرفة تصنع من خوص سعف النخيل الدقيق ثم تطلى بالقار، ويتصل بها ذراع طويل، أو يتم الشرب بالكؤوس الفخارية الشبيهة بالكؤوس الزجاجية، أو الأباريق.

كانت الأيام المزعجة في حياة البيت عندما تُشغل الساحة بمعدات النزاحين، الذين يستدعون لتنظيف خزان القاذورات المبني تحت الأرض أو (البالوعة) من داخل البيت. كان ذلك في النصف الأول من العشرينيات، قبل أن تعرف المحلات شبكة المجاري المتصلة. كانت البيوت ذات الساحة الوسطية، مثل بيتنا، فيها بلاليع، والبلوعة حفرة في وسط البيت، مغطاة بطابوقة عريضة، تسمى (غلق)، تتجمع فيها نفايات الدار السائلة، ثم تُنزح بين الحين والآخر. أما السبتتنك فكان حديث الاستخدام، لايوجد إلا في البيوت الحديثة، خارج المحلات التقليدية. ففي البيت الحديث (الفلة) حديقة وساحة مفتوحة، ويأخذ السبتتنك فترة طويلة دون أن يحتاج إلى النزح.

بعد ذلك ارتبطت الأحياء الحديثة بشبكة مجارٍ، التي لا تحتاج لعمل النزاحين. كان من تأثير تسرب المياه الجوفية من البلاليع في المباني التاريخية، ما وجدناه من رخاوة في أرضية جامع الخلفاء عند إعماره، لذا عمدتُ إلى طلب مبلغ إضافي لمعالجة الأمر. بعد ذلك أخذت الأبنية تُقام على مرتفع.

كان نزح البلاليع، وهو عمل نبيل في بعده الاجتماعي والصحي الوقائي، مقتصراً على فئة اجتماعية دون غيرها من المجتمع البغدادي، فكثيراً ما كان يناط هذا العمل بشريحة التلكيف، وأصلهم من قضاء التلكيف بالموصل، كانوا يقطنون عادة محلة البتاوين من الباب الشرقي ببغداد. فربما كان تكليف هذه الفئة، دون فئات المجتمع العراقي الأخرى، بهذا العمل في بداية الأمر تحت طائل النعرات القومية أو الدينية، ثم استمر معمولاً به كمزاولة مهنة بالتوارث. فمثل تلك الأعمال تُعد من الأعمال الدونية البخسة، تنظر الناس إلى محترفيها بمنظار أدنى، على الرغم من فائدتها الكبرى. فبفضل النزاحين تمكن البغداديون من العيش عيشة طبيعية، فالتخلص من

القاذورات يُعد خدمة صحية لا تضاهيها الخدمات الطبية الأخرى. ففي المجتمعات السوية يُحمد صاحب هذه المهنة ولا يُذم، لكن العكس ما كان يحصل ببغداد ضمن موروث التعالي على المهنة. كانت عملية النزح قاسية على القائمين بها، فقد كانوا يستخدمون البراميل والسطول الكبيرة، لحمل القاذورات، لكن بفضل التكنولوجيا تغير أسلوب العمل فبدلت الدلاء بالسيارات الخاصة في هذه الأعمال، حتى مدّت شبكات المجاري. ما أراه من وجهة نظر جمالية وصحية أن الوضع المتردي الناجم عن تخلف تنظيم أنابيب إسالة المياه وشبكة تصريفها شوّه كثيراً مكانة البيت البغدادي ومزايا المحلة، وأخذ يهدد بكارثة بيئية.

ملابسنا بين التقليدي والحداثة

تعيش بغداد الفصول الأربعة، لكن الفصلين البارزين هما الصيف والشتاء، أما الربيع والخريف فهما فصلان تابعان، يمران مروراً عابراً لقصرهما، ويبقى الصيف العراقي أكثر فصول الأرض عطاءً، فبخيراته يواجه البغداديون موسم البرد بتجهيز الضروريات الغذائية المعلبة والجافة، مثل معجون الطماطم والمربيات والخضروات. كان نزول الفواكه والخضر الصيفية إلى السوق بمثابة تقويم للمواسم والأوقات، أكثر من إشارته إلى تغير المناخ.

صناعات بيتية

حتى نهاية العشرينيات كنت ألتزم توجيهات خالي في علاوي الخضر (مكان البيع بالجملة)، حيث البيع بالجملة، لنشتري بالسلال لا بالوزن، ومؤشر الشراء بالسلال يعني وفرة المحصول ذلك العام. ومهما رخصت أسعار الموسم فمربيات الميسورين تبقى متميزة عن مربيات غيرهم، فمادتها الفاكهة الطازجة من الأنواع الفاخرة، بينما يلجأ الآخرون إلى المشمش المجفف المعروف بين البغداديين بالنكّوع. الاعتماد على السوق في الضروريات والكماليات يحتاج إلى تكاليف، قد لا تقدر عليها العائلات ذات الدخل المنخفض. عموماً مهما توافر ورخص إنتاج السوق يبقى الإنتاج البيتي متفوقاً نوعاً وكماً. إن مواسم الخضر والفاكهة بالنسبة إلى المحلة البغدادية يوميات تعاون أسري يسودها الفرح بالعمل والعطاء، وكل شيء يجري تلقائياً، من أجل مواجهة مصاعب الشتاء.

قبل دخول البذلة الأوروبية كانت الدشداشة تؤدي مهمتها في البيت والمدرسة والشارع وفي كل الأوقات. أما المناسبات الخاصة، من فرح أو ترح، فتقتضي لباساً خاصاً بها، تضفي على مرتديها الطابع الرسمي، مثل ارتداء الصاية والحزام المرصع بالفضة، المعروف بالحصاية. بشكل عام، كانت ملابسنا حتى مطلع القرن العشرين بسيطة، لا تتعدى الدشداشة التي لا تستبدل إلا بتبدل الفصول، واحدة للشتاء وأخرى للصيف، مع اعتمار قبعة على الرأس (العرقجينة). تُعتمر مع الصاية عادة عمامة تُعرف بـ (الجراوية)، وهي الجماغ أو الكوفية، ثم دخلت السدارة الفيصلية نسبة إلى الملك فيصل الأول، وتدريجاً أصبح للسدارة مكانة بين البغداديين، حتى قل استعمالها مع تغير الدولة من الملكية إلى الجمهورية، على اعتبارها رمزاً من رموز الحقبة السابقة. أما المنحدرون من جنوب بغداد أو مدن الفرات الأوسط فيعتمرون على رؤوسهم مع الصاية والسترة العقال والكوفية، مثلما كان يفعل السومريون القدماء. وظيفة الكوفية بالأصل، قبل أن تتحول إلى زي عشائري يعبر عن الهيبة والشكيمة أنها غطاء من الشمس وطارئات المناخ، والعقال، الذي أخذ يقاس به شرف الفرد آلة لتثبيتها ليس إلاّ.

لم نعرف ارتداء البناطيل إلا بعد دخول المدارس الرسمية، كنت أشعر بالحرج من البنطلون والخروج فيه إلى الشارع والمدرسة، أو أن أمر به في وسط السوق، خصوصاً القصير (الشورت) منه، كذا الحال بالنسبة إلى عدد من زملائي. بشكل عام، تختلف الملابس باختلاف وظيفة الشخص، أو انتمائه الديني أحياناً، فعلى سبيل المثال كان نساء اليهود يرتدينً عباءتين، أو عباءة مزركشة بالألوان الجميلة، إضافة إلى اختلافات أخرى لم أتذكرها بالضبط.

كان أغلب أقمشة الملابس البغدادية تستورد من بلاد الشام، يحصل ذلك عن طريق التجار المعدودين مباشرة، دون تدخل الدولة بعد انحسار الأنسجة المحلية. ولعلها أضحت لا تسد حاجة السكان. وتزايد في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين سكان بغداد، وأخذوا يلتفتون إلى ما كان كمالياً سابقاً. على صعيد آخر لم تتمكن الأقمشة المحلية، التي تنتجها مغازل النساء، وتحيكها آلة الحياكة اليدوية،

منافسة النسيج المستورد، من حيث المضمون والشكل. فليس هناك مجال للمقارنة بين الدولاب الخشبي الذي كنتُ أشد خيط البريسم (الحرير) عليه لمساعدة والدتي، وأنا ابن الست والسبع سنين، وبين ماكنة الغزل والنسيج الآلية العملاقة.

احتذى البغداديون النعال المعروف باليمني قبل دخول الأحذية الحديثة، وقيام مصانع لها ببغداد ومدن عراقية أخرى، لونه مائل إلى الحمرة أو إلى الصفرة، واللون الأخير خاص بالملالي، مصمم على هيئة قارب، يُذكر كثيراً بحكايات نعال أبي القاسم الطمبوري، الشخصية الساخرة المعروفة. يُصنع النعال اليمني في مكان خاص يُعرف بسوق اليمنجية، ولا ندري ايهما أنتسب إلى الآخر السوق أم النعال. كان هذا السوق من المشاهد اليومية التي أمر بها وأنا في طريقي إلى المدرسة المأمونية بالميدان، ثم المتوسطة الشرقية. يصنع اليمني من الجلد نفسه الذي تصنع منه أغلفة دفاتر حساب البقالين، التي يسجلون فيها الصادر والوارد، وديونهم على الزبائن.

ألعاب الطفولة

ليس هناك ما يميز طفولة جيلي غير ما ورثناه من وسائل ألعاب طفولة الآباء عبر زمان طويل، وما كنا نبتكره بالخبرة والتجربة اليومية الفردية والجماعية، كما لا توجد آنذاك ملاعب أو ساحات خاصة باللعب أو متنزهات. من الألعاب المفضلة الشائعة آنذاك بين أطفال المحلة لعبة الدعبل، وهي كُرات زجاجية تستخدم في غلق أفواه قوارير النامليت (نوع من الشراب كان سائداً في بغداد، انقرض وحل محله الكوكاكولا والبيبسي كولا، والمشروبات الأخرى) قبل معرفة السيفون، وكثيراً ما يُستعاض عن الدعبل بالجوز.

لا يباع الدعبل ولا يشترى إنما يؤخذ عادة من قوارير السيفون. أتذكر أن عبد العزيز عثر، وهو في طريقه إلى دكان الخال، على قارورة سيفون مكسورة وبداخلها دعبلة، فأراد أن يأخذ الدعبلة منها، وقد جرحت يده ونزفت دماً كثيراً، كان التداوي بالعطابة (قطعة قماش تحرق بالنار)، وقد ترك الجرح أثراً بيده حتى الكبر، وعند استخدام الجوز تعرف بلعبة الجوز. خففت لعبة الدعبل أو الجوز من ألمي الحاد بسبب الطهور، في بداية العشرينيات، أخذ أخي عبد العزيز، وكان يعاني من ألم الطهور أيضاً، إلى ملاعبتي اللعبة كلما سمع بكائي، كان لا يفصح عن ألمه أمامي أو أمام الآخرين.



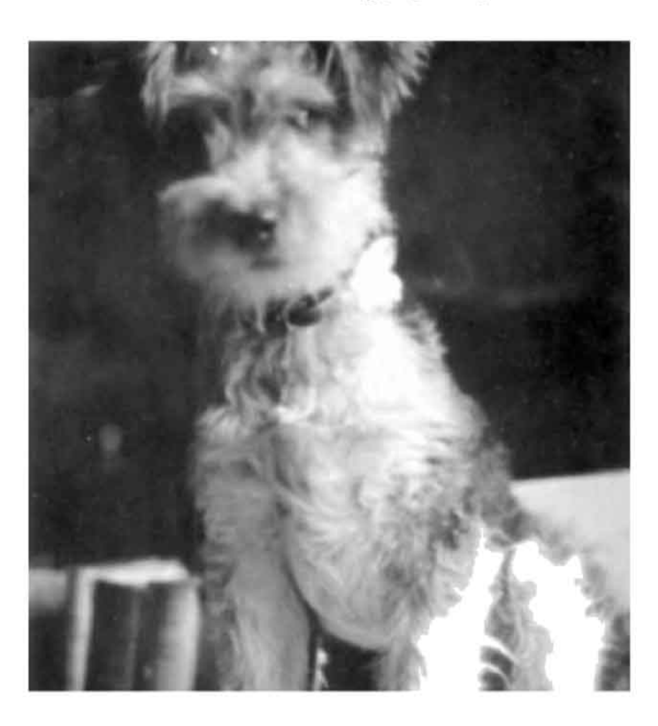
دولاب الهواء في العشرينيات

جوهر اللعبة أن الرابح فيها هو مَنْ يستطيع ضرب دعبلة أو جوزة الخصم فتكون من حقه، ويستمر اللعب على هذه الوتيرة حتى يعلن أحد اللاعبين إفلاسه من الدعبل أو الجوز. ومن الألعاب التي كانت سلفاً للعبة الدعبل هي لعبة الكعاب (الجعاب)، وتؤخذ من مفاصل الخراف، ولكي تصبح قابلة للدوران والحركة السريعة يوضع في داخلها ثقل، ومَنْ يتمكن من إصابة الهدف المرصود هو الرابح فيها، أي يربح الكعب الذي أصابه.

وكنا نلعب ونحن صبيان لعبة الطيارات الورقية، التي ترتفع في السماء على قدر طول الخيط، يصنع عبد العزيز الطيارة ويربطها بالخيط، وأنا أقوم بتحضير الصمغ المطلوب لطلاء الخيط من أصابيع الباميا اللزجة بعد دقها، ليكون أكثر متانة. فاللعبة تعتمد على أي طائرة تستطيع البقاء بعد سقوط الطائرات الأخرى لضعف خيطها. تتقاطع خيوط الطائرات مع بعضها بعضاً، ويظهر التحدي بأصواتنا الصاخبة من فوق السطوح. في مثل هذه الألعاب كنا نؤكد ما يقوله لنا معلم مادة العلوم عن قوة الهواء وقدرته على رفع الأجسام، كان ذلك قبل أن نتمكن من معرفة سرّ طيران الطائرة، وانطلاق الصاروخ. فالطائرات البريطانية التي كانت تحوم في سماء بغداد قليلة العدد، ولا نتمكن من رؤيتها. ترتفع طائراتنا الورقية في السماء على امتداد خيوطها، ممسكين بها بقوة، والأعصاب تنشد عند تقاطع الخيوط وتشابكها، ففي هذه اللحظة تكون نهاية اللعبة قد اقتربت، والرهان لا على شيء غير إثبات قوة الطيارة.

كانت لعبة «شنطرة وبلبل» من اللعب الشائعة بين درابين المحلات البغدادية، وملخصها أن يضع اللاعبون عوداً خشبياً بشكل عمودي مائل، ويضربوه بعود طويل آخر، وعندما يقفز في الهواء يضرب ضربة أخرى. لا تصلح ساحة البيت للعبها، لأنها تحتاج إلى مساحة واسعة إلى حد ما، لذلك كنا نلعبها في الدربونة أو الشارع. كثيراً ما كان يشاركنا خالي عبود رغم تقدم سنه اللعبة، وهو في طريقه إلى الدكان أو الجايخانة. وكان يلعبها مع أصدقائه من كبار السن في نزهاتهم إلى خارج المدينة.

نشأ البيت البغدادي قريباً من دجلة، فهناك البيوت المطلة شناشيلها على ساحله مباشرة. أما البعيدة فلا يحتاج الماشي سوى دقائق للوصول إلى ضفة النهر، وهي الدقائق نفسها التي يستغرقها السقاء لإيصال قربة الماء إلى البيوت. فرض علينا دجلة القريب إلى محلتنا النزول إلى مياهه العذبة، ننزل إليها من شريعة سيد سلطان علي، وهناك أخذنا دروس تعلم السباحة على يد لاعب كرة يهودي الديانة. يفرض جوار دجلة تعلم هذا النوع من الرياضة، فهي بالنسبة إلينا آنذاك مهارة مكملة للشخصية، وضرورة لا بد منها، فعند فيضانات النهر العارمة يصدق القول السائد: «الغط والنط وسبح الشط».



ألفة الحيوان

كانت الحيوانات الأليفة جزءاً من عالم الطفولة، كنت أعتني بخروف صغير عناية كبيرة، يسير خلفي باطمئنان حتى علوة البرسيم (نبات) لأشتري له غذاءً منها. كان الأهل يحترمون علاقتي بهذا الحيوان، فيتجنبون ذبحه أو طرده من الغرفة عندما يأوي إلى جانبي، أو يحل بيننا ونحن نتناول الطعام. لكن في لحظة مؤلمة اختفى دون أن أعرف مصيره، فالأهل تصرفوا به دون أن أدري. وكان ببيتنا هرٌّ، نهتم بتربيته، وصودف يوماً أن أنقذني من أفعى كانت تزحف نحو الفراش، أتذكر بدقة لحظات معركة ضارية بينهما، يضربها بيده وترد عليه نافخة، انتصر القط وقطع رأسها. ومما يُثير العجب أن القط عرف بغريزته أن سمَّ الأفعى في رأسها، لذا عندما قتلها عمدّ إلى

قطع رأسها، ولا أدري ما سبب قطع ذيلها. لكن مع ألفة هذا الحيوان يتعرض في شوارع المحلة إلى رمي الحجارة والشنق بالحبل، فيصبح قتله تسلية للصبيان.

من حسنات البيت البغدادي التقليدي، اتساعه للإنسان والحيوان والنبات، فإلى جانب الخروف، والهرّ كانت في داخل بيتنا بطة، تتجول بحرية من غرفة إلى أخرى، دون امتعاض من سكان البيت. حاولت أن أعوض لها عن حياتها في النهر بوضعها في حوض ماء حتى تمارس حياتها الطبيعية، رغم أن الحوض الصغير لا يحل محل النهر وأعشابه، ولا يهبها الحرية. لقد نمت معي هواية تربية الحيوان، والوالدة والخال يحترمان ذلك ولكن بحدود، فالمضايقات التي تفرضها حياة الحيوان في بيت ذي كثافة سكانية عالية كثيرة، وتبدو في العديد من الأحيان محرجة لي ولوالدتي تجاه الآخرين.

الدب الملكي

بعد عودتي من الدراسة إلى العراق، وتكليفي بالوظيفة جلب لي إبراهيم السائق والملتزم لأعمالي في المقاولات الإنشائية دباً صغيراً من منطقته في الشمال، وهي المنطقة التي حاولنا، أحمد سوسة وأنا، أن نقيم مصيفاً للفنانين العراقيين فيها. كان إبراهيم كردياً قوي البنية، وأتذكر أنه كان شيوعياً عقائدياً، تمكن من الهروب عبر بحر قزوين إلى روسيا. ظل الدب يعيش في حديقة بيتنا بالعلوية حتى 1957، وهو من البيوت التي شيدها الإنكليز بعد الحرب العالمية الأولى. كبر الدب وضاق به المكان فأشار عليٌّ الشريف حسين بن علي - زوج الأميرة بديعة شقيقة الوصي عبد الإله، وقد صممت ونفذت بناء داره بالمنصور - بأن أهديه إلى الملك فيصل الثاني. رحبت بالفكرة وقصدت قصر الرحاب. انتظرت في غرفة استقبال الضيوف، بينما ظل الدب ينتظر في سيارة الجيب مع إبراهيم السائق، بعدها وصل الملك مع الأمير عبد الإله. وبعد حديث قصير، وما يقتضيه واجب المجاملة، قدمت له الدب بالقول: «أحسن مكان لهذا الدب أن يعيش بظل ملك، ومن دواعي سروري إمكانية قبول الهدية». ضحك الملك ضحكته الخجولة وتقبّل الهدية مسروراً. استغرق اللقاء حوالى الربع ساعة، فالوقت كان نهاية الدوام اليومي. كان الملك فيصل الثاني متواضعاً خجولاً، ففي أكثر من مناسبة التقيته بها شعرت بخجله وحيائه، وكأنه يقف بين يدي والده.

بعد حوالى السنة وردني خبر مؤكد أن الدّب قُتل مع مَنْ قتلوا من العائلة المالكة في قصر الرحاب صبيحة يوم 14 تموز 1958. ومن المفارقات أن يهرب أحد كلاب قصر الرحاب (القصر الملكي) بعد مهاجمته، فيلجأُ عبر الحدائق، التي تفصل بيتي عن القصر بمنطقة المنصور، إلى سور البيت طالباً مأوى، آويناه وأطلقنا عليه اسم (لكي)، فالحظ حالفه ولم يقتل يوم الثورة. ظل معنا فترة طويلة، ولا أتذكر كيف اختفى في ما بعد.

الحمار... مركوب العامة والسلاطين

كنا نهتم بمرور الحمار في الدربونة، مركوباً من قبل السقاة، والباعة المتجولين والحمالين، ويضرب بعنف كلما حاول الراحة، بعد عناء طويل. وفي غالب الأحيان يجتمع فوق ظهره الحمال وما حمل من دقيق، أو سكر، أو رمل، أو طابوق، أو طين وغيرها من المواد الثقيلة. فالحمار حيوان وديع ظلم كثيراً، رغم علاقته القديمة بالإنسان، وهناك من الأنبياء مَنْ بث دعوته من على ظهره. اتهم الإنسان صديقه القديم بالغباء والعناد، واستخدم اسمه نعتاً للإهانة عندما يريد أن يشتم ويسب. لكنه وسيلة النقل الهادئة غير المكلفة، ومن ذكائه وفطنته أنه يعرف طريقه، بعد أن يمر فيه مرة واحدة دون مرشد، لا يكل من التعب والشقاء، صبوراً على الجوع والعطش صبراً مثالياً حتى أخذ يُضرب بصبره المثل. يدخل بحمله الثقيل زقاق المحلة مهما كان ضيقاً وملتوياً، وهو أحد معالم هوية القرية ولا تستغني عنه في يومياتها. ليس لديَّ تفسير أو تعليل لما ورد في القرآن الكريم بشأنه: «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير».

ما يُثير تساؤلي أن الإنسان ينشرح ويفتخر عندما يُنعت بالأسد، أو الفهد، أو النمر وغيرها من أسماء الحيوانات المفترسة، رغم قساوة هذه الحيوانات وشراستها عندما تجوع. والذي أرجحه، في هذا الشأن، أن هناك علة اجتماعية لعلها تعود إلى عصر الوحشية

وحياة الغاب، نتج منها تقديس القوة والجرأة على الآخرين، حتى وإن كان ذلك في عمل الباطل. أترك الإجابة في تحليل هذا الموروث للمختصين، ليقدموا إلى مجتمعاتهم تحليلاً شافياً لمثل تلك الظواهر الشاذة.

ينقل المحقق المعروف عبود الشالجي أخباراً مثيرة عن الحمار، جهد نفسه في استقصائها من بطون الكتب والمخطوطات، وكأنها محاولة منه لرد اعتبار هذا الحيوان. يقول الشالجي: «كان الخلفاء يركبون الحمير، في أوقات التخفيف، وفي بيوتهم، وفي بساتينهم، وخرج الوليد بن يزيد مرة على المغنّين وهو راكب على حمار. وكان الهادي يركب حماراً فارهاً، وخرج مرة ليعزي أحد أفراد حاشيته وهو على حمار أشهب. وكان الرشيد يركب حماراً مصرياً أسود اللون، قريباً من الأرض، يطوف به على جواريه، ويخرج به لعيادة مَنْ يريد عيادته، وزيارة مَنْ يزوره، وانتبه مرّة في نصف الليل، فقال: هاتوا حماري. وكان الحاكم الفاطمي يركب الحمار، ويدور في الأسواق. ومات الحطيئة الشاعر وهو على حمار».

وقال: «كان الحمار مركب المتحابيّن إذا خرجوا لموعد، ومركب القهرمانات (مديرات القصور أو مدبرات شؤونها) إذا بارحن القصور من أجل أشغال السادة. ومركب المغنين والمغنيات والجواري. ومركب رجال الدولة إذا خرجوا متنكّرين. وكان المتوكل يركب الحمار في داره، وكان يصعد إلى أعلى منارة سامراء، وهو على حمار». فهذا الحيوان كان مرافقاً طيعاً لأهل السلطة، ووسيلتهم في التجوال بين بساتينهم، وكان وسيلة للصعود إلى أعلى المآذن أو الملويات، كما كان رفيقاً للعشاق، فلماذا كل هذا الاحتقار؟ كنا أيام غرق بغداد نركب الحمار من محلتنا إلى المدرسة، والحمار الأبيض كان مثل الرولز رايز لا يركبه إلا الأكابر. الطريف أن جماعة من المهندسين زاروا إحدى المدن الكردية لإجراء مسح لشوارع جبلية تمتد من المدينة إلى القرى، لكن الأهلين أجابوهم أن لاحاجة لهم بالتخطيط، فالحمار سيتولى إرشادهم عبر رحلته اليومية إلى الطريق المناسب.

حيوانات أخرى

ما زلتُ غير مقتنع في إباحة دم صنف من الحيوان، وحقن دم صنف آخر، يأتي ذلك وفقاً لتحريم وإباحة. في هذا الأمر، هناك ما هو مشترك بين الشعوب. فالعظاية، ومنها ما يُعرف بـ «أبو أبريص»، يُحرم أكله وقتله. كان أبو أبريص يمشي على حيطان غرفتي وأتابع خطواته بفضول، وهو يلتصق بالسقف وكأنه سيسقط في أي لحظة، مع أن أطرافه مثبتة بما فيه الكفاية. لكن حجمه لم يثر مخاوفي، فطوله لا يتعدى السنتمترات، وكم بدا ليَّ حجمه ضئيلاً مقارنة بأبي ابريص بلاد النيجر بأفريقيا، الذي يبلغ طوله أكثر من ثلاثين إنجاً. من الغريب حقاً أن النيجريين يتفقون مع العراقيين في تحريم قتله، فهم يعتقدون كما نعتقد أن قاتله سيُصاب بالشرِّ لا محالة. لاحظت ذلك أثناء زيارتي لبلاد النيجر في بداية الستينيات كأستاذ زائر، بدعوة من عميد كلية الهندسة المعمارية النيجيرية دريك ماثيوس، وكان زميلي في الدراسة العليا بجامعة كامبردج.

يشار إلى الحيوان وأمثاله من الزواحف بفائدة كنا ندركها، فمهمته حراسة الحيطان من الحشرات، لا سيما الذباب منها، ففي لسانه مادة لزجة يستطيع بها صيد ما صادف من الكائنات الدقيقة الحجم، والكبيرة في الضرر. يفاجئها بمدّ لسانه زاحفاً نحوها دون أدنى صوت. أقرأ بين الحين والآخر تفسيرات لمثل هذه الظواهر، متصلة بدراسة عالم الأساطير والخرافات، التي انتقلت إلى الأديان انتقالاً مريحاً، منها: حسب عامة الناس أنها خيول الملائكة والجن، ولعل ما قاد إلى هذا الاعتقاد حركة تلك الكائنات السريعة والخاطفة.

لم يكن بيتنا البغدادي في مأمن من دبيب حيوانات أخرى، تُثير الرعب في النفوس، مثل الحيات والعقارب، السوداء منها والصفراء السامة جداً. ولعلَّ الخوف منها جعل البيوت البغدادية تعج بصوت القباقيب الخشبية، التي لا ترحم تلك الكائنات، وخصوصاً في ظلام الليل، حيث يصبح احتمال ظهورها أكبر.



سوق الطيور... المطيرچية

لعلَّ لعبة الطيارة، الآنفة الذكر، لها علاقة بهواية الكبار في تربية الحمام، فكأنهم تخرجوا من نادي طيران الطيارة الورقية إلى هواية تربية الطيور، والمنافسة في طيرانها. وبالنسبة إليَّ، إضافة إلى مؤثرات تلك اللعبة الهوائية، كانت رحلتي المتكررة، أيام طفولتي إلى الأقارب في ضواحي بغداد، حيث الطبيعة الطلقة، وحياة الريف وبساطته وعمق معنوية الأشياء فيه، تواصلاً لعلاقتي مع عالم الطيور، كنت أقضي الوقت في مطاردتها والتحايل في اصطيادها من شجرة إلى أخرى، وأقصى الأماني أن أحظى بواحد منها.

كان يُنظر إلى هواة تربية الطيور، وخصوصاً الحمام نظرة اجتماعية دونية وهم يشغلون جانباً من سوق الغزل يعرف بسوق الطيور، أقل ما فيها، بقرار بعض الفقهاء، أنهم غير مقبولي الشهادة في المحاكم، أو عند فك النزاعات داخل المحلة، من قبل أهل الحل والعقد. ربما مبعث تلك النظرة الدونية، لهواة الطيور (المطيرچية)، يتعلق في تجاوز الحشمة الاجتماعية، فهوايتهم تتطلب الصعود إلى السطوح نهاراً، وبذلك يشرفون على سطوح الدور الأخرى، والنظر إلى نساء وبنات العائلات المجاورة، اللواتي يقمن بمهام نشر الغسيل أو العزلة بعيداً عن ضجيج الدار، أو قطع خلوة حبيبين غابوا عن عيون ذويهم في ذلك الفضاء، إضافة إلى عدم وجود مردود مادي، أو فائدة اجتماعية من تلك الهواية.

ما يهمني في هذا الأمر أن هواية تربية الحمام وطيرانه قديمة، لم تكن من بنات أفكار جيلنا أو الجيل الذي سبقنا. والحمام المذمومة تربيته يساهم في عزاء عاشوراء، فعندما يأتون بالشبيه، شبيه الإمام الحسين، ورقبته مخضبة باللون الأحمر من أثر الذبح، يُأتى بحمامات بيضاء ترفرف على نحره. وأن الحاج مهدي الطويل الذي كان يستقبل الموكب الحسيني، وهو بطريقه من جامع الحاج داوود والد الشخصية المعروفة جعفر أبي التمن، كان يربي بداره الحمام، ولديه قفص خاص داخل حديقة داره. استخدم تلك الهواية في النعرات الطائفية، كان ذلك واضحاً في تصريح أحد الفقهاء أثناء الشروعُ في إعادة تأهيل جامع الخلفاء.

الغريب في الأمر، أن أهل العلم والمعرفة، من الذين ينظرون نظرة ازدراء واحتقار لهواة طيران الحمام، أو ما عرفوا بالمطيرجية، لم يأخذوا بنظر الاعتبار الفكرة الدينية التي تقول: إن النبي نوح أطلق الحمامة من على سفينته، حتى تجس له خبر الطوفان وانحساره من على وجه الأرض، فأتته بالبشارة بظهور اليابسة، عندما حملت إليه غصناً أخضر من على سطح الأرض، بعد أن عجز الغراب عن ذلك، لذا أصبح نعيبه يؤذن بالشؤم، بينما أصبح الحمام رمزاً للسلام والحرية بين الشعوب.

كان جامع الخلفاء مجاوراً لسوق الطيور، الذي كنت أحب التجول فيه، والتمتع برؤية طيوره، ويجذبني هوس المتعاملين فيه. وبالمناسبة، وللتاريخ أذكر اعتراضات الشيخ جلال الحنفي عندما همت الدولة بتجديد جامع الخلفاء التاريخي، معللاً اعتراضه أن الجامع محاط بسوق الطيور، وبالتالي يكون قريباً على مَنْ عرفوا بالمطيرجية. لقد غمز الشيخ الحنفي باعتراضه إلى مسألة طائفية وعرقية، وكان يبدي ضيقه من المشروع، ثم أفصح عن سبب اعتراضه بالمكشوف، وهو إحاطة أهل الجنوب بالمكان. كان الشيخ الحنفي إماماً للجامع رغم وجوده بين أحياء شيعية، لكنه جامع الدولة، لذا لابد أن يكون إمامه على مذهب الدولة الرسمي. لم يكن الشيخ الحنفي يدرك جمال عالم الطيور وفنون تربيتها التي تعتز بها الدول المتقدمة، رغم ما يدعيه من أنه شاعر، ومن طبع الشاعر العاطفة الرقيقة، وما يتفق مع جمال الطيور. هناك حقيقة أخرى لا بد من ذكرها أن الشيخ جلال طلب مني أن يكون له مكتب خاص بالجامع، وكان سبب اعتراضي أن المكتب سيكون على حساب مساحة الرواق، وهذا ما لم أوافق عليه، لذا حمل في دواخله ضدي ما حمل.

كان اهتمامي في تربية الطيور وراء ردي على مَنْ ضاق واحتج من دائرة الأوقاف العراقية على تواجدها في دائر صحن جامع الخلفاء، واتخاذه مأوىً لها، فكست فضلاتها سياج الدائر، قلت لهم: للطيور حق في هذا المكان، فهو مكانها منذ العصر العباسي، ووجودها يبعث الألفة والعاطفة مع البيئة، وإن وجود الطيور يعني هنالك محبة وسلام، وألفة حقيقية مع تلك المخلوقات الرائعة. خاطرة أخرى لي حول الطيور عند تصميم جامع الدولة بالكويت، فما حصل أن استوطنت الحمام في أطراف نتوءات السقف، فجاء اعتراض الأوقاف الكويتية على هذا الاستيطان، فكانت محاولتي في ألفة الطيور للجامع ذات دلالة معنوية. حاولت في صباي الدخول في هذه الهواية لكن الأهل حالوا دون ذلك، بحجة أن المطيرجية غير محترمين في المجتمع. ما زلتُ أعتبر وجود الطيور عنصراً مكملاً لعناصر حديقة الدار، فما فائدة الأشجار إذا لم تحمل أغصانها الطيور، فالشجرة هي مكان الطير وبيئته الملائمة، والطيور والأشجار طبيعة واحدة تكمل بعضها بعضاً.

استمر شغفي بالطيور فأقصد إلى رؤيتها عند كل فرصة تُتاح لي، سواء كان في سوقها القريب على بيتنا، أو عند السفر إلى الريف. ففي آخر بيت شيدته لنفسي ببغداد تركتُ فيه فضاءً واسعاً، تملأه شجرة كمنزل للطيور، تمارس فيه حياتها الطبيعية بدلاً من سجنها بالأقفاص، كما وضعت في سقف الدار سوراً من شبك حديدي تتحرك فيه، بحرية، أنواع أخرى من الطيور.

أرواح وحكايات وهواجس

بين تلك الكائنات الجميلة هناك ما كان مخيفاً ومزعجاً، وهذا شأن المخلوقات كافة، منها الجميل الوديع ومنها القبيح المشاكس. فمن الطيور اللبونة كان الوطواط (خفاش الليل) مزعجاً لنا، والسبب على ما أعتقد يتعلق في علاقته بالظلام، فهو والبوم الشؤوم، كما يسميها الناس، طيور ليلية، تكره الضوء المريح للبشر وغيرهم من الكائنات. وما يتعلق بها من خرافات ليس بشكلها، وإنما بأسلوب حياتها، كذلك كنا نتشاءم من نعيب الغراب ولونه الحالك السواد، فنعيبه ولونه ينبآن بحزن أو مصيبة. فما سمعته من الآخرين وما أعتقده أن التشاؤم له علاقة بما ورد في قصة نوح السومرية الأصل، وأنه لم يأت بالبشارة عندما بعثه نوح من سفينته الكونية إلى الأرض، وتعليمه الإنسان حفر القبر، كما ورد في القرآن: {فبعث الله غُراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُواري سوأة أخيه}، إضافة إلى أنه من الطيور العابثة بالجثث، وما يشير إليه هذا الفعل من علاقة بالموت.

لكن القاطنين على الأنهار قد تكون نظرتهم مختلفة عن الغراب، يحذرونه مثل حذرهم من الحرامي. كان الغراب يأتي بقالب الصابون ناقله بمخالبه من مكان إلى آخر، وبالمصادفة يسقط محاذاة الدار، كما كان يحصل في بيت الوالد، لهذا يحذر الناس من الغراب بقولهم لبعضهم: «شيلوا الصابونة عن لا يبوگها (يسرقها) الغراب»، أو إن الأطفال عندما يشاهدونه يصيحون عليه: «بواكَ الصابونة».

إلى جانب الاطمئنان بوجود الحيوانات الأليفة، كانت تخطر لنا مخاوف، ورهبة من وجود أرواح شريرة، وأخرى خيرة. فالخوف ليس من الشرّ بل من فكرة وجود الروح غير المرئية، وخصوصاً تحت جنح الظلام. كانت تلك الأفكار تعلق بمخيلتي الطرية أوان طفولتي من خلال القصص والحكايات التي ترويها والدتي، وما تقصه علينا العمة صفية. وافتتاحية القصة معروفة لي مسبقاً، وهي: «كان يا ما كان الله ينصر السلطان». تبدو هذه الافتتاحية كأنها دعاء فرض على الناس، في زمن من الأزمنة، في أن يدعو إلى سلاطينهم بالخير والرفعة، فوصلت تلقائياً إلى الأفواه لتكون مستهلاً للحكاية الشعبية.

كانت القصص والحكايات تشدنا كثيراً، فنتحلق حول المتحدثة على دفء النار في الشتاء، أو على سطح الدار في الصيف. ولهذا التحلق ما يبرره، إضافة إلى سماع القصة أو الحكاية، لعلَّ أكثرها من قصص ألف ليلة وليلة أو من الملاحم الشعبية، مثل سيرة عنترة بن شداد أو الزير سالم وغيرها. يجري الحديث عادة في الليل، بعد أن يهبط الظلام ويملأ زوايا المكان، في البيت والأزقة. وبغياب القمر يعجز الفانوس بنوره المحدود عن إضاءة المكان، ومن المفارقة بمكان أن ظرف النهار لا يصلح لقصة أو حكاية. لذا ليس لنا إلا التحلق حول الفانوس، أو نار الموقد. نستمر نتابع الحكاية بتركيز وترقب وكأن الأحداث تجري أمامنا، أو تعرض على شاشة سينمائية. لكن هذا الضرب من الأدب الشعبي لم يبق له وجود، فقد حل محله تحلق الناس حول التلفزيون.

حققت القصص الشعبية، التي يتداولها الناس سماعاً، وجوداً لمصطلحات عديدة في الذاكرة، منها ما يميز بين الخير والشر، وما يميز بين العدل والظلم. ظلت تلك المصطلحات عالقة بأذهاننا، ومتجسدة لنا في شخصية أبطالها. فمن استلهامنا لتلك الحكايات أخذنا نتصور ملامح الظالم أو الشرير أنها قبيحة، فهو عادة يأتي ذكره في القصة منفوش الشعر، ملامحه ليست ملامح إنسان عادي، بينما يبدو الشخص العادل والساعي إلى الخير أنه جميل الطلعة، نظيف الثياب، خفيف الظل. يبعث مثل هذا التصور في الحالتين، الشر والخير، في نفوسنا مشاعر الكراهية والمحبة، وتحديد الميول النفسية، ولعله أسلوب تربوي، كان الحاكي يقصده، فعادة تختتم الحكاية بانتصار الخير.

كانت الوالدة كثيرة التعوذ من الحسد والحاسدين، أي ما يعرف شعبياً بـ «إصابة العين». فعندما تشعر بمرضي، تقرأ القرآن، سورة التعوذ، ثلاث مرات، ثم تغلق المصحف أمام وجهي. وبهذا العمل، تعتقد أن أسباب مرضي قد انتهت، بعد أن اعتقدت بقوة بما جاء في القرآن {ولكم فيه شفاءً}. كنت أرى والدتي أثناء مرضي تندفع بإيمان لا يتزعزع بالدين والأرواح الطاهرة، وتكثر من قراءة الآية: {من شر حاسد إذا حسد}، أراها مستنجدة بها من الروح الشريرة، حسب اعتقادها، أنها دخلت في جسمي فظهرت أعراضها بالحرارة والرجفة، والخمول، واحمرار الجلد، وغيرها من الأعراض المرضية، أو أن ذلك من إرادة الله. كان الحسد مبعث قلق دائم لوالدتي عليَّ وعلى أخي عبد العزيز، بعد تجربتها الحزينة بوفاة أخي حسين وأختي مراتب، ولهذا عمدت إلى ثقب آذاننا، ووضع الحلق (التراجي) فيها حتى يذهب نظر العين الحاسدة إليها.

أتذكر أني أصبت بمرض الأخت وتسمى حبة بغداد، وكان عبد العزيز يأخذني إلى امرأة تجلس في سوق الغزل، مختصة بمداواة هذا المرض، وفعلاً تمكنت من مداواتي. ويذكر عبد العزيز عن امرأة أخرى كانت مختصة بمداواة الرمد، تستعمل مادة حمراء اسمها (الكُبلي) تحتفظ بها بين أوراق ملفوفة، وبعد دراسته الطب عرف أن تلك المادة هي مادة معقمة لها رمزها العلمي.

تعتقد والدتي، وهذا ما كان بمحلتنا عموماً، أن الأرواح تظهر عادة بالبيوت المهجورة، والبيت الذي لا تبرحه الأرواح يدعى البيت المسكون، يؤذي الشرير منها الساكنين عند حلول الظلام، والبيت المسكون يعد بيتاً منحوساً يصعب تأجيره أو بيعه وذلك خوفاً من وراثة النحس عنه. كثيراً ما سمعت في طفولتي بالسعلوة ذات الوجه الأسطوري المخيف، الذي يتحدث الجميع عنه، ونتناقل أخباره نحن الأطفال، ورغم ذلك يلجأ الأهالي إلى تخويف أولادهم بها. أما البيت المسكون من قبل الملك الصالح، أو الملاك يطمئن أهله، وينتظرون الأفراح، فهو يساعد على تحقيقها لهم. ولكن رغم صفات الملاك الخيرة والجميلة، فهو الآخر مخيف لأنه مستور متوارٍ عن العيون.

لا أتذكر أن والدتي أخافتني أو هددتني يوماً بهذا الكائن العجيب، أو غيره من الكائنات المخيفة، لهذا أحمل لها التقدير الكبير، لكن أسلوب والدتي المتحضر لم يمنع عني تأثير المحيط الذي كان مملوءاً بالحكايات عن الكائنات المستورة، فترك في نفسي التردد، وعدم اتخاذ قرار الحسم بسهولة في أمور حياتي الهامة. فكثيراً ما كان الناس يفزعون من الأسباب المخفية أو المستورة. قد لا يخاف الناس عندما يسمعون بموت فلان لسبب واضح، كمرض عضال أو حادث ما معروف الأسباب، لكنهم يرتعبون من خبر موت فلان من دون سبب معروف لديهم. كانت والدتي حذرة من المجهول، أو الحدث المفاجئ، سخية في نذر النذور إلى أضرحة الأئمة، والأولياء الصالحين، قياساً بنساء معارفنا بمحلة صبابيغ الآل، خوفاً علينا من المرض، والأمر في الغالب يتعلق بوفاة طفلين لها.

كانت نذور والدتي تعبيراً عن خوف دفين، وحنان ليس له مثيل، فكثيراً ما كنتُ أسمعها تقول عند مرضي، وهي تهم بالصعود إلى سطح الدار، وترفع كفيها نحو السماء وهي تقول بصوت ما زال يرن بأذني ويشحذ عاطفتي الجياشة إليها: «ربي آني ولا هو»، أي اللهم أمرضني بدلاً منه.

إلى جانب هذه الأرواح تضم ثنايا بيتنا أرواح الأشجار، كنا نشعر بروح شجرة السدر (النبكة)، الوارفة الظلال على فناء البيت، فتحت ظلها تجتمع العائلة في ظهاري صيف بغداد الحارة، عندما تنزل الشمس عمودية في ساحة البيت. علقت تلك الشجرة في ذاكرتي، لذلك تراني أسعى قدر الإمكان إلى إيجاد مكان لها، أو لبنات جنسها في تصميماتي العمرانية، بعد أن كان وجودها في عمران بيتنا عفوياً، فرضته الحاجة إلى الظل، وهيبة الشجرة ورمزيتها، وما لها من كرامة في النفوس، ففي مزيج ورقها والماء تطهر أجساد الموتى. ويبدو لشجرة السدر ما لشجرة النخيل من كرامة واعتبار عند العراقيين. فيُقال إن ذات أنواط التي عبدها العرب قبل الإسلام كانت شجرة سدر، وهناك مَنْ يقول إنها كانت شجرة نخيل.

ذكرت هذه الشجرة في القرآن باسم «سدرة المنتهى»، ويُقال عن النخلة والسدر أنهما من أشجار الجنة. وهناك مَنْ يعتقد أنها محفوفة أو محروسة بالملائكة، لذا يُحذر من قطعها كالتحذير من قتل خيول الملائكة. ومن بين الأحاديث النبوية حديث أشار إلى أن النخلة أخت آدم، فهي خُلقت من الطينة نفسها التي خُلق منها آدم. جاء في الحديث: «اكرموا عماتكم النخل». أما تاريخ إكرام النخلة فهو ضارب بالقدم، فقد كانت من الأشجار المقدسة عند العراقيين القدماء، هذا ما أشارت إليه الألواح السومرية بوضوح. وصفوة القول: إن البيئة التي تجتمع فيها الحياة، نباتها وحيوانها وإنسانها، كبيئة بيتنا الكبير، تحت ضوء القمر وشعاع الشمس حيث الانفتاح على الفضاء مباشرة هي بيئة متكاملة.

بعد العودة إلى بغداد العام 1946، حاولت عدة محاولات أن اشتري البيت لأجعل منه متحفاً لذكريات العائلة، وأن أحتفظ بسماته العمرانية كشاهد على ما يحيطه من خراب وتحوير في نسيج المحلة العمراني الذي احتفظت به منذ العصر العباسي. فالمكان كما أسلفت كان دار الخلافة، وجامع القصر هو جامع الخلفاء ومنارته منارة سوق الغزل. كنت بين حين وآخر أزور المكان، وبعد انقطاع طويل، عدت إلى بغداد في أوائل الثمانينيات في زيارة قصيرة، لها علاقة بالمساهمة لإعادة تخطيط بغداد.

كانت مفاجأة أن أزور بيت أخي عبد العزيز مكية، وأن أزور الدكان الذي كنتُ أعمل فيه مع خالي عبود الذراع في العشرينيات، وقد وجدت السيد صادق العطار ما زال في مكانه، كما هو قبل أكثر من خمسين عاماً، مقابل دكان خالي. عندما سلمتُ عليه اعتقد أني عبد العزيز، لأن الأخير مكث بالمحلة أطول فترة مني، فقد كانت عيادته هناك. ثم قصدتُ إلى تذكير الباقين من أيام زمان بأن خالي فلان، وكانوا في البداية متخوفين من وجود المصور معي، ومن أسئلتي أيضاً، فقد كنتُ أطرحها بقوة. فما أحمله إلى ذلك المكان وسكانه كان خزيناً من العاطفة تجاه المكان وأهله، كنت أطرح استفساراتي والدموع تسبق الكلمات.

تجولتُ حول البيت ناسياً أن أكثر من نصف قرن من الزمن قادراً أن يمحو ذاكرة الناس، وأن يُلغي أثري بالمكان. قال لي مَنْ أمتد به العمر مثل السيد صادق العطار: «كان خالك عبود الذراع إنساناً طيباً، رحمة الله عليه». لفت نظري هدوء الحركة بالمحلة، فالدكاكين والأزقة تكاد تفرغ من البشر، ليس كما كانت مملوءة بالحركة وصخب البائعين المتجولين. سألتُ أين الناس؟ قالوا لي: «أبعدوا خارج العراق، يُقال إنهم تبعية إيرانية مجوس»، حيث حملات التهجير. كان هذا المشهد في قلب بغداد العباسية حين كانت محلة صبابيغ الآل داراً للخلافة. كان ذلك آخر عهد لي بالبيت والمحلة.

طقوس عاشوراء: المواكب البغدادية

إن نسيت الأحداث والوقائع التاريخية فليس لي نسيان ما يحدث بمحلتنا في يوم عاشوراء، لأنه يوم ميلادي، كان ذلك العام 1916. فميلاد الولد يُعدّ سعداً على العائلة، ويوم عشرة عاشوراء عادة هو الحزن السنوي، ففيه كانت مأساة كربلاء، وهكذا تعايش الفرح والحزن، بمخيلة والدتي، في يوم واحد. والاحتفال في عاشوراء له طابعه الخاص، فبقدر ما يعبر عن عاطفة الحزن والأسى، فإنه يعبر عن المهرجان الاجتماعي، ومناسبة للتعاون بين أبناء المكان الواحد في الإعداد لذلك المهرجان، من تنظيم المجالس والمواكب، التي تُعدّ إعداداً ذا معانٍ اجتماعية في مواكب المحلات البغدادية الشيعية.

في هذا اليوم، تبدو عواطف ومشاعر الناس سخية بالحزن والبكاء، وهم يعيدون إلى ذاكرتهم قتل الإمام الحسين وسلب أسرته وخيامه. ولتأكيد حزنهم وتأسيهم بمصيبة الحسين ابتكروا مشاهد مسرحية يؤدونها في شوارع بغداد وساحاتها. ساهمت في موكب المحلة مع كوكبة الأطفال مرتدياً الدشداشة السوداء، كان عمري آنذاك أربعة أعوام، أشترك في الموكب لإيفاء نذر والدتي بسلامتي.

ولدتُ في مثل هذا اليوم، فكان من المفروض أن أسمى حسيناً، نسبة للإمام الحسين، وقد نذرت والدتي أن أخي القادم سيكون اسمه حسيناً، وأعتقد أن الوالدة نذرت ذلك النذر لتضمن ولادة ذكر، وفعلاً ولد حسين ثم ولدت مراتب وتوفيا في طفولتهما، ولم أذكر عنهما شيئاً.

كان أفضل قراء مجلس حسيني، لدى عامة الناس، هم القادرون على إثارة مشاعر الحزن من خلال الحركات التي يؤدونها والأشعار التي يقولونها. في ذلك اليوم يتحول الماء إلى مادة مقدسة، وكأن العطش ظل متصلاً من يوم قتل الحسين عطشاناً حتى اليوم، وللماء مكانة خاصة في عاشوراء، وعلى وجه الخصوص في فصل الصيف، فالطقس ببغداد يكون حاراً جداً. مما كنا نسمعه في مجلس التعزية: «أشرب الماء والعن يزيد»، التي كان يرددها أخي عبد العزيز، وهو يسقي الحاضرين، وكانت زوايا السقائين مزدحمة بعبارات مثل: ماء سبيل، أشرب بثواب الحسين، لّعن الله أمة حرمتك الماء يا أبا عبد الله، ياحسين يا عطشان. في هذه الأجواء كنا نرتدي أنا وأخي عبد العزيز الثياب السود سنوياً.

وعلى الرغم من إباحة الماء، فشاطئ دجلة ليس بعيداً عن المجالس الحسينية، بمحلتنا صبابيغ الآل أو غيرها من المحلات الشيعية. يظهر العطش والماء في ذاكرة الناس، غليان في العواطف الملتهبة بين حفنة ماء يحاول الحسين شربها من شاطئ الفرات وبين نار تشبُ في خيام عياله، فيترك حفنة الماء رغم كبده الصادي تتصاعد عواطفنا لحد العويل، ونحن نتابع قراءة قصة مقتل الحسين من ألفها إلى يائها، والعطش فيها موازياً للدم الذي يفور من أوردة الطفل الرضيع بعد فشل عمه العباس في إيصال شربة من الماء إليه ولأخته سكينة، فيمصها الحسين ويقذف بها صوب السماء، وكأنه يحتج على عمق مصيبته وهو ينادي أهل الكوفة يذكرهم بما كتبوا وعهدوا له. يتولى عادة الصبية توزيع الماء، كان عمر أخي عبد العزيز مناسباً لأداء هذه المهمة، فكان يتنقل بين الحاضرين ويردد: أشرب الماء والعن يزيد.

تنتهي مراسم عاشوراء بانتهاء قراءة قصة المصرع، وحينذاك يعلن القارئ جلوس الشمر على صدر الحسين، ثم يذبحه من القفا، مع خلع القارئ عمامته واللطم على رأسه، والتوقف عند تلك اللحظة المرعبة، ثم انطلاق موكب التعزية، يصاحبه الضرب على الطبل كإيقاع للضرب بالزناجيل، واللطم على الصدور، ورفع الأعلام التي تُزيد الموكب هيبة. ومن النذور في هذه المناسبة كانت الرايات بألوان خضراء وسوداء، ويكتب عليها: «يا حسين يا مظلوم يا شهيد كربلاء»، تنشر هذه الرايات في واجهة الطابق العلوي من البيت، رايات بيضاء مخطوط عليها باللون الأسود، أو سود مخطوط عليها باللون الأبيض. كان أخي عبد العزيز أحد حملة هذه الرايات.

كان الزنجيل الذي ضربت به في الموكب مناسباً لعمر الطفولة، الضرب به لا يؤلم، يتكون من مقبض خشبي ربطت به سلاسل من الحديد الرفيع، تفتح دشداشة الضارب من جهة الظهر، من اليمين واليسار، كي تستقر السلاسل على الظهر. كنت أتعثر بالسير مع كوكبة الأطفال، ولم أتمكن من مجاراة الجوق الموسيقي، الذي يسير الموكب على إيقاعه. فأضطر إلى تركه والعودة إلى البيت، وخصوصاً إذا لم ألمح الوالدة بين المتفرجين على الموكب مع النساء. استمرت مشاركتي في الموكب ثلاث أو أربع سنوات بداية من 1919، خلالها كنت أحمل الزنجيل بفرح وسط الاحتفال الجماعي. حافظت والدتي على الزنجيل حتى سلمته إلى أم كنعان، وما زال موجوداً.

في العشرينيات، كان الموكب ببغداد ينطلق من جامع المصلوب متوجهاً إلى جامع الخلاني ثم يعود لينتهي عند الجامع المصلوب المجاور لمنزل الشخصية الوطنية المعروفة جعفر أبي التمن. ينتهي الموكب عند ذلك المنزل وكأنه اعتراف بمكانة أبي التمن الاجتماعية، فغالباً ما تنعقد مجالس التعزية ومواكب العزاء عند ديوان وجيه المحلة أو المختار.

كنا نشهد العاشر من محرم في جامع الخلاني، حيث موكب اللاطمين والتشابيه، ومسرح المنازلات القتالية من على ظهور الخيول، ومشهد حرق المخيم، يستمر المشهد حتى انتهاء الطبق (الطبك)، ولعلّ تسمية ذلك اليوم بالطبق، جاءت من قراءة قصة المقتل كاملة، وأن الجميع قتلوا في عشرة عاشوراء. لكن العادة جرت أن توزع تسعة الأيام على أبرز الذين قتلوا مع الحسين من آل بيته، ويحتل مسلم بن عقيل المركز الأول بينهم. كانت المواكب تنسب إلى أسماء المحلات البغدادية أو المهن، أتذكر منها موكب الأكراد الكبير، تتوقف المواكب خلال مسيرتها في مناطق هامة لإلقاء الخطب والأشعار.

اهتم مشروع جامعة الكوفة بتهذيب مراسم عاشوراء، تتحقق عبر مسيرات تليق بمستوى المناسبة. مثل إقامة مهرجان كبير يشترك فيه الفنانون بلوحات فنية، وبالفعل أعدَّ الفنان كاظم حيدر أربعين لوحة من أجواء المناسبة، تحت عنوان «الشهيد»، واحدة منها محفوظة بديوان الكوفة. بطبيعة الحال هناك مَن انتقد حيدر على عمله، تحت ذريعة التعصب للمذهب الشيعي، لكن الفنان المذكور لم يكن

متعصباً بقدر ما كانت محاولة جريئة منه لتغيير أداء المراسم التي لا تتناسب مع منزلة المناسبة، فالفنان كان قد درس الفن العالمي المسيحي، واطلع على رسوم التضحية والشهادة وما خلد به صلب السيد المسيح. رأينا في الهيئة المؤسسة لمشروع جامعة الكوفة أن تكرم هذه المناسبة وحدثها التاريخي في مهرجان إسلامي دولي يشترك فيه الأدباء والشعراء والفنانون، وما يؤديه الخط الكوفي من التعبير عن الحدث بعيداً عن التعصب والأداء المتخلف.

التعليم الابتدائي

لم ألتحق بالكتاتيب، المألوفة آنذاك بمحلتنا، لأن والدتي تولت تعليمي قراءة القرآن، والمدارس الرسمية بدأت تنتشر منذ أوائل العشرينيات ببغداد. كان دور الكتاتيب أو الملالي كما تعرف محلياً مقتصراً على المجال الديني فقط، أي قراءة وكتابة القرآن، وتعلم الصلاة. كان الجامع هو المدرسة والملاّ هو المعلم والمدير، يتحلق التلاميذ حوله على الأرض، وهو يهز عصاه أمامهم متوعداً بالعقاب، ويختار من بين التلاميذ تلميذاً يعتمد عليه في تنفيذ عقوباته القاسية. ورغم كل سيئات الكتاتيب إلا أنها خرجت شخصيات تولت في ما بعد أمور العراق، بعد أن طوّرت مستواها التعليمي. هذا بالنسبة إلى تعليم الأولاد أما البنات فيتولى تعليمهنَّ النساء المتعلمات القراءة والكتابة أو القراءة فقط، ووالدتي واحدة منهنَّ. لكن مكان تعليم البنات البيوت لا المساجد، ويجوز أحياناً لأولاد الأقرباء والمعارف الالتحاق بها، فقريبنا الدكتور صادق الهلالي تعلم عند والدتي قراءة القرآن، وكنتُ أُساعدها في القراءة أو ترتيب النظام. يشترط في نهاية التعليم على المتعلم الامتحان بقراءة القرآن. من كتاتيب محلة صبابيغ الآل: كتاب جامع الحاج داود أبي التمن، كتاب جامع المصلوب، وكتاب الملا غزال في جامع حادي بادي، وكتاب الملا عبد الأمير وغيرها.

دخلت مدرسة الهاشمية، مقابل بيتنا حوالى 1922، دخلت بثقة واندفاع بحكم ما تعلمته من رسم الحروف وتهجيها من الوالدة. حاولت الإفلات من يد أخي عبد العزيز في ساحة المدرسة إلى الصف، وهو يقودني إلى إدارة المدرسة للتسجيل. دخلنا إلى غرفة المدير، وأمرني أن أذهب إلى الصف الأول الابتدائي. كنت يومها أصغر الجميع، فعمري لا يتجاوز الأعوام الخمسة. منحني صغر سني فرصة الجلوس في الصف الأمامي، المواجه للسبورة والمعلم. يقف مراقب الصف، وهو أطولنا قامةً، مؤدياً التحية بصرخة عالية: قيام! ولا نجلس حتى نسمع من المعلم كلمة: جلوس.

كنت أرتدي الدشداشة والسترة في الشتاء، كما بقية التلاميذ، وبيننا من كان يلبس العرقجينة أو الكلاو (غطاء للرأس). عدة الدراسة، إضافة إلى الكتب، القلم أبو القصبة والمحبرة ذات الحبر الصيني، وهي شيشة محكمة لا ينسكب منها الحبر، حتى لو سقطت من اليد، ولعل هذه القصبة من الأدوات التي كانت تربطنا بالقرون الخوالي. يباع الحبر الصيني على شكل قوالب صغيرة، تذاب في الماء لتكون جاهزة للكتابة. كنا نستعمل طريقة الأوائل نفسها في الكتابة نغمس القصبة في الحبر بعد الانتهاء من كل كلمة، ولم يستعمل القلم الحديث (الباندان) إلا نادراً وعلى مستوى معين من الناس، فكان في بداية ظهوره ببغداد. يلبس معلمنا الصاية والسترة، والمفتش كذلك. وبشكل عام كانت ملابس هيئة التعليم تجمع بين الماضي الحاضر، فهناك من يلبس البذلة الأوروبية وخصوصاً من غير المسلمين.

سبقني عبد العزيز إلى دخول المدرسة بأربع سنوات، وكان من بين أقرانه متفوقاً في الدروس، فمنح بطاقة المرحى والتلطيف وهي درجات التفوق في المدرسة، وتولى رئاسة فرقة الكشافة، وحمل العلم في المدرسة الحسينية، وبسبب هذه المهام اضطرته إدارة المدرسة البقاء سنة إضافية. وباعتباره أكبر سناً وسبقني إلى المدرسة أصبح هو المسؤول عن متابعة واجباتي البيتية، ومرشدي بعد المعلم. كنا نجلس في الصف على مصاطب خشبية طويلة، ثم تبدلت المصاطب بالكراسي المدرسية ذات الرف. تسلمت في اليوم الأول، بفرح وحبور، دفتر المحفوظات، المحلى غلافه بصورة الملك فيصل الأول. انتهى اليوم من الدوام الساعة الثانية عشرة ظهراً، وعدت إلى البيت وسط بشائر الوالدة ودعائها الذي لا ينقطع، وأقبلت على تنفيذ الواجب المدرسي، والتهيؤ إلى يوم دراسي آخر. دخلت يومها فرقة الأشبال، الخاصة بصغار السن.تجمعت الأيام على المنوال نفسه لتكون ستة أعوام، قضيتها في الدراسة الابتدائية متنقلاً بين المدرسة الهاشمية والحسينية والعوينة والمأمونية، فتخرجت من الأخيرة العام 1929. وطوال هذه السنوات كانت الوالدة تدس في جيبي البخصم والكليجة، كزاد لرحلتي اليومية إلى المدرسة.

كان بمحلة صبابيغ الآل ثلاث مدارس هي: الهاشمية المرتبطة بالمدرسة الحسينية وكلتاهما من المدارس التمهيدية، أما المدرسة الاساسية فهي الجعفرية. لم تبعد هذه المدارس عن بيتنا سوى خطوات. أتذكر أول مدير في المدرسة الحسينية هو الأستاذ سيد حسن تركي، وكان صارماً في تطبيق النظام، ويحاسب على المواظبة والالتزام الخلقي إلى جانب أن شخصيته قوية، لذا كان مهاباً من قبل الجميع. يجري عادة أثناء الاصطفاف الصباحي التفتيش بنفسه على نظافة الأيدي، والملابس، والشعر، والأظافر، ويسير بين الصفوف وهو متأبط مسطرة يستخدمها كعصا عند اقتضاء الحاجة. لكن إلى جانب صرامته وشدته كانت له مواقف جميلة مع الطلبة، وكان حريصاً على توزيع الجوائز على الطلبة المتفوقين، وتسليمهم بطاقات التفوق والتشجيع.

تختلف البطاقات الممنوحة للطلبة باختلاف مستوى نجاح الطالب، في درس من الدروس، وبمستوى نشاطه العام في المدرسة، وتُميز البطاقات بالألوان، ودرجات البطاقات هي: مرحى، وتحسين، وتلطيف. وقد نلت بطاقةً لتفوقي في قراءة المحفوظات. حضر المناسبة عمي الحاج عبد المجيد مكية، جاء حضوره دعماً معنوياً لي، في وقت ابتعد عنا، أنا ووالدتي وأخي عبد العزيز، الأخوة والأقارب من آل مكية بعد وفاة الوالد، وهجرتنا من بيت الأسرة والسكن ببيت الخال عبود الذراع. كان المفتش يزور المدرسة، بين فترة وأخرى، وهو الأستاذ حسن كبة، والد الصديق وزير المالية الأسبق صالح كبة، كانت لأسرة آل كبة مكانة مرموقة ببغداد منذ العهد العثماني.

تركتُ المدرسة لسبب قد يبدو تافهاً آنذاك، لكنه ترك في نفسي جرحاً عميقاً، فقد ضربني معلم الرسم على وجهي، بلا مبرر، مما دعاني إلى الهروب من الصف إلى دكان الخال. فلما علم خالي بالأمر ذهب بدوره إلى مدير المدرسة، وحدثت مشادة بينهما، وعلى أثر ذلك منعني خالي من الذهاب إلى المدرسة.وبواسطة الجيران علم صديق الخال السيد صادق الأعرجي، معلم اللغة العربية في مدرسة العوينة، فطلب أن أصحبه لتسجيلي في مدرسته، وتم ذلك بالفعل.

صادق الأعرجي

ما أتذكره عن السيد صادق الأعرجي أنه كان يُعلم اللغة العربية بأسلوب تربوي، لا يلجأ إلى الضرب كبقية المعلمين، ويشدد على المنافسة بين التلاميذ وبين الصفوف، فكثيراً ما كان يعمد إلى إحراج تلاميذ الصف المتقدم عندما يأتي بطالب من الصف الأدنى ويطرح عليه السؤال الذي عجز عنه طالب الصف المتقدم. أتذكر أنه دعاني غير مرة لكي أعرب جملة من الكلام أمام تلاميذ الصف السادس الابتدائي وأنا في الصف الرابع. في أوائل العشرينيات شغل السيد صادق الأعرجي منصب قائم مقام قضاء سامراء، وقد صحبني خالي عند زيارته له، ورافقنا في صعود مدرج الملوية. يومها لاحظت احتفاظه ببدلته البغدادية، الصاية والعمامة، رغم تعميم البدلة الأوروبية والسدارة المعروفة بالفيصلية على موظفي دوائر الدولة.

كانت فكرة خالي في ترك المدرسة أن المستقبل في العمل الحر، ويحاول إقناعي أن أكتفي في إكمال الدراسة الابتدائية، ثم أنصرف إلى مهام العمل الحر في السوق، حيث الدكان الجديد في شارع الرشيد. كنت أجمع بين الدراسة والعمل في الدكان، فالخال، كما أسلفت لم يرزق ولداً من زوجته الأولى، الحاجة جميلة، وكان يعقد عليّ وعلى أخي عبد العزيز الآمال، وكنت أحاول أن أجمع بين مهام الواجبات المدرسية ومهام الدكان من تنفيذ طلبات الزبائن، أتلفت إلى الجهتين، فربما لمحني خالي وأنا منشغل عن تدبير أمور الدكان، فكثيراً ما كان يراقبني من بعيد، فهمه أن أرحب بالمشترين، وأحافظ على البضاعة. كانت مكافأتي نصف دينار في الشهر فقط. شكيت لأخي عبد العزيز، وكان مدرساً بالناصرية، من عدم عودتي إلى المدرسة. من المصادفات المساعدة أن مر مدرس ومفتش اللغة الإنكليزية المعروف سليم الحكيم على الدكان، ووجدني مشغولاً فيه، مما دفعه إلى تأنيب خالي ليتركني وشأني في مدرستي.

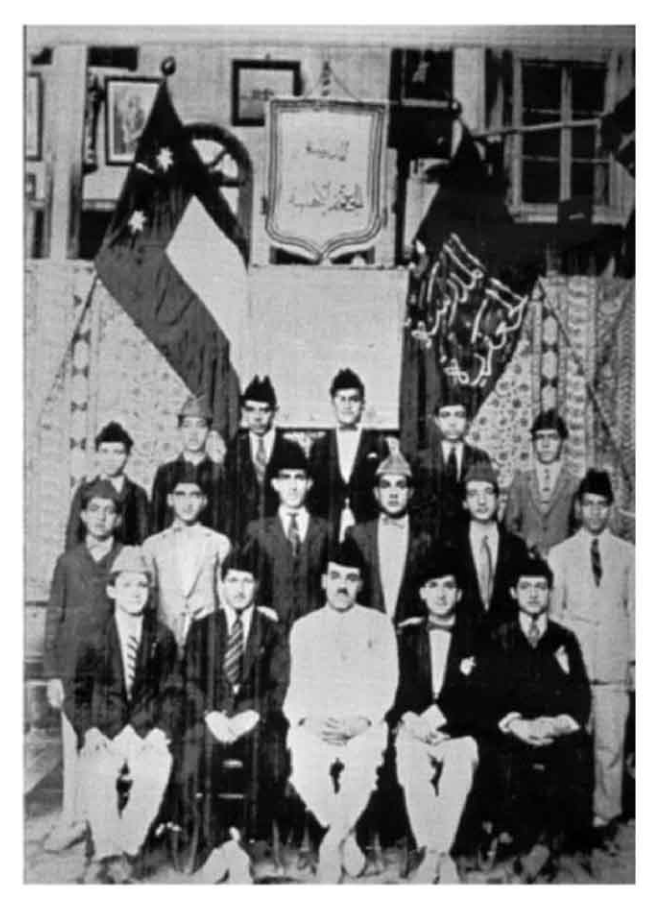
سليم حكيم

كان سليم الحكيم مدرساً للغة الإنكليزية في مدرسة العوينة، ثم أصبح في ما بعد مفتشاً عاماً في المدارس العراقية، وكانت الكراريس التي تُدرس في المدارس الابتدائية والثانوية من تأليفه، وكذلك كتب إرشاد معلمي ومدرسي اللغة الإنكليزية. ظلت علاقتي وطيدة بأستاذي الحكيم، وفرحت كثيراً بخبر نيله شهادة الدكتوراه، وهو ابن السبعة عقود، معمدة بشهادة تقديرية من البلاط الملكي

البريطاني. وبعد وفاته السنة 1996 أقمنا له بديوان الكوفة أمسية تكريمية، تكلم فيها بالإضافة لي ولده المهندس نسيم الحكيم، وتلاميذه الآخرون، من الذين ربت أعمارهم على الثمانين، مثل وزير الصحة الأسبق عبد الأمير علاوي. كان الحكيم من مواطنينا المسيحيين ثم تحول إلى الإسلام، لأنه متزوج من سيدة مسلمة.

شعور مذهبي

تنقلت بين مدارس ابتدائية عدة، وهي كما أسلفت، المدرسة الحسينية والهاشمية في سوق الغزل، ثم العوينة فالمأمونية، والأخيرة هي المدرسة الرسمية الراقية ببغداد، تقع في الميدان قريباً من القشلة. أتذكر كان مديرها سعيد بهجت، وهو شخصية محبوبة لدى التلاميذ. في هذه المدرسة شعرت بالبداية بشيء من الإحساس المذهبي، فطلبة المدرسة كانوا من المذهب السُّني كافة، وأكاد أنا الشيعي الوحيد بينهم، لكن هذا الشعور المبالغ فيه آنذاك لم يستمر كثيراً، فبعد أيام حاولت التجاوب مع الواقع بقيام صداقات طغت على ذلك الإحساس.



الهيئة التعليمية للمدرسة الجعفرية في العشرينيات

المدرسة الجعفرية

ما أتذكره حول جملة المدارس الابتدائية بمحلة صبابيغ الآل شغلت الهاشمية بيتاً كبيراً ذي طابقين، وفيها ساحة كبيرة، وامتازت المدرسة الحسينية بنظافتها، ونظامها الصارم، تعود بنايتها إلى أملاك بيت كبة. لعبت المدرسة الجعفرية، التي افتتحت في العهد العثماني العام 1908، وزارها فيصل الأول قبيل تتويجه ملكاً على العراق، دوراً هاماً في النشاط الثقافي ببغداد آنذاك، وإن أسس

وجهاء الشيعة الجعفرية بمحلة صبابيغ الآل آسس وجهاء السنَّة بمحلة الحيدر خانة مدرسة التفيض، وهما متقابلتان من حيث المستوى الدراسي والأهمية التربوية.

أستعين في ذاكرة تأسيس المدرسة الجعفرية بابن المحلة رفعت مرهون الصفار في كتابه «محلة أصبابيغ الآل وما جاورها»، قال: «دعا الحاج داود أبو التمن (والد الشخصية الوطنية جعفر أبي التمن) بعض وجوه المحلة إلى داره، ومن جملتهم الحاج عبد الغني كبة، والعلامة السيد عبد الكريم السيد حيدر، والسيد علي مهدي البغدادي، والحاج مهدي الخاصكي، وعلي البازركان، والحاج حسين الشهربللي، والعالم الديني الشيخ شكر الله، والحاج سلمان أبو التمن، فضلاً عن صاحب الدعوة، وقرروا تأسيس مدرسة، وأخذوا يجمعون التبرعات لتأسيسها، والتي سميت مكتب الترقي الجعفري العثماني، والتي أبدل اسمها بالمدرسة الجعفرية، بعد احتلال الإنكليز بغداد 1917، وكان سبب هذه التسمية لإشعار رجال الدين بأن هذه المدرسة تعلم أولاد المسلمين القرآن الكريم والدروس الدينية إضافة إلى الدروس العصرية». كان الشيخ شكر الله أول مدير للجعفريةً، وعلي البازركان معاوناً، ورؤوف القطان مفتشاً.

إضافة إلى الدراسة النهارية افتتحت في المدرسة دراسة ليلية، للحرفيين الأميين. أما زيارة الأمير فيصل إلى الجعفرية، قبل تتويجه بفترة قصيرة، إلى المدرسة فكانت مناسبة لجمع التبرعات، حضر معه وجهاء العراق آنذاك، مثل: السيد نوري الياسري، والسيد علوان الياسري، والسيد عبد الكريم الحيدري، والشيخ عبد الواحد الحاج سكر، والشيخ سالم الخيُّون، والشيخ باقر الشبيبي، والشيخ أحمد الداود، وعبد المجيد الشاوي، والشاعر جميل صدق الزهاوي، والشيخ محمد مهدي البصير، والشيخ كاظم الدجيلي، والشاعر عبد الحسين الأزري وغيرهم. وكان مجموع ما حصلت عليه المدرسة من تبرعات في ذلك اليوم ثلاثة وأربعون ألف ربية وخمسمائة ليرة ذهب افتتحها الشيخ سالم الخيون بالتبرع بمائة روبية ذهبية. أما الشاعر الزهاوي فتبرع بقصيدة استعار مطلعها من أبي الطيب المتنبي، اعتذر فيها عن المساهمة في التبرعات:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

كما كانت زيارة المدرسة الجعفرية مناسبة اجتمع فيها رؤوساء العراق، لأخذ البيعة للأمير فيصل. تبدأ الجعفرية بتدريس اللغة الإنكليزية من الصف الثاني الابتدائي، بدلاً من الصف الخامس كما هو حال المدارس الرسمية، وتدرس فيها أيضاً اللغة الفرنسية، وكانت ذات إدارة صارمة، فمن مدرائها صادق البصام، وزير المعارف في ما بعد. ومن مدرسي اللغة الإنكليزية فيها الأستاذ (جون)، ومدرس الرياضيات علي مظلوم. ما زلتُ أحتفظ بصورة فوتوغرافية لطلبة ومدرسي المدرسة الجعفرية لعام 1922، فالصورة لحسن الحظ من مقتنيات الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، وقد بعثها لي الصديق حسام جمعة، من الأرشيف الوثائقي المفترض لمشروع الجامعة. ولهذه المهنة، دعيتُ الأصدقاء كافة إلى استنساخ ما عندهم من وثائق أولية، ومما حصلنا عليه من ثروة وثائقية صور خاصة للشخصية المعروفة جعفر أبي التمن. ما أتذكره أيضاً عن إدارة ومعلمي المدرسة الجعفرية أنهم كانوا في مقدمة الشاجبين لوعد بلفور، ومواقف وطنية أخرى، بيد أن المدرسة لم تسمح بظهور بوادر التعصب على المستوى القومي أو الديني أو المذهبي.

المدرسة المتوسطة الشرقية

العام 1930 كان بداية دراسة المتوسطة في الشرقية بمحلة السنك، وهناك المتوسطة الغربية قرب الحيدر خانة، وهما المتوسطتان الوحيدتان آنذاك ببغداد. أشهر مدرسي المتوسطة الشرقية كان اللغوي والمؤرخ مصطفى جواد، صاحب المؤلفات التاريخية واللغوية، والبرنامج الإذاعي اليومي «قُل ولا تقُل». والمؤرخ جواد علي، صاحب كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، وكانا حينها من الشباب المتحمس للتحديث، وقد بُعثا للدراسة في الخارج من أجل التدريس في المدارس الثانوية والمتوسطة. كان مدرس الدين يتجنب الدخول في نقاش مذهبي، ولم يتبع في درسه وجهة مذهبية، وقد عُرف بكلمته التي كان يرددها كثيراً وهو يتجول بين التلاميذ «نفسُك مطيتُك لها حق عليك»، بعدها يجلس ويقول: «فأنا الآن تعبت نفسي، وسأريحها بجلوسي».

مدة الدراسة في المتوسطة ثلاث سنوات، وبعدها يتم الانتقال إلى المدرسة الثانوية، المعروفة بالثانوية المركزية وهي أول وأهم المدارس الثانوية بالعراق، موقعها في منطقة المركز الحكومي الذي بناه مدحت باشا، ولا زال يعد من معالم مدينة بغداد العمرانية، وكانت مجاورة لمقر الملك فيصل الأول قبل انتقاله إلى البلاط الملكي على طريق الأعظمية. فكثيراً ما كنا نشاهد الملك أثناء خروجه من المبنى، يرد علينا تحيتنا التي نُلقيها عليه من فوق السور، كان يظهر كالعادة بوجه بشوش وبساطة ملحوظة، اعتدنا رؤيته بلا موكب وحرس، أو ما يعبر عن جبروت.

المدرسة الثانوية

كانت الدراسة في المدرسة الثانوية على فرعين: فرع الآداب، وفرع العلوم والرياضيات. أبرز الشخصيات العربية التي تولت التدريس في الثانوية أكرم زعيتر وزير خارجية سوريا، في ما بعد. وبعد عقود من السنين التقيتُه في مؤتمر المجمع العلمي الأردني بعمان، تقدمتُ نحوه مذكراً بتلك الأيام، فعج الحاضرون بالضحك، قائلين له: «الآن سنعرف عمرك بالتحديد».
أتذكر بمودة وتقدير المدرس السوري فريد زين الدين، وهو أول مَنْ درسنا علم الاجتماع في الثانوية، تعلمنا من الأخير كيف نفكر بطريقة مختلفة عن الأساليب الجامدة. تميز زين الدين كأستاذ بالتعبير بوضوح عن علاقة الاجتماع بالفلسفة والعلوم الأخرى، وأول مرة نسمع أن هناك من القدماء مَنْ شبه التطور بجريان مياه الأنهر، كان يردد عبارة فيلسوف يوناني تقول: «لا يسبح أحدكم في مياه النهرين مرتين». سمعنا أول مرة منه أن هناك عالماً يُدعى ابن خلدون، وغيره من العلماء والفلاسفة. من مدرسي الثانوية الأثيرين أيضاً الأديب صادق الملائكة، والد الشاعرة العراقية نازك الملائكة، وكان يتقاسم دروس اللغة العربية مع المدرس ضياء شكارة.



واجهة المدرسة المركزية ببغداد في العشرينيات

تولى مهام تدريس مادة الرياضيات البغدادي اليهودي المحبوب عبد الله عوبيديا، كثيراً ما رافقناه بجولة إلى طاق كسرى على الدراجات، وهي أول سفرة لنا بهذه الطريقة. وتناوب على تدريس مادة التاريخ المؤرخان جواد علي وناجي معروف، وكان الأخير متحمساً، بشكل غير عادي، للتاريخ الأموي والمبالغة فيه، وربما ينسجم ذلك مع تفكيره القومي، في كتاب له حاول إثبات المفكرين كافة أنهم من أصل عربي. كنا لا ننظر إلى تحمسه بارتياح، فهو يكثر من تمجيد وتبرير أفعال الخلافة الأموية، وعلى وجه الخصوص مؤسسها معاوية بن أبي سفيان. في دراسة التاريخ المدرسي كثيراً ما كنا نشعر بالازدواجية، فبين تربيتنا التي نشأنا في أجوائها، وتفاصيل المظالم التي نسمعها ونشاهدها، بمشاهد مسرحية، في عشرة عاشوراء بعاطفة فياضة تجاه مقتل الحسين، وما حل به وآل

بيته. تساهم دراسة التاريخ بهذه الطريقة في تفرقة مجتمعنا العراقي بين شيعة وسنّة. أرى في هذا المجال من المفروض أن نسدل الستار على أحداث التاريخ، مازلنا غير قادرين على إعادة كتابتها، ووضع أحداثه بموضع التقييم والتصحيح الإنساني والمعنوي، وما يثبت حقوق الإنسان.

إضافة إلى الدروس الأساسية في المدرسة الثانوية، من العلوم والآداب، كان هناك نشاط ملحوظ في المجال الفني، فقد نشأت في المدرسة فرقة مسرحية، قدمت مسرحيات من تأليف الأديب الإنكليزي وليم شكسبير. ففي مهرجانهم السنوي، تحت رعاية الملك فيصل الأول وأعضاء الحكومة، يعرض الطلبة مهاراتهم في الألعاب الرياضية وإبداعهم الفني والأدبي.

خيارات الدراسة الجامعية

اخترتُ في الثانوية قسم الرياضيات، وكان عدد الطلبة فيه لا يتجاوز العشرة، وذلك بسبب صعوبة المادة. وبحكم تفوقي في هذه المادة كان المعول به أن أتخصص فيها في ما بعد. لكن أخي عبد العزيز، الذي اختار دراسة الطب، كان يشجعني على دراسة النفط، وحجته في ذلك أن البلد مقبل على تطور كبير في الصناعة النفطية، والنتيجة التي أراد الوصول إليها هو عدم التفكير في العمل بوظيفة حكومية، بعد إنهاء الدراسة الجامعية، إلا إذا كانت ضرورة لا بد منها. أخذ يشجعني أيضاً على دراسة الهندسة المعمارية، في حالة عدم حصولي على بعثة دراسية في هندسة النفط.

رُفض طلبي في الالتحاق بدراسة هندسة النفط، بحجة أن شركة النفط العراقية هي المسؤولة عن بعثة دراسة النفط في الخارج، لأنها هي التي تتحمل التكاليف. كانت شركة النفط لا تقبل غير حاملي الشهادة الإعدادية الخاصة، التي تؤهل إلى الجامعة البريطانية، وهذه الشهادة لا تمنحها سوى مدارس الليسانس اليهودية والمسيحية ببغداد. لأن خريجي تلك المدارس يجيدون اللغة الإنكليزية، فهي لغة دراستهم، وشهادتها تناسب طلبات الالتحاق في الجامعات الأميركية. غير أن مدير البعثات ساطع الحصري أشار عليَّ قبول بعثة دراسة الرياضيات بألمانيا، كان الحصري يشجع على الدراسة في ذلك البلد، وربما يفسر ذلك بتقارب فكري وسياسي من انبعاث القومية الألمانية آنذاك. أتذكر كان يومها وزير المعارف صادق البصام، ومدير المعارف العام فاضل الجمالي.

البعثة إلى بريطانيا

لم يبق أمامي غير التقدم إلى الكلية الطبية ببغداد، التي كانت بالنسبة إلي الخيار الثاني، وكان شقيقي عبد العزيز يدرس فيها. لم يطل الوقت حتى جاءت المفاجأة لتُلغي تفكيري في دراسة الطب، التي لم تكن محببة إلي. فما حصل أن جاء موظف من وزارة المعارف إلى المحلة يسأل عني، فأخبرني بضرورة الذهاب إلى ديوان وزارة المعارف لمقابلة معالي وزير المعارف صادق البصام شخصياً. كنت وقتها مصاباً بالزكام، ورغم ذلك ذهبتُ إلى ديوان الوزارة لمقابلة الوزير. سألني الوزير عن إمكانية الذهاب إلى الدراسة بألمانيا، فكانت مناسبة أن أخبره برغبتي في دراسة هندسة النفط، فإضافة إلى عدم رغبتي في دراسة الرياضيات، رغم تفوقي فيها، فإنني لا أُجيد اللغة الألمانية، وحتى لم أتعرف على حروفها، وهذا ما يكون عائقاً نفسياً في الدراسة في ذلك البلد. بعد سماع عذري في رفض البعثة السابقة طلب الوزير مباشرة من ساطع الحصري وإدارة شؤون البعثات العلمية أن أُمنح البعثة التي اخترتها، فأجابوه بأن بعثة دراسة هندسة النفط غير ممكنة، فعندها قال لهم: امنحوه بعثة دراسة الهندسة المعمارية ببريطانيا. وتم لي ذلك، ذهبت على جناح السرعة للتوقيع على عقد البعثة الدراسية، واستكمال ما يتعلق بها من أوراق رسمية.

بدأت أستعد للسفر إلى بريطانيا، وكنت من المتأخرين في الالتحاق بالبعثات الخارجية. هيأت نفسي للسفر خارج العراق، فاستفسرت من عبد الأمير علاوي، الذي سبق له الدراسة ببريطانيا لفترة قصيرة، عن المكان الجديد. وأتذكر أني حفظتُ وصيته حرفياً: «عندما تخرج من محطة فكتوريا تركب في أي باص رقم (52) يوصلك إلى القنصلية العراقية».

كان عدد المرشحين للبعثة الدراسية، التي ذهبتُ فيها العام 1935 خمسون مبعوثاً، جلهم من أولاد العائلات الفقيرة، فليس لهم مَنْ يكفلهم، الكفالة التي لابد منها لضمان عودتهم والعمل في دوائر الدولة. تولى كفالتي رشيد مقصود لأنه موظف في دوائر الحكومة،

وتوجه عدد من المبعوثين إلى غرفة التجارة قاصدين جعفر أبي التمن، وكان الأخير حريصاً على تلبية طلب الجميع، لكنه استدرك قائلاً: إن القانون لا يسمح لي بكفالة أكثر من ثلاثة مبعوثين، فأشار على الباقين أن يذهبوا إلى سوق الصفافير، لأن كل صفار مسجل في غرفة التجارة له حق الكفالة، وفعلاً جاء الصفافير إلى ديوان وزارة المعارف، وأتموا الكفالات.

التهيؤ للسفر

للسفر الأول، أو الفراق الأول، مخاوفه وظنونه، هذا إذا كان التغرب في داخل الوطن من منطقة إلى أخرى، فكيف إذا كان إلى الخارج، إلى بلاد قصية مثل بريطانيا، وكل ما أحمله آنذاك حولها أنها بلد محتل، وأن أثر اعتداء الجندي البريطاني عليّ، في منتصف العشرينيات، وأنا أقف بالسوق أمام دكان خالي عبود ما زال طرياً، وكل الأمور غامضة ما عدا ما كشفه لي عبد الأمير علاوي. تم السفر إلى بريطانيا عبر سيارات شركة نيرن المشهورة، التي أقلتنا من الصالحية ببغداد إلى دمشق ثم بيروت، بعدها أخذنا الباخرة المتوجهة إلى فرنسا. فانتابني طوال الطريق القلق على مكان تركته، ومن مكان سأحل فيه، ماذا سيكون؟ سافرت وسط عواطف الأهل والأقرباء، وكانت دموع والدتي سخية.

عواطف عابرة



في الثلاثينيات

في أجواء الدراسة الابتدائية، وسني حينها ثلاثة عشر عاماً، انتدبني أحد المعارف الوجهاء المقربين إلى تعليم ابنته القراءة والكتابة في بيتهم القريب من المحلة، وكانت تكبرني بستة أعوام. كنا نجلس على أرضية الطارمة المفروشة بالحصيرة والمساند، وفي أجواء

التقارب ورهافة المشاعر كان لابد من الأحاسيس المثيرة في تلك اللحظات. فرؤية البنت كانت محرمة اجتماعياً، حتى على الأقارب من أولاد العم، حتى تحولت إلى أمانٍ تُثير في النفس ما تُثير، فكيف الجلوس محاذاتها. كانت شفيقة جميلة ومملوءة أنوثة، تجاوزت الطفولة إلى النضج والشباب. كانت بين لحظة وأخرى تلتقي عينها بعيني، مع التماس الذي تفرضه المهمة والرغبة في أن واحد، مع ذلك كنا محكومين بالحياء الشديد، واستمر الحال حتى تمكنت من القراءة والإملاء. لكن طوال تلك الفترة بقيتُ منكفئاً على نفسي، فهي أول مشاعر وصال، أكون قريباً بهذه المسافة من فتاة، وما يرافق ذلك من خوف وخجل.

حصل في يوم من الأيام وهي جالسة بجانبي أن لدغ ساقها زنبور، وما أكثره في بعض المواسم. كشفت عن مكان اللدغة مذعورة لعلي أساعدها على تخفيف الألم. أسرعت إلى ساحة الحديقة حيث شجرة الصبير، فقطعت منه قطعة وأخذت أدلك لها مكان اللدغة، لكنها خجلت من الموقف وأعلنت ندمها كلما تذكرت الموقف، ولا أدري كيف فطنتُ إلى أهمية سائل الصبير في لدغ الهوام السامة. كان أخي عبد العزيز جريئاً في مثل هذه الأمور، وربما ذلك بحكم كبر سنه مقارنة بسني. كان يدعو شفيقة، أثناء زيارتها لأمي، إلى سطح الدار حيث يلعب بطيارات الورق، وهي لا ترد على دعوته بطبيعة الحال والظروف، كما لا تشكوه لأحد. ترددت في التعامل مع شفيقة رغم أني اعتدت مجاملة البنات والجلوس معهنَّ، وهذه الفرصة أتاحها لي صغر سني، فأجلس في المجلس الذي تعلم فيه والدتي بنات المحلة. لكن الحال لم يستمر كما هو عليه بعد بلوغي الخامسة عشرة.

تبدو أزقة ودرابين المحلة فارغة وقت الظهيرة، فينشط تبادل العواطف، في النظرات والكلمات الخافتة، بعد ذهاب الخال للغداء والقيلولة، وبين الحين والآخر كانت ابنة أحد أصدقاء العم الحاج عبد المجيد مكية، وهو شخصية معروفة من أصل تركي نال لقب باشا في العهد العثماني، كانت زيارتها إلى عيادة طبيب العيون مع صديقة لها من أقاربي، لكنها تنفرد عنها عند الوصول إلى باب الدكان لشراء الحلويات، نظرات عابرة وإشارات خائفة، انتهت بعد أن لفت ترددها نظر الخال وأخي عبد العزيز.

تعلقت بعاطفة أخرى مع فتاة اسمها وديعة، تتردد عليَّ أثناء تواجدي في دكان خالي في ساعات غيابه بعد الظهيرة، لتشتري الفستق، فأحاول أن أعطيها كمية أكثر، وأحرص أن أعفيها من دفع النقود. تحدثت لي عن شؤون عائلية وأمور عامة. تأتي الدكان أحياناً مع بنات عمي ومَنْ بصحبتها. لفتت زياراتها ومكوثها طويلاً نظر خالي، فسألني مرة عنها وكان لا يعرف اسمها فأشار إليها بالفتاة، قلت له: إنها مجرد مشترية. ظلت العواطف مع وديعة مستمرة. لكن لا لقاء غير لقاءات باب الدكان، وهي تشتري الفستق، واللقاء العابر في المناسبات النادرة من أعراس وغيرها، أو تلاقي العيون مصادفة وهي في طريقها إلى العيادة الطبية. ظلت العلاقة بوديعة بين الوهم والحقيقة، حتى غادرت العراق للدراسة الجامعية ببريطانيا العام 1935. كان آخر لقاء لي معها يوم سفري الذي أخذت علماً به، فتحينت اللحظة التي سأمر بها على جسر مود، المعروف في ما بعد بالأحرار أنا والمودعين من العائلة والأصدقاء قاصدين الصالحية، حيث باصات (النيرن) التي ستشق بنا الصحراء إلى الشام. مرت وديعة ملتحفة العباءة وخافية بها وجهها، لم تشر حينها بحركة ولا كلمة، لكنها لحظة ذاك قالت كل شيء. كانت عيناها زرقاوان، ورشيقة القوام.

النقل: ما بعد الحمار والتراماوي العثماني

إن من جمال بغداد القديمة وبداعتها، أنك تتمكن من جوبها سيراً على الأقدام، أو على ظهر حمار، ذاك قبل أن تحل وسيلة النقل الآلية الحديثة. لم تدخل العجلة الهوائية إلا في العشرينيات، ولم أركبها إلا بعد دخول المدرسة الثانوية العام 1930، فكانت أقصى مسافة قطعتها أنا وزملائي وأستاذ الرياضيات عبد الله عوبيدا على الدراجة الهوائية من مركز بغداد إلى سلمان باك. قد استمرت معي هذه الهواية حتى ذهابي إلى الدراسة في بريطانيا العام 1935، وهناك طفت على دراجتي بين القرى الإنكليزية بصحبة زوجتي.

تحول النقل من العربات التي تجرها الخيول والحمير، ببغداد بداية العشرينيات، إلى السيارات، وكانت البداية في كاراج خاص قرب منطقة المربعة، تنطلق منه السيارات المدهشة بسرعتها وتكنيكها. وأول ما دخل من السيارات إلى بغداد سيارات الفورد والشوفرليت. وأخبرني المخضرم كاظم مكية عن أول سيارة دخلت بغداد، وكانت «سيارة خليل باشا، وكانت حمراء اللّون».

كان أول ركوبي للسيارة أنا ووالدتي متوجهين إلى بيت قريبنا غني مقصود، وكان يعمل في ورشة تصليح السيارات، ولعلها أول ورشة ببغداد في العشرينيات، وخلف في عمله أولاد أقوياء منهم كامل وسامي، وكانا من اليسار العراقي، ورشيد مقصود الذي كفلني

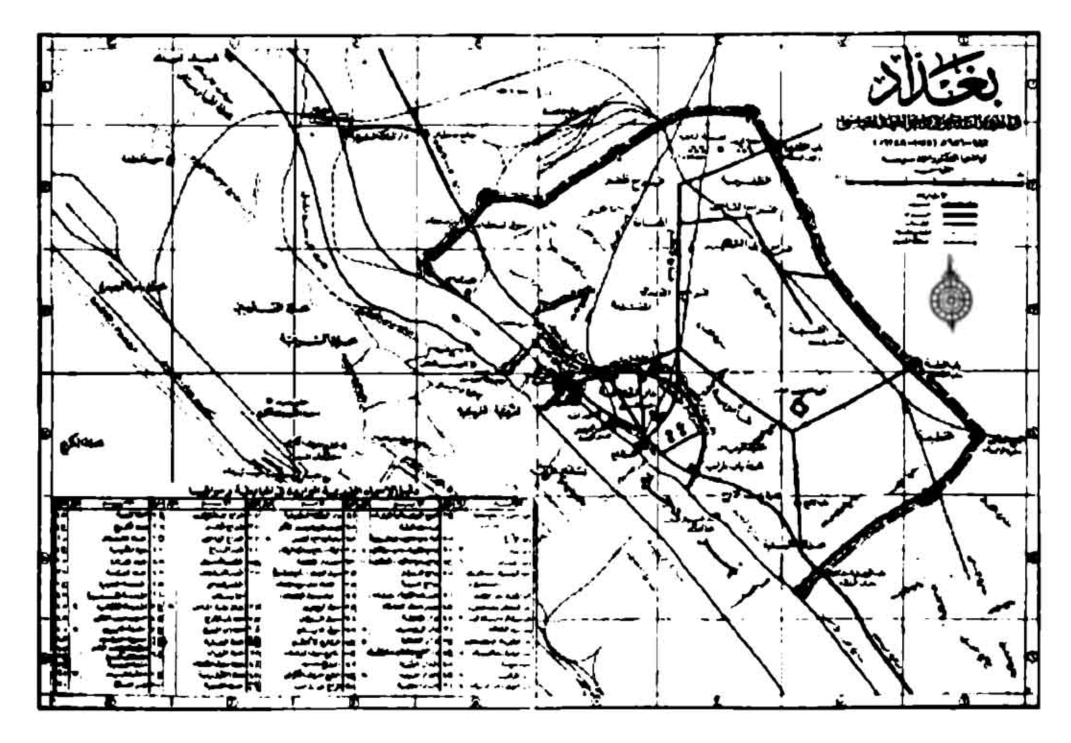
في الدراسة بالخارج، وكان خال صديق الطفولة صادق الهلالي ومربيه، وكانت قرابتهم بأخوالي آل الذراع عن طريق الأم، ما أتذكره جيداً كان يمر بأراضيهم نهر صغير يدعى نهر مقصود.



ترامواي بغداد - الكاظمية في العشرينيات

بعد استخدام السيارة تضاءل تدريجياً دور الترامواي العثماني والذي كانت تجره الخيول على سكة حديد. أما السفر خارج بغداد بواسطة العربات التي تجرها الخيول، قبل دخول السيارات وتهيئة طرقات لسيرها، كان إلى المناطق القريبة فقط، مثل كربلاء والنجف والحلة. أتذكر سفرنا في نهاية العشرينيات، أول مرة بالسيارة إلى كربلاء لزيارة العتبات المقدسة، وكنا بصحبة الخال عبود، وكان مسلحاً احتراساً من قاطعي الطرق. تهنا في منتصف الطريق ونفد وقود السيارة، فبقينا في الانتظار حتى قدوم سيارة أخرى. أما السفر إلى المناطق البعيدة، مثل الموصل والبصرة، فكان يتم بواسطة السفن عبر دجلة. لقد اختلف وجه بغداد تماماً بعد دخول السيارات، شُقت الطرق لها، فتجزأت المحلات البغدادية المتراصة، لتفسح المجال لهيمنة الآلة. لكن رغم كثرة السيارات والباصات، التي دخلت في ما بعد، ظل تواجد العربات القديمة ملموساً، لاسيما بين المناطق القريبة، ومنها عربات الربل التي تقطع شارع الرشيد ذهاباً وإياباً، تحمل على واجهتها إعلاناً سينمائياً عن فيلم جديد.

أدت وسائل النقل القديمة من عربات الربل وغيرها مهمتها على أحسن وجه، حتى بدأ أفولها حال ظهور السيارات. لم تعد طرق بغداد تألف مرور الحمار، بعد أن كان مركباً للشعراء، مثل جميل صدقي الزهاوي، والأطباء عند عيادة مرضاهم، وكما ذكرت آنفاً كان الطبيب التركي يأتي راكباً الحمار الأبيض عند عيادة والدي، وهو على فراش الموت.



خارطة بغداد



بغداد في الفيضان



منظر عام لجسر بغداد في العشرينيات



جرّاخ السكاكين



أحد سقاة بغداد



حمالون في سوق الشورجة أواسط العشرينيات



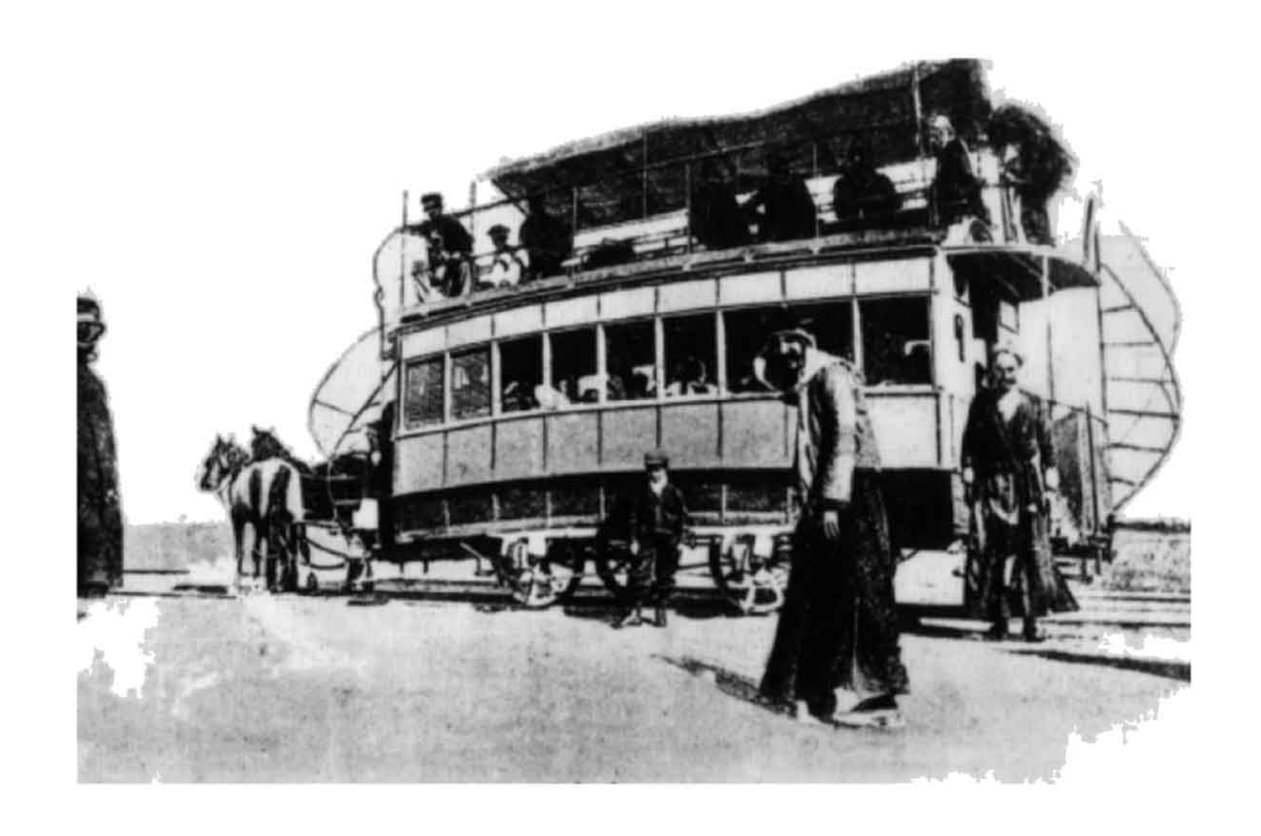
الجسر القديم قبل إعماره



بعد إعادة إعمار الجسر القديم في بغداد



سينما رويال في شارع الرشيد







ترامواي بغداد - الكاظمية



سوق الدهانة كما صارت إليه الحال 1980



طارمة بيت الاسترآبادي في الكاظمية



بوابة باب المعظم في العهد العثماني



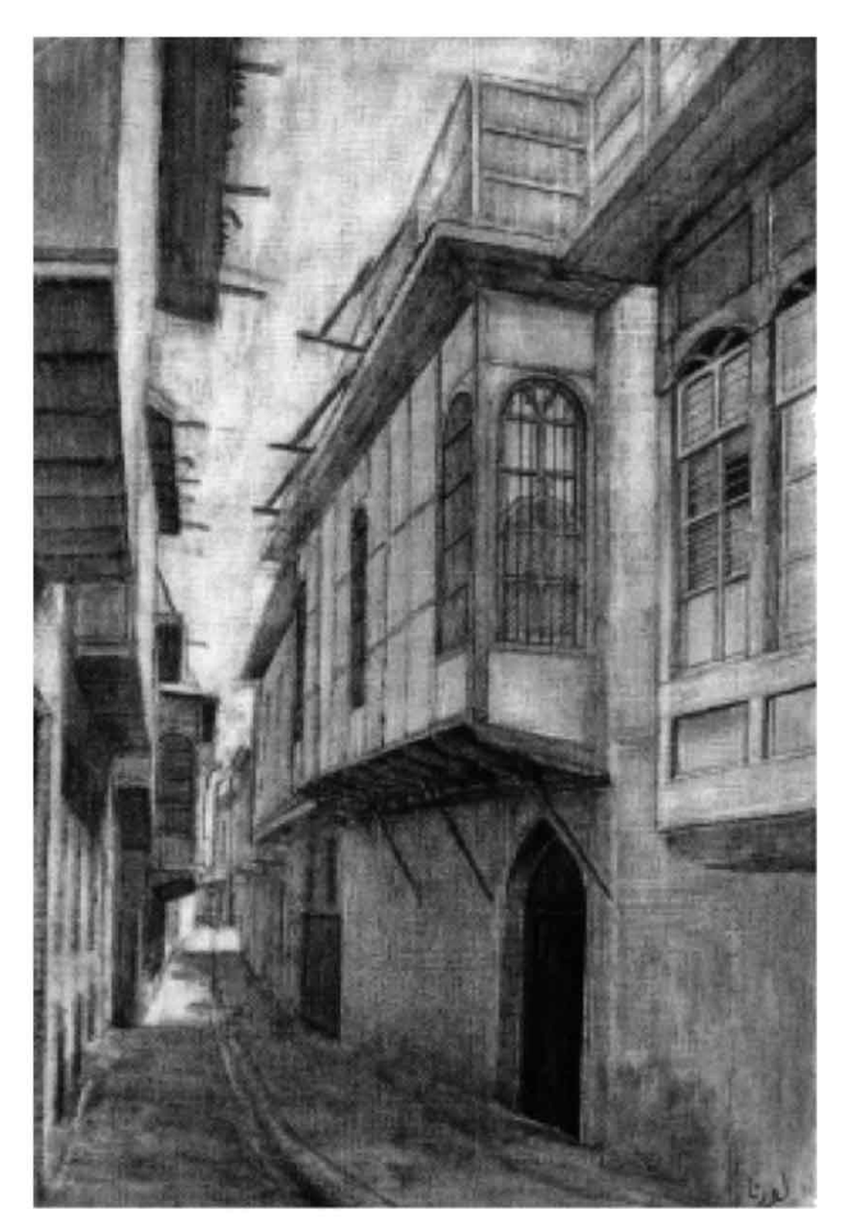
دواليب الهوا في الأعياد



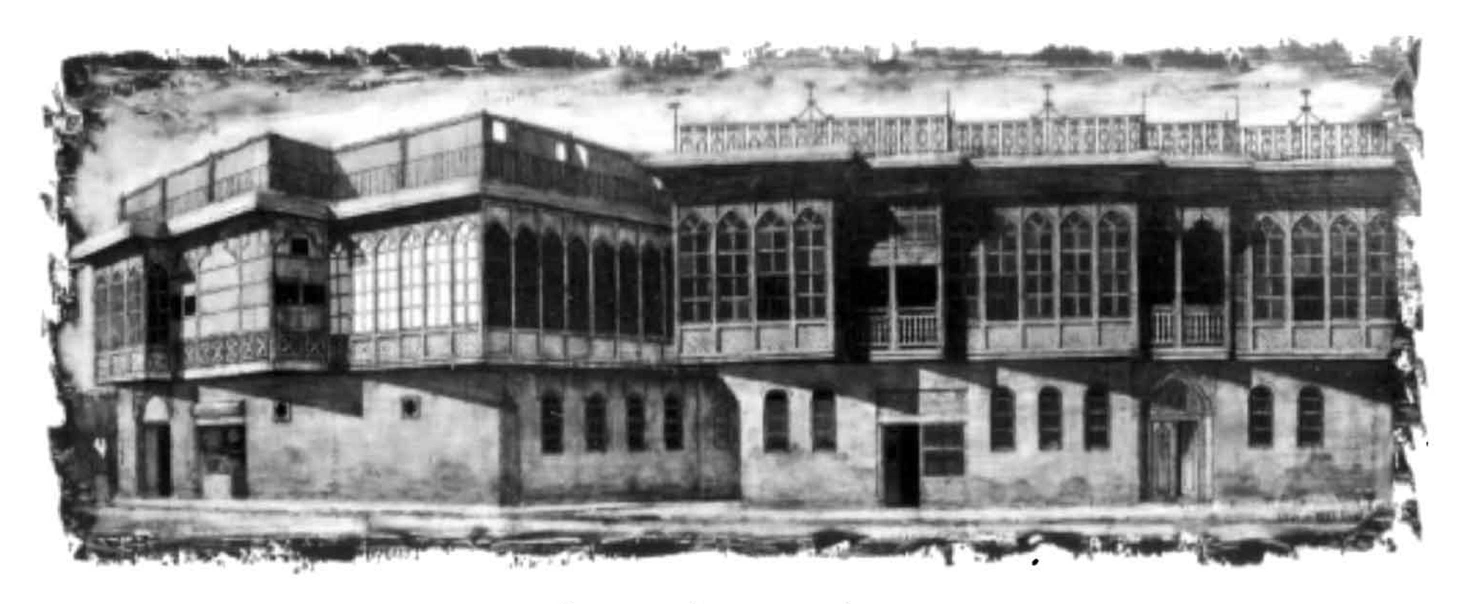
قارب الكفة



شريعة سلطان سيد علي حيث مكان تعليم السباحة



(بيتنا في محلة صبابيغ الآل (لورنا سليم



شناشتيل بغداد (لورنا سليم)



البيت البغدادي



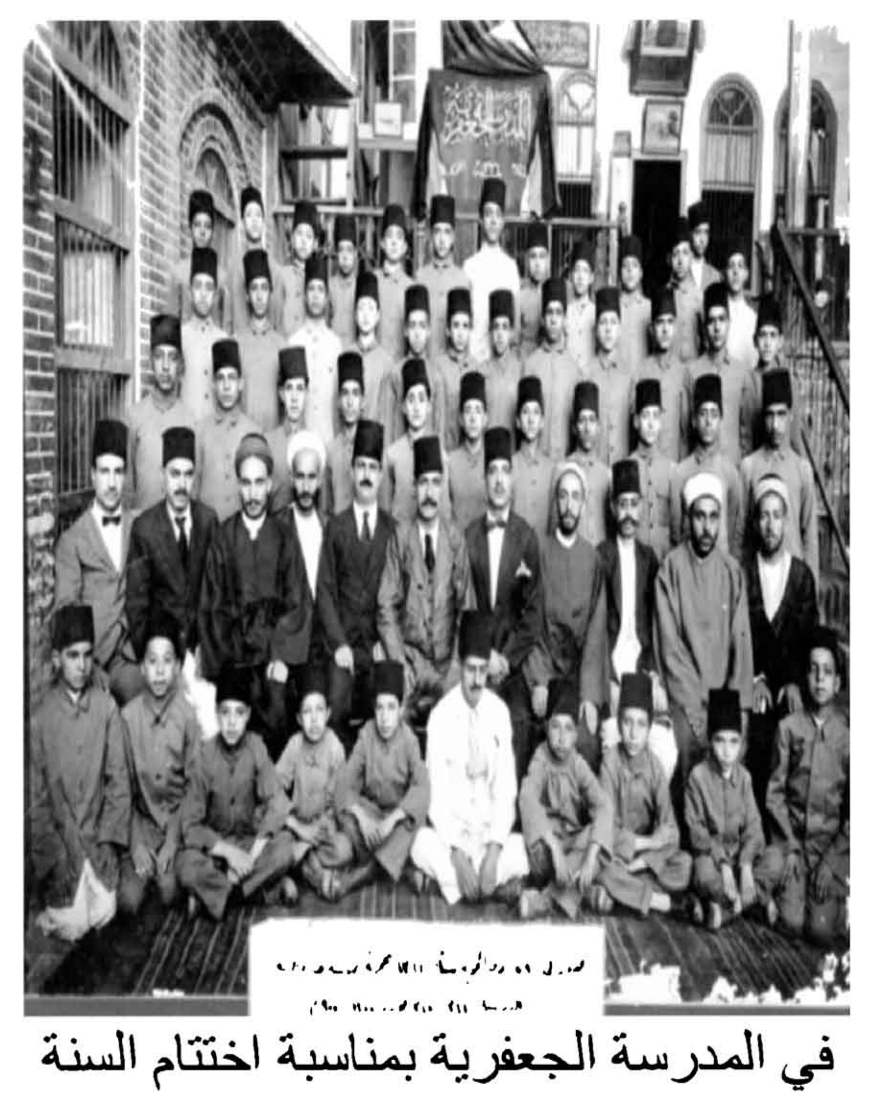
الوالدة عام 1935



أنا والخال عبود الذراع وأخي عبد العزيز
(منصور سيد جعفر - بغداد)



الوالدة تحتضن نزار بين عبد العزيز
وزوجته أم نزار



في المدرسة الجعفرية بمناسبة اختتام السنة الدراسية عام 1922 م



مع الأصدقاء قبل السفر إلى بريطانيا
(1935)



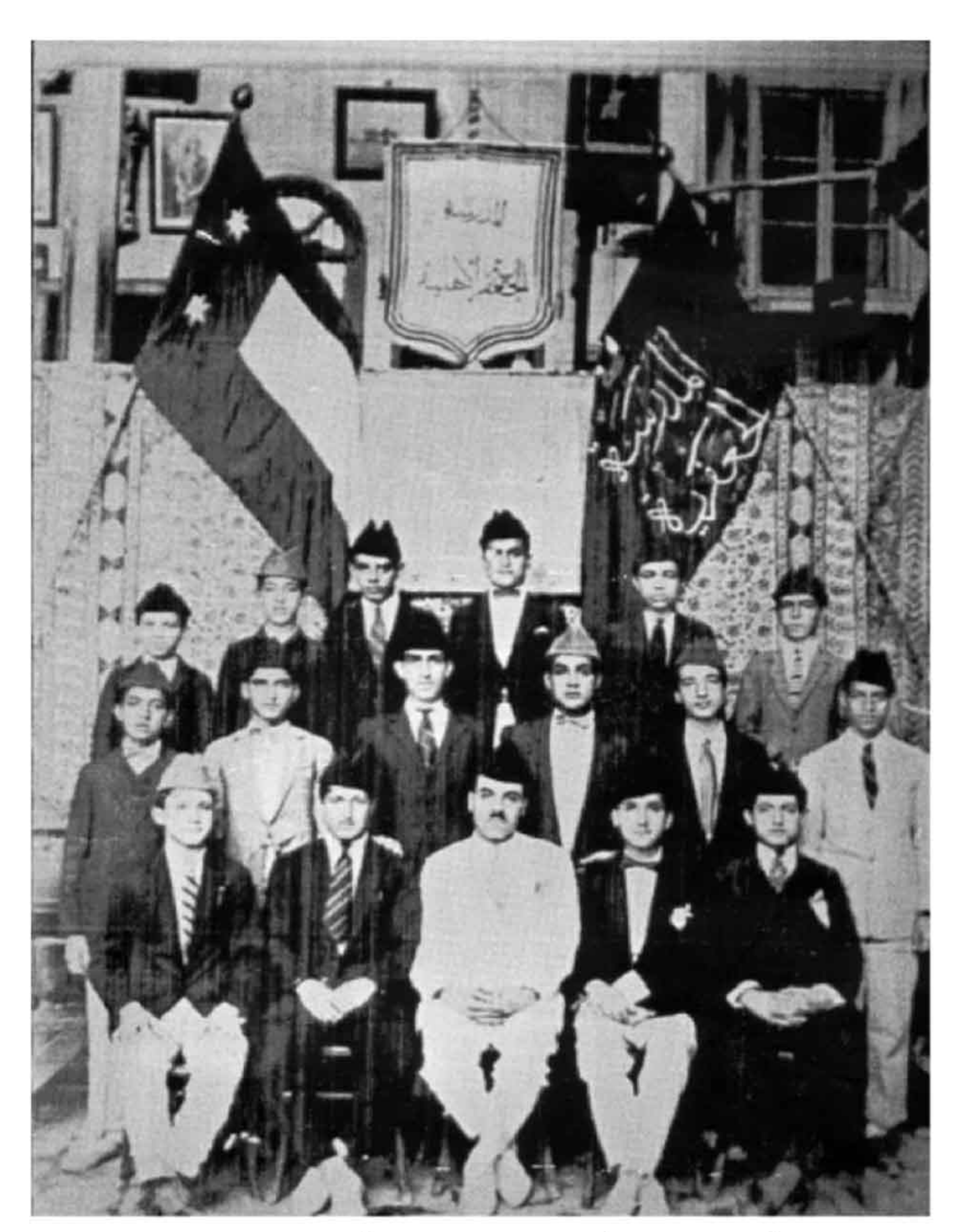
الحاج مجيد مكية مع عبود الكرخي ورشيد القندرجي
وسعيد التكريتي بمناسبة عودتي إلى بغداد في الإجازة
الصيفية (1937)



مع الأصدقاء في بغداد 1935 (من اليمين: الثالث أخي عبد العزيز وأنا الخامس)



من اليمين: عبد العزيز علوان وأخي عبد العزيز مكية وصادق حمودي وتوفيق الجميل



المدرسة الجعرفية في العشرينيات



صورة تذكارية تجمعني مع مجموعة من الأصدقاء وأخي عبد العزيز
صورها المصور أرشاك (بغداد 1935)



زقاق البيت الكبير بعد حسين (1980)



تظاهرات ضد الاحتلال البريطاني في العشرينيات



مقهى (أبو علي) في الباب الشرقي بداية العشرينيات

أول الاغتراب

كان مقهى «أبو علي»، في الباب الشرقي على شاطئ دجلة، ملتقى مراجعة الدروس مع الأصدقاء. اجتمعنا في المقهى قبل يوم من السفر، وألتقط الصورة التذكارية مصور بغداد الأرمني أرشاك. كانت العصرنة تظهر جلية في أناقة أرشاك، فهو أول من قلد الشباب الغربي،في مطلع الثلاثينيات، بالملابس وزلوف الشعر الطويلة. في هذا اللقاء كان دجلة حاضراً، فكنت أتحدث مع أصدقائي وأخي عبد العزيز، وأنظر إليه نظرة الوداع، فالمسافات بيني وبينه ستكون طويلة، عبر مراحل سفر شاقة. ولندن مهما كانت حاضرة بالعراق، آنذاك، إلا أن السفر الطويل إليها يستحق ظهور مشاعر الحزن وذرف الدموع، فهي بلاد قصية والإقامة تُعد بالسنين لا بالأيام والأسابيع.



مع مجموعة من أصدقائه قبيل السفر

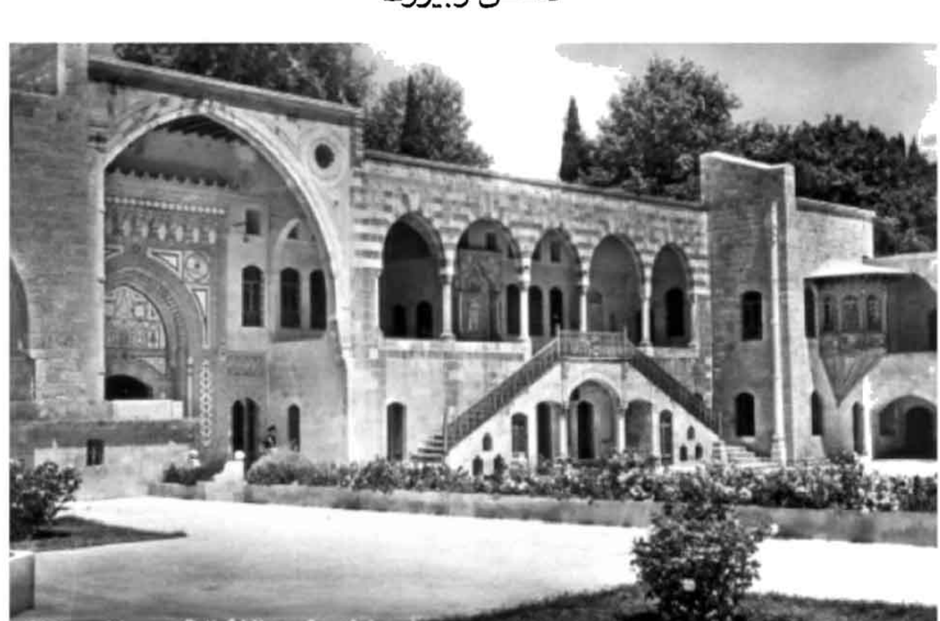
كانت أحزان الوالدة لحظة الوداع مضاعفة، فقد شعرت بها منذ رسوخ فكرة السفر في ذهني. أخذت تودعني طوال أيام التحضير للسفر، تتصرف وكأنها تتدرب على الفراق، ولم يشغلها فراقي فقط بل كانت متحيرة في كيفية ترتيب أموري من دونها، فأعدت لي من الطعام ما يكفي سفرتي. لكن ألم الفراق ودموع الحب السخية، التي تعلن بداية الاغتراب، كانت تقترن بالأمل والأماني والتمنيات بالعودة الظافرة إلى العراق. جعلني موقف الوداع أحرص على طلب العلم، لا لأجل العلم والمعرفة فحسب، بل لتحقيق أمل الأهل وأمانيهم واعتزازهم بنجاحي، وكانت الوالدة في مقدمتهم.

كانت المسافة قصيرة بين بيتنا قرب العبخانة، حيث تصنع العباءات بمحلة صبابيغ الآل، وبين الصالحية عبر جسر مود (القائد الإنكليزي الذي احتل بغداد السنة 1917، فظل تمثاله منصوباً عند رأس الجسر، بمحاذاة بناية السفارة البريطانية حتى 14 تموز «يوليو» 1958). عبرتُ الجسر مشياً على الأقدام مع المودعين، تسير في مقدمتهم الوالدة شاردة الذهن بخطوات مثقلة، لا تكف عن تكرار الوصايا، فما حصل أن افترقنا يوماً من الأيام منذ ولادتي وحتى هذه اللحظة. قطعنا الطريق وسط أحاديث السفر والاغتراب، ووصايا الاهتمام بالنفس والمستقبل، والتأكيد على المراسلة وما إلى ذلك. ومن الجانب الآخر لاح خيال وديعة، وهي تعبر الجسر من الجهة المقابلة. فهمت أنها تقصت الأخبار عني من الأهل، فجاءت مودعة بطريقتها، فمن يسمح لها بأن تفصح بكلمة، ولو كانت كلمة مع

السلامة؟ ففي تلك اللحظات اجتمعت عواطف شتى: الوالدة ودموعها السخية، والأصدقاء وفراقهم لأول مرة، وفتاة اختفت وراء المارة بعد أن أحيت الشجن في نفسي. كادت عواطفي تمنعني من السير نحو بداية السفر البعيد، حيث باصات النيرن بالصالحية.

غادرت الدفعة الأولى من البعثة الدراسية، وعددها خمسة وأربعين دارساً، في أوائل تشرين الأول (أكتوبر) 1935، أما أنا وزملائي: عباس عبد اللطيف، وعباس كاشف الغطاء، وضياء رحمة الله، وحسن النواب، وفؤاد، فتأخرنا لأمور تتعلق بقبول البعثة وطبيعة التخصص، لذا سافرنا كدفعة ثانية في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها. حينها خففت شركات النقل كثيراً من معاناة الطرق الخارجية، فحسنت ظروف السفر عبر المسافات الطويلة، من التجديد بمقاعد الباص، وتعديل الطريق. ركبنا الباص (النيرن) من الصالحية متوجهين إلى بيروت عبر الطرف الغربي من العراق، مروراً بالفلوجة، الرمادي، الرطبة، ثم سوريا، فكانت الزيارة الأولى لبلاد الشام.

دمشق وبيروت



بيت ركن الدين بلبنان

توقفت ذاكرتي المملوءة من كتاب التاريخ المدرسي إزاء معركة ميسلون، عند وقوف الباص أمام موقع ونصب تذكاري. أثار المكان في نفسي الفضول إلى استكشافه، لعلي أجد أثر بعض ما قرأته عن تلك المدينة، وعن المعركة التي سميت باسمها. كانت دمشق بالنسب إلي سوقاً كبيراً يتوسطه الجامع الأموي. يتصل الجامع بسوق الحميدية الكبير، المحتفظ بمعالمه المعمارية القديمة، وهو شبيه بسوق الشورجة البغدادي في العديد من التفاصيل. تكمن عظمة سوق الحميدية، مثل الأسواق الكبيرة الأخرى، فهو شريان حياة المدينة.

وصلت دمشق حاملاً ذكريات تجارة النسيج والأقمشة بين أولاد العم خزعل وكاظم مكية والسوق الشامي بدمشق وحلب، توجت الصلات، كما أسلفت، بزواج خزعل من فتاة حلبية. كل هذه التفاصيل كانت ماثلة في ذهني، وأنا أكتشف دمشق وما حولها عبر مكوث قصير، لا يسمح وقته بأكثر من استرجاع الذاكرة من علاقات عائلية تجارية أو دروس في التاريخ.

انتهت سفرة باصات النيرن عند محطة دمشق، ومن بعدها استأجرنا سيارة إلى لبنان، ومروراً بالمدن والقرى اللبنانية وصلنا بيروت، وهي المدينة المعروفة عند العراقيين بجمالها ومصحاتها الطبية، ولعلها المرة الأولى التي أرى فيها طبيعة جبلية، حيث سلسلة جبال لبنان. جمعت بيروت، منذ ذلك الزمان، بين الشرق والغرب. كنا في بيروت على موعد مع الباخرة الفرنسية (شامبليون)، وكانت التجربة الأولى في ركوب الباخرة، والسفر عبر البحر الأبيض المتوسط حتى مرسيليا مروراً بموانئ: بور سعيد وجزيرة مالطة حتى فرنسا. وقتها

لم يطرأ على بالي أن حضارة مدن حوض البحر المتوسط ستكون، في ما بعد، موضوع دراستي لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة كامبردج.

جلسنا على طاولة مطعم الباخرة الكبير، يومها كنا لا نجيد استعمال المعالق والسكاكين والمناديل وغيرها من أدوات المائدة، فأخذ زميلنا ضياء رحمه الله يشير إلينا بكيفية استخدام تلك الأدوات، وأدب احتساء الشوربة بهدوء. استمعنا إلى إرشادات ضياء وسط تعليقاتنا الساخرة. فزميلنا ينحدر من عائلة ميسورة، إلى حد ما، وقد درس في مدرسة أميركية، فتهيأت له فرصة التعرف على أجواء المطاعم الغربية، التي لم نعرفها سابقاً. أشارت مراسم خدمة مطعم الباخرة إلى أنه من مطاعم فنادق الدرجة الأولى لهذا التزمنا استعمال الأدوات. بعد الوصول إلى مرسيليا افترق عنا عباس كاشف الغطاء وحسن النواب في طريقهما إلى ألمانيا، حيث بعثتهما الدراسية، أما نحن فأخذنا قطاراً إلى باريس، واستمرت رحلتنا بالقطار إلى كاليه الفرنسية، فالدوفر البريطانية، ومنها إلى لندن، حيث محطة فكتوريا.

الوصول إلى لندن

حال نزولنا محطة فكتوريا سألنا عن تواجد طلبة عراقيين، لنخفف من غربتنا ودهشتنا من المكان والعلاقات الجديدة. فاهتدينا إلى فندق «سان جورج» قريباً من المحطة حيث يقيم الزملاء: طاهر مصطفى، وعبد الرحمن البزاز وعبد الغني الدلي. كان البزاز والدلي متفوقين علينا بالسن والمرحلة الدراسية، فهما خريجا كلية الحقوق ببغداد، ونحن خريجو المدرسة الثانوية. ولعل المرحوم عبد الرحمن البزاز كان الوحيد من بين الجميع مواظباً على أداء الفرائض الدينية، ويسأل عن طبيعة الطعام في المطاعم البريطانية، كي لا يتورط بتناول لحم الخنزير. فأخذنا، بشكل عفوي وبحدود أجواء المرح والسعادة باللقاء، نسميه بالقس، وهو ما توحي به ملامحه وهيئة ملابسه. كذلك سبقنا إلى الدراسة ببريطانيا الزملاء: صالح مهدي حيدر، وجعفر علاوي ومدحت علي مظلوم. درس الأول الاقتصاد في جامعة لندن، حيث تخرج محمد حديد وعبد الكريم الأزري، ودرس الأخيران الهندسة المعمارية، وهي مادة تخصصي نفسها، لذا أصبحت علاقتي بهما مميزة، حيث جمعتنا مدرسة واحدة.

بعد أيام حاولت الابتعاد عن زملائي لكي أتمكن من اللغة الإنكليزية، فسكنت أولاً مع حسن الدجيلي في بيت بمنطقة (Bayswater) في الشارع المعروف بأجور رود، كانت تكلفة المنام مع الفطور خمسة وعشرين شلينك، أي لا تزيد على باوند ونصف أسبوعياً.

الدراسة التحضيرية

بطبيعة الحال، السنة الأولى في الدراسة في بريطانيا، أو أي بلد أجنبي آخر، من أصعب السنوات. فحسب النظام البريطاني أن يمتحن الدارس الأجنبي امتحان البكالوريا البريطانية. كان عمري، آنذاك، لا يتجاوز الحادية والعشرين، لذا انطبق عليَّ من النُّظم الدراسية ما ينطبق على الطالب الإنكليزي، ومنها تقديم امتحان البكالوريا الخاص. فأسرعت الى التسجيل في المدرسة الثانوية (بوليتكنك) بلندن للعام الدراسي 1935ـ 1936.

بعد الالتحاق بالسنة التحضيرية حاولت البحث في عناوين البيوت التي تقبل مساكنة الطلبة الأجانب، يومها تمكنت من الحصول على منام وطعام مع عائلة في منطقة (Fansbury park)، مقابل ستة جنيهات شهرياً. كانت صاحبة البيت طيبة، والسكن مريحاً لولا مشاكسة ولدها غير المحب للأجانب، فوجه إلي يوماً لفظة عنصرية بقوله: «ديرتي عرب»، إلا أن والدته اعتذرت عنه، بعاطفة نبيلة. كان سبب ذلك، تعرفي إلى إحدى نزيلات الدار، ووجود علاقة صداقة معها، كالذهاب معاً إلى السينما، بينما عجز هو عن قيام علاقة مماثلة معها. كنت أصل إلى المدرسة بواسطة باص رقم 73، الذي يربط الشمال بالجنوب حتى فكتوريا، ولا يزال كما هو حتى هذا اليوم.

حاولت يومها أن أزيد في عمري، للاستفادة من فارق العمر في الدراسة، أسوة ببعض زملائي العراقيين، حتى لا ينطبق علي قانون الثانوية البريطانية، لكنني لم أتمكن غير تبديل الشهر، ولم أستفد من ذلك شيئاً. فكان لا بد من تقديم امتحان القبول في الجامعات الشمالية البريطانية مثل ليفربول ومانشستر وغيرهما. كان ولابد أن أقدم امتحان اللغة العربية كأحد الدروس المطلوب تقديمها، وهو

أيضاً يتطلب إمكانية الترجمة، مثل ترجمة نصوص قرآنية أو أدبية. لأجل هذا حاولت التعرف على أسئلة السنين السابقة، والتي ظهر أنها تتكرر في كل امتحان تقريباً. كذلك وبالتعاون مع صديقي حسن الدجيلي أخذت موضوع تاريخ إنكلترا. كان من حسن حظي أن وردت في الامتحان بعض الأسئلة السابقة، وبهذه الطريقة تمكنتُ من النجاح في مادة التاريخ بنيل درجة (DISTINCTION). هذا بالنسبة إلى الدروس الأدبية أو الإنسانية، كما تُعرف أحياناً. أما الدروس العلمية فلم تشغلني دراستها كثيراً، فقد درستها بالثانوية المركزية بالعراق، وقد استغرب بعض أساتذتي من تفوقي بتلك المواد، رغم عدم إجادتي اللغة الإنكليزية.

في امتحان اللغة الإنكليزية، السنة التحضيرية، اخترت من الموضوعات المطروحة في الامتحان أن أكتب قصة مسرحها حديقة الحيوان بلندن. كان الموضوع عبارة عن محاورة جرت بيني وبين الجمل، محاولاً في ذلك لفت انتباه المدرس الممتحن إلى هويتي واغترابي كغربة هذا الحيوان الصحراوي عن بيئته في الأجواء البريطانية. حاورت الجمل، ولحظتها خطر ببالي شطر بيت أمرئ القيس التالي: «وكل غريب للغريب نسيبُ». ولعلَّ هذا التصرف كان ضرباً من ضروب التحايل، كمحاولة لكسب عاطفة الأستاذ الممتحن وتبديد المخاوف من الامتحان. فالامتحان في مدارسنا العراقية كان محنة حقيقة، يذكر بين أوساط الطلبة العراقيين، للمبالغة، أن نابليون بونابرت كان يخشى قاعة الامتحان أكثر من خشية ساحة الحرب، حيث شدة المراقبة، وقسوة العقوبة، والوعد والوعيد، هذا عندما كنا نمتحن باللغة العربية، فكيف الحال إذا كان الامتحان بلغة أجنبية؟ تمكنتُ من اجتياز الامتحان بنجاح، ساعدني ذلك كثيراً في مواجهة الخوف والتردد، وأعاد لي الثقة بالنفس.

كان امتحان اللغة العربية وترجمة بعض النصوص فرصة لكشف خطأ بعض المستشرقين. ففي أحد الأسئلة وردت عبارة أمير المؤمنين بمعنى (PRINCE)، والأمر بالنسبة إلينا مختلف جداً، فأمير المؤمنين يعني قائد المؤمنين (COMMANDOER)، وليس بالمعنى المعروف لكلمة أمير لديهم. أعجب هذا التعليق الأستاذ الممتحن، فمنحني درجة امتياز. لأن طريقتهم في الامتحان عدم الفصل بين الأسئلة، أي تؤخذ الإجابات ككل، فربما كان جواب على سؤال واحد يُعين في الحصول على درجة النجاح.

كان يوم استلام النتائج، حسب خلفيتنا الدراسية وتقاليدها، يوماً عسيراً، فتجد الطالب قلقاً على جهوده، ومعاناته طوال العام الدراسي، هذا وأنا ببغداد بين الأهل والأصحاب، والامتحان باللغة العربية، فكيف الحال وأنا مغترب ببريطانيا، وأقدم أول امتحان بالإنكليزية؟ وخوفاً من فتح صندوق البريد صباحاً، فالنتائج عادة تبعث بالبريد، كلفت زميلي جعفر علاوي بفتحه، وكانت لحظات ترقب وانتظار ثقيلين حتى أبلغني جعفر بالنجاح بقوله: «دبرتها يا محمد»، رغم أني اعتبرتُ ذلك النجاح من المعجزات. وبهذا تم التأهيل للدراسة الجامعية في جامعة ليفربول.

المدرسة المعمارية بجامعة ليفربول



مع الأصدقاء في السكن الطلابي بمدينة ليفربول (1938)

تركت لندن إلى ليفربول، عند بداية العام الدراسي خريف 1936، أي بعد عام من الوصول الى بريطانيا. كنت الأجنبي العربي الوحيد واسمي محمد بين جميع الطلبة، ففي منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي كان التمييز واضحاً بين الطالب الأجنبي والطالب الإنكليزي. كنت بين معشر طلبة سبقوني في تعرفهم ومستواهم في الفنون والعمارة، بل والتعاطي مع الحياة اليومية والمستوى الجامعي، حاولت قدر الإمكان تجاوز هذه الحواجز، وقد ساعدتني سنة الحياة بلندن، التي أكثرت فيها من ارتياد صالات السينما، والمسارح، وزيارة قاعات المعارض، والحفلات الموسيقية، وصالات رقص الباليه، وما كان يقدم في قاعة البرت هول الكبرى، إضافة إلى التعرف على الأدب الهزلي والأدب الشكسبيري.

إن الجلوس في قاعة المحاضرات الجامعية لأول مرة والاستماع باللغة الإنكليزية ليس بالأمر الهين، لذا كانت الأشهر الأولى عبارة عن تهيئة لفهم كلام المحاضرين. وفي البدء، لم أكن أفهم من المحاضرة غير عنوانها، مع ذلك كنت مواظباً ومستمعاً جيداً، وملاحقاً لشفاه وحركة أيدي المحاضر، كيف ينطق الكلمة وكيف يتعامل معها. كان تمريناً شاقاً يدخل أحياناً اليأس إلى النفس، حتى مرت السنة الأولى، وخلالها أخذ الحاجز اللغوي بالتلاشي يوماً بعد يوم. ولعل تمكني من ذلك كان بفضل العزلة عن المجتمع العربي والعراقي، فالهدف في أول الأمر تحقيق تفوق في اللغة الإنكليزية، ثم اعتدت على ذلك في السنوات التالية. لقد لامني بعض الزملاء على عدم مشاركتي في التجمعات الطلابية العربية، وعدم حضور المناسبات الوطنية والقومية، التي تقوم بها السفارة العراقية بين حين وآخر، متفرغاً تماماً إلى دراستي وهوايتي في الاستطلاع.

كانت محطة القطارات (يوستن) المشهورة هي محطة السفر إلى ليفربول، والشمال البريطاني عموماً. وكنت رغم المسافة الطويلة أتردد إلى لندن بين الحين والآخر ببطاقة مخفضة لمدة يوم واحد، سعرها نصف جنيه فقط. أصل لندن فجراً وأغادرها ليلاً فأكون فجر اليوم التالي في ليفربول، وبذلك أتجنب النوم في لندن. واظبت على زيارة لندن لمشاهدة معرض، أو حضور أمسية ثقافية، كان يصحبني في بعض الأحيان الصديق جعفر علاوي.

كانت ليفربول من مدن شمال إنكلترا الهامة، تختلف أجواؤها عن الأجواء اللندنية، فمجتمعها مجتمع عمالي حيث تتركز الصناعة فيها. وتمتاز كثافة الضباب بسبب مداخن المصانع، إلى جانب شيوع الفقر، الذي يفرض البساطة في التعامل الاجتماعي، وبهذا هي أكثر انفتاحاً قياساً بلندن المحافظة. عموماً كنت أشعر فيها بغربة أقل. ومن جانب أخر، شأن ليفربول شأن المدن البريطانية الأخرى تحفل بمراكزها الترفيهية، وبوجود البارات المتميزة، التي تفتح بأوقات وتغلق بأوقات حسب القوانين. والبار المشهور الذي كنا نلتقي فيه هو بار (بيتر)، إضافة إلى ارتياد بار الجامعة. كان كأس البيرة الكبير آنذاك بخمسة بنسات فقط.

غير أن أهم ما بليفربول هو مينائها البحري، واختراقها من قبل نهر (Mesry tunnel)، الذي يشبه بعرضه وهيبته شط العرب بالبصرة. كنا نعبر النهر المذكور بالقوارب الشعبية، ثم امتدت تحته قناة عظيمة لمرور السيارات فقط. ومن حواضر ليفربول التاريخية، التي كثيراً ما كنت أتردد إليها، منطقة جيستر (Chester)، ومن أهم مميزاتها إضافة للمعالم التاريخية العريقة، وكاتدرائيتها، شوارعها التي تمتد بطابقين. قاسمني الدراسة والسكن والحياة العامة هناك الزملاء: جعفر علاوي ومدحت علي مظلوم، إضافة إلى محمد علي البغدادي، الذي درس الهندسة المدنية. كان البغدادي الوحيد الذي لا يدخل البارات، ويحاول التعرف إلى صديقة له عن طريق المقاهي، وعلاقة الصداقة ترغمه على شراء النبيذ دون أن يشربه، فكثيراً ما كنا في أيام شحة النقود نزوره لشرب النبيذ بغرفته.

تعرفت إلى جوزفين بين عام 1939ـ1940 حين كنت أسكن في شارع (برنس أفنيو)، وهي فتاة تساكننا الدار نفسها. بدأت العلاقة بسبب تعاطفي معها ضد صاحبة البيت، التي طردتها وحاولت أن تعتدي عليها. تعاطفت معها فدعيتها إلى عشاء خارج البيت، وكانت متزوجة ومنفصلة عن زوجها. ظلت العلاقة معها حوالى السنتين. وبعد تحولي إلى كامبردج قامت بزيارتي هناك، وحصل أن استلمت رسالة لوم من زوجها، الذي لا أعرفه، أنبني فيها على علاقتي معها. ويوماً، بعد فراق، وبعد تعرفي على أم كنعان، لمحت جوزفين في الترامواي، فكان من واجبي أن أحييها وأسأل عن أحوالها. كان ذلك في وقت اعتبرت أم كنعان كل علاقاتي السابقة مجرد ماض، لا أكثر ولا أقل.



مع أم كنعان بليفربول (1940)

مع أم كنعان

كان اللقاء مع أم كنعان بليفربول العام 1942، أثناء حفل الجامعة السنوي في نادي الطلاب، كانت حينها في السنة الجامعية الأخيرة، وأنا في السنة التطبيقية بعد التخرج في المؤسسة الخاصة بتخطيط المدن، التي تميزت فيها مدرسة ليفربول المعمارية. مارغريت أم كنعان كانت في السنة الأخيرة من دراستها للتاريخ الأوروبي، وخصوصاً تاريخ القرون الوسطى منه، وقد نالت جائزة الجامعة لتفوقها في فلسفة التاريخ، وتنحدر من عائلة بريطانية محافظة. كان الحفل الجامعي السنوي حفلاً تعارفياً بين الدارسين في الجامعة. بعد انتهاء الحفل اقترح جماعة من الطلبة، وأغلبهم من العراقيين، اللقاء في أحد النوادي العامة، المجاورة لدار الاوبرا.

بعد هذا اللقاء استمرت لقاءاتنا في أجواء الحياة الطلابية، ويوميات دعوات الأصدقاء، ولقاءات المناسبات الثقافية خارج الجامعة، وخصوصاً صالات السينما والمسارح. كذلك شاركتني في الأسفار اليومية إلى الريف البريطاني بواسطة الدراجات، والرحلات إلى المدن الساحلية، ومنطقة البحيرات بإسكوتلندة. وبعد الانتهاء من السنة السادسة الخاصة بالعمارة والتحاقي بجامعة كامبردج حصلت أم كنعان على وظيفة مدرسة في إحدى المعاهد الدراسية، ومن بعدها تم قبولها في كلية خاصة بالتعليم تابعة لكامبردج، لمدة عام واحد، حصلت بعدها على عمل في معهد بمدينة إيلي المجاورة ذات الكاتدرائية المشهورة، ولا تبعد سوى عشرة كيلومترات عن كامبردج. فكان اللقاء خلال تلك الفترة كل نهاية أسبوع، تأتي وبصحبتها كلبها المحبب إليها. وفي يوم من الأيام استلمت منها برقية تخبرني بخروجه المفاجئ من البيت بلا عودة.

امتدت الدراسة الجامعية المعمارية بجامعة ليفربول (1936-1941). خلالها كانت مخصصات الدراسة ستة عشر جنيهاً فقط، ورغم قلته إلا أنه كان مبلغاً مريحاً لنا، نظهر به بين الطلبة الأجانب بمظهر المتمكنين. فكان التجوال بواسطة الدراجة الهوائية بالنسبة للمناطق القريبة، والسفر بالنسبة للمناطق البعيدة غير مكلف، وللرحلات تأثير كبير في معرفتي وثقافتي.



أمام شواطئ ليفربول (1939)

يوميات ليفربول

من يوميات الحوار في المدرسة المعمارية في جامعة ليفربول ما قدمه أحد رواد الحداثة الأوائل المعماري الفرنسي كوربوزيه، يوم كانت عقلية الحداثة هي السائدة، وكوربوزيه يعد فيلسوف الحداثة. ورد في أقواله الفلسفية أن «البيت آلة سكنية»، أي كيان تكنولوجي فوظيفته هي جماليته. كان السؤال الذي ورد في امتحان التصاميم التعليق على الجملة الآنفة الذكر. في إجابتي عن السؤال، أبديت تأييداً لفكرة كوربوزيه في أن تظهر في هذا الوقت بالذات، لكني أبديت المخاوف من هذا اللفظ ومدلوله، وهل ستساهم الخواطر والذكريات التي تربط الإنسان بسكنه في التكامل العضوي، وهو ما يعنيه الجهاز السكني أو آلة السكن على حد عبارة كوبوزيه؟ كنت أخشى من سوء فهم العبارة، في أن تفهم أنه قصد أن التكنولوجيا وسيلة وغاية، وفي اعتقادي أنها وسيلة لا غاية، فالغاية أكبر من ذلك بكثير، فهي الحس العاطفي، الذي يمثل جزءاً من ذاكرة ويوميات البيت. عموماً، بإمكان الحداثة أن تكون وليدة التراث عبر التفاعل بين الماضي والحاضر. فالبيت من وجهة نظره كيان عضوي، ينتمي إلى الإنسان بأبعاده وحركاته. لقد سررت كثيراً بنتيجة الامتحان بتفوق، الذي كان يتولاه رئيس القسم البروفيسور (BUDDEN) فيما بعد زار صاحب تلك النظرية بغداد، حوالى العام 1955، ضمن دعوة أشهر مخططي المدن من قبل مجلس الإعمار، وقد كلفه المجلس بتصميم مسرح في الهواء الطلق، ربما تحقق جزء منه، كما ألقى وقتها محاضرة في فلسفة العمران، لكن ذلك تم في زمن آخر، تحول فيه عن مدلول نظريته الآنفة الذكر.

في مناسبة أخرى امتعض مني أحد الأساتذة، وكان فرنسي الجنسية، قائلاً لي: كيف تفكر، هل تفكر باللغة العربية أم باللغة الإنكليزية، قالها بأسلوب تهكمي، وقد دفعني ذلك إلى بذل جهود أكبر حتى أتمكن من تجاوز الفارق بالمعارف بيني وبين الطلبة البريطانيين.

تصميم كنيسة

من المشاريع التي طلب منا إنجازها تصميم مشروع لكنيسة في قرية من قرى أطراف ليفربول. كانت فرصة لي أن أقضي ساعات طويلة في قاعة المكتبة، أبحث في أعداد خاصة من مجلة معمارية ألمانية، فيها عدد خاص حول كنائس المدن والقرى، وربما لم تتح هذه الفرصة لبقية الطلبة، لذا تمكنت من المنافسة في مثل هذا المشروع، وأنا المسلم العراقي.

انصب اهتمامي على الكنائس الصغيرة، لأنها أبراج تعطي القرية عمودية تقطع رتابة الأفقية فيها، وهذا لا يختلف بمكان عن دور منارة الجامع المسجد في القرية أو المدينة الإسلامية. رسمت تخطيطات المشروع، وظهرت فيه ميول تراثية ذات طابع أوروبي. حاز

المشروع على موافقة المحكمين، فهو الوحيد، من بين المشاريع الأخرى، الذي حاز درجة (M) وهي أعلى درجة، ومشروعان آخران حصلا على درجة (C) . وقد قام الأستاذ آيدن بواجبه في شرح التصميم، وتبيان إيجابياته وسلبياته.

يوميات الحرب العظمى

كانت السنة الثالثة من الدراسة المعمارية 1939 بداية الحرب العالمية الثانية، فقطع أغلب الزملاء البريطانيين دراستهم والتحقوا بجبهات القتال، ولم يبق سوى أربعة طلاب أجانب. ومن الذكريات المؤلمة أن أقمت حفلة وداع لأحد الأصدقاء المقربين مع خطيبته، وكان هو الوداع النهائي فلم يعد بعدها. نتيجة لحالة الطوارئ، التي كنا نعيشها يومياً، قدمتُ طلباً للانتقال إلى جامعة هارفرد الأميركية، بعد أن حصلت على توصية خطية من رئيس القسم المعماري وأستاذ نظرية الفن، الأستاذ بادن، الذي تولى مهام رئاسة القسم خلفاً للأستاذ رايلي، المعروف بحبه للأجانب، وظل على صلة بطلبته، وأذكر أنه حضر الحفلة التنكرية بزي نابليون، وأنا بالزي العربي. أيدت رسالة رئيس القسم أسباب تقديم الطلب، وفعلاً حصلت الموافقة، رغم الظروف الاستثنائية التي كانت تعيشها الجامعات البريطانية.

لكن اللقاء بأحد أساتذتي، من الذين تربطني بهم علاقة طيبة، أقنعني بالاستمرار في جامعة ليفربول، قائلاً: إن فترة الحرب لا تطول، فهي أسابيع وتضع أوزارها. ومن علامات ذلك وصول الجيش الألماني إلى فرنسا واحتلال باريس، ويلوح في الأفق صلح جديد في أوروبا، وتأخذ ألمانيا حقوقها التي حرمت منها منذ معاهدة فرساي. اقتنعت بما ألزمني به أستاذي، فألغيتُ قرار النقل الى هارفرد دون تردد. قال الأستاذ بادن: الحرب ستضع أوزارها في غضون أسابيع، رغم أن بريطانيا خسرت اسطولها الجوي، ولم يبق فيها سوى ست عشرة طائرة حربية، كما تداولت الأخبار ذلك. انحسر عدد الطلبة الدارسين معي إلى زميل تركي، وزميلين مصريين، وآخر بريطاني كانت عقيدته ضد الحرب.

قادني الفضول إلى الاستفسار من الزميل البريطاني الذي بيننا، حول سبب تخلفه عن أداء الخدمة العسكرية، وكيف استطاع إقناع مكتب التجنيد بذلك؟ فأشار إلى أن قانون الخدمة العسكرية يُجيز للبريطاني التخلف عن أداء الخدمة في حال رفضه لقتل إنسان، أو عدم اطمئنانه من إيقاع أذى بالآخرين. ففي تلك الحال يتمكن من الاحتفاظ بعمله أو دراسته، أو يُسند إليه عمل بعيد عن المواجهة في خطوط النار، يتم ذلك عبر فحص طبي نفسي دقيق. لكن اللافت للنظر أن الذين كانوا يطلبون الإعفاء من الخدمة العسكرية، من البريطانيين، عدد قليل جداً. فعلى سبيل المثال لا الحصر أن المتخلفين من زملائنا كانوا اثنين أو ثلاثة فقط، أحدهم كان معوقاً. كذلك كانت مشاركة الطالبات ملحوظة في الحرب، وخصوصاً في أعمال الإسعافات، والإرشاد، والتمريض.

لم أتبع صفارات الإنذار، ففي ظروف القصف العنيف كان المفروض اللجوء إلى الملاجئ، وعدم المكوث في غرف ذات شبابيك زجاجية، وحذراً من تطاير الزجاج كنا نضع عليه أشرطة لاصقة. وفي ساعات الليل لا أثر للضوء في البيت أو الشارع، فحتى السيارات تُستخدم لها طريقة خاصة لحجب الضوء عن الرؤية الجوية، وحتى المدخنين لا يسمح لهم بإشعال السكائر ليلاً.

كان من أهم الأعمال التي ساهمت فيها كمواطن أجنبي، أوان فترة الحرب، تولي الحراسة الليلية، فغالباً ما أقوم بواجبي مع زميل صيني. ومن مهام الحراسة، مراقبة تفجير قنابل المولتوف اليدوية المشهورة، التي تسبب الحرائق في البيوت أو الأماكن العامة. ومن المصادفات النادرة أن ألتقي بالزميل الصيني نفسه بعد غياب أربعين عاماً، عند زيارتي للصين في أوائل الثمانينيات ضمن وفد من مؤسسة الآغا خان، وقد عدنا بالذاكرة إلى يوميات الدراسة، بشوق وحنين. حدث القصف الجوي لمدة أربعة أيام متواصلة، وكان مركزاً على مدينة ليفربول، لأنها مدينة صناعية هامة، وميناء سفن وبواخر مدنية وعسكرية. ففي ليلة من ليالي القصف الكثيف اضطررنا إلى المكوث في سرداب المطعم حتى الصباح. بعد الخروج إلى الفضاء، أنا وخليل الداغستاني، وعبد الله إحسان كامل، شاهدنا مشاهد الخراب والتدمير التي تركها قصف حوالى أربعمائة غارة جوية. أما التغذية فكانت أثناء فترة الحرب محدودة بمواد معينة، ومقننة جداً، فعلى سبيل المثال كان استهلاك الشخص الواحد من البيض بيضة واحدة في الأسبوع، وعلى هذا يُقاس تقنين المواد الأخرى.

الأطروحة الجامعية

تناولت في الفصل الأخير من أطروحتي تخطيط مركز ليفربول، الذي أصابه ما أصابه من الخراب، دفعتني تلك المشاهد إلى حسم التفكير في اختيار موضوع الأطروحة الجامعية. فقبلها فكرت أن يكون موضوع الأطروحة عمران مدن كردستانية بالعراق، وعنوان الموضوع بدقة هو «تخطيط وتصميم مكان سياحي». لكن قبل أن أحسم موضوع الأطروحة عارضت وزارة المعارف العراقية ذلك، بسبب عدم السماح بالاطلاع على الخرائط الخاصة بتلك المنطقة، التي ستُعتمد في تصميم المشروع. وكما هو معروف فإن الدوائر العراقية كانت تعتبر الخرائط ضمن المحفوظات الوطنية، وهي أسرار عسكرية. وبعد الفشل في ذلك الموضوع فكرتُ أيضاً أن يكون موضوع الأطروحة الجامعية مشروعاً سياحياً بجنوب فرنسا، على البحر المتوسط، لكن مشاهد الخراب كما أشرت سلفاً حسمت الأمر، واخترت لاطروحتي إعادة تصميم مركز ليفربول.

في غضون ذلك، كانت في بريطانيا حركة فاشية وأخرى يسارية، وكانا على خلاف كبير بشأن الحرب في إسبانيا بين الفاشيين واليساريين. فالحركة اليسارية كانت مؤيدة بشدة للجمهورية الإسبانية، والحركة الأخرى كانت مؤيدة بشدة للحكم الفاشي. كنت أستقصي تفاصيل ذلك الصراع من البروفسور الشاب (هولفرد) الذي كان يسارياً، ومن المبدعين المعماريين في بريطانيا، فهو من أهم الأساتذة في التخطيط العمراني. وقتها، قادني حب المعرفة للدخول مع جماعة من الأصدقاء، إلى مجمع الفاشيين، من الذين كانوا يرتدون القمصان السوداء، وكانوا يتظاهرون بصخب، لكنهم شعروا بغربتي عنهم فطردونا بعنف.

بعد فراق طويل عن الوطن، لم يحصل أن مارسنا عاداتنا في مناسبات الأعياد وغيرها، وكنا ننتظر العودة، حتى تعود المياه إلى مجاريها. فحصل أن زملاء يمنيين من الدارسين في الجامعات البريطانية، وأفراد من الجالية اليمنية، قدموا لنا دعوة للمشاركة في احتفالهم بعيد الأضحى. فكانت مناسبة غير عادية، فقد تجاوزوا نظام التقنين وأحضروا ذبيحة كاملة، حصلوا عليها بحجة العقيدة الدينية، وما تفرضه من تقديم الأضاحي. ومعلوم ان نظام التقنين لا يسمح للفرد الواحد بأكثر من ربع كيلوغرام من اللحم في الاسبوع.

بعد إنهاء الدراسة الجامعية طلبتُ من الدولة العراقية أن أواصل الدراسة لعام آخر (1941-1942)، في تخصص تخطيط المدن. وقد كنتُ على بينة من أمر هذا التخصص، لأني عرفته عن كثب من خلال تعرفي على البيئة العمرانية البريطانية بداية بالاستيطان القروي خلال الرحلات الاستطلاعية بين المدن والقرى. لذا وددت الاستفادة من ذلك في مهام دراسية، فمن المعروف أن الدراسة المعمارية ليست دراسة تقنية، بقدر ما ترتبط بالدراسة الاجتماعية والاقتصادية والبيئة الجغرافية، وهي السنة التي تعرفت فيها إلى مارغريت (أم كنعان) كما تقدم ذكر ذلك.

الانتظار في باكستن

قررت الحكومة العراقية، في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، عودة الطلبة الدارسين في الجامعات البريطانية كافة، وأعلنت السفارة العراقية عن ضرورة تجمع الطلبة في منطقة آمنة من القصف الجوي، واتفق أن يكون التجمع في مدينة (باكستن) في مقاطعة (ويلز). تجمعنا في فندق من فنادق المدينة، ننتظر تعاليم السفارة العراقية لموعد السفر، على أمل أن تمر سفينة ما على الموانئ البريطانية تنقلنا إلى بيروت، أو أقرب ميناء تصل إليه، نستطيع منه الوصول إلى العراق. واستمر الانتظار عدة شهور، ولم تأت تعاليم ولم ترس سفينة!

كنا تجمعاً غير متجانس فكرياً وسياسياً، فبيننا مختلف الاتجاهات والميول، وما يترتب على ذلك من موقف من الحرب الدائرة، والميل إلى قطب وآخر. وبما أنه ليس هناك ما يشغل وقتنا فكان النقاش يدور بيننا بانفعال وتفاعل مع الأحداث، تزداد حمية النقاش كلما زادت وتيرة الحرب، حتى كنا ظاهرة ملحوظة من قبل أهالي مدينة (باكستن)، وسلطاتها المحلية. فبسببنا كثرت الفوضى في تلك المدينة الهادئة، لقد أزعجنا سكانها بصخبنا، فليس لدينا عمل غير التسكع، حتى مللنا المدينة وملتنا.



جامعة كامبريدج

إلى كامبردج

من تقاليد هذه الجامعة العريقة، التي يزيد تاريخها على سبعة قرون في القبول، أن يسبق الانتساب إليها القبول في إحدى كليات الجامعة نفسها، فكان اختياري كلية (كينزكولج) وهي في المنزلة الأولى مع (TRINITY). قدمتُ الطلب إلى الكلية المذكورة مشفوعاً بالتوصيات المطلوبة في القبول، والتي كان من السهل الحصول عليها من قسم الدراسات المعمارية والتخطيط بجامعة ليفربول. شجعني سبق انتماء الصديق عباس عبد اللطيف إلى كامبردج، مع أنه منتسب إلى دراسات الهندسة الميكانيكة، التي لم يكملها بعد أن فضل العودة إلى العراق على الدراسة. وعُيِّنَ بعد عودته رئيساً لقسم هندسة الميكانيك بجامعة بغداد، في الوقت الذي كنت رئيساً لقسم الدراسة المعمارية.

قابلت المسؤول عن الدراسات العليا، وهو المستر (شو) أحد أساتذة علم الاقتصاد، الذي احتل منزلة المفكر الاقتصادي (كينز) بكامبردج. وكان السؤال لماذا اخترت جامعة كمبردج، دون غيرها من الجامعات البريطانية؟ ولماذا كلية (كينك كولج)؟ وأخيراً، ما هو مصدر التموين؟ أشرت في جوابي إلى أن القبول في هذا الصرح العلمي العريق فرصة ينتظرها كل طالب علم، وبالنسبة إلي تتمثل فيها تقاليدنا العلمية الموروثة، وهي محاولة لاستمرارية ذلك الأثر، كما هو الحال في مدارس النجف وحوزتها العلمية، ومن الأماني أن تتاح لي فرصة الدراسة في هذه المدينة الجامعية والإفادة من معطياتها العلمية والتربوية المتراكمة. أما سبب اختياري الدراسة في كلية (كينك كولج) فبررته بوجود مَنْ سبقني إليها من العراقيين، مثل طارق العسكري، ابن رئيس الوزراء الأسبق جعفر العسكري وابن أخت نوري السعيد، وكان يدرس دراسة جامعية، وتم قبوله بفعل مكانة الأسرة، وخلفية والده في العمل كدبلوماسي كبير في لندن.

عمران توفيق

بعد الموافقة على قبولي في كامبردج، تبقى الحاجة إلى موافقة الحكومة العراقية على تبني تكلفة الدراسة، وهنا يأتي دور الصديق وابن المحلة عمران توفيق، الدارس في جامعة ليفربول، في التقليل من مخاوفي في تأمين تكلفة الدراسة. فما إن عرف بقبولي وترددي من ناحية التكلفة، حتى قال لي: اذهب وادرس، حتى وإن لم توافق الحكومة على تبني دراستك، فسأدفع لك نصف مخصصاتي الدراسية. وفعلاً، وفى بوعده وأخذ يرسل لي ما وعدني به. وطلبت بدوري من أخي عبد العزيز، بعد بيع بيتنا بمحلة صبابيغ الآل، حصتي منه، فقد ظل هو وكيلي طوال غيابي. لكن ما هي إلا فترة حتى وافقت الحكومة العراقية على تحمل تكلفة الدراسة، بعد مناقشات في البرلمان. وقد لعب في إصدار هذه الموافقة السيد مهدي المنتفكي دوراً ملحوظاً.



مع مدحت الحاج سري وعمران توفيق
بيبجي في الطريق إلى الموصول
(1963)

كان موقف عمران توفيق صدى لعلاقة قديمة، فهو ابن صديقة والدتي، وابن محلتي. انحدر من بيت فقير، وعاش يتيم الأب، معتمداً على عمل والدته ببيتها كخياطة، حتى قوي عوده فعمل بقالاً في السوق عند أحد أقاربه. قُبل بعدها في بعثة دراسية بمستوى المعاهد الفنية في مؤسسة «لافبره»، ووصل بريطانيا بعدي بمدة طويلة. كان يسارياً لامعاً، ومطلعاً جيداً على الفكر الشيوعي، ولديه مكتبة عامرة في هذا المجال. حصل على وظيفة هامة في منطقة الأشغال الوسطى، لكنه أحيل بسبب هويته اليسارية إلى المحاكمة في العهد الملكي.كنا نتبادل الحوار حول مفاهيم الحداثة والتراث، وما أخذنا من الماضي المجيد من دون تحليل ونقد. كان الكثيرون من الأصدقاء يشعرون يومها بالانتماء إلى اليسار، أو يدعون الانتماء إليه، ولم يكن اليسار مقتصراً على الحزب الشيوعي، بل الكثير من اليساريين انتسب إلى الحزب الوطني الديمقراطي.

كانت سنوات الدراسة في كامبردج سنوات بحث انفرادي، داخل الكيان الجامعي وقاعات المكتبات. وجدت هناك ما يتناسب مع طموحي في دراسة العمارة والعمران. فخلال تلك المدة لم أكن مقيداً بمواعيد سوى مواعيد لقاء المشرف العلمي إن تطلب ذلك، والأخير بدوره لا يُتابع معي كل ما أكتبه أو أفكر فيه، بل كان يتدخل عند الحاجة فقط.

أطروحة الدكتوراه في كامبردج

جاء اختياري لموضوع أطروحتي في العمارة والعمران، حوض البحر الأبيض المتوسط،البيئة العربية في جنوب وشرق الحوض، وتأثير المناخ والبيئة الجغرافية في خصوصيتها. فهذا المكان نقطة اللقاء بين حضارتي الشرق والغرب، هذا هو المتعارف عليه في تسمية الشمال والجنوب، فالروابط بينهما تمر عبر البحر المتوسط. كانت حضارة الرومان ومن بعدها حضارة اليونان، من عمارة وفلسفة وعلوم أخرى، تُمثل القسم الشمالي من المعمورة. أما القسم الجنوبي الآسيوي والأفريقي من معمورتنا فمثلته الحضارة الساسانية، ومن بعدها الإسلامية، وذلك بحدود ما تتسع له ضفاف البحر المتوسط. ولا شك في أن من مكونات حضارة هذا المكان الأساسية، وعالمها المتمدن، هو ما انساب إليها من حضارة وتمدن من وادي النيل ووادي الرافدين.

تولت القاهرة الفاطمية في وادي النيل مكانة بغداد العباسية في وادي الرافدين، ونفوذها وامتدادها الحضاري، وما تحمله من تزاوج بين الفن القبطي والفن الإسلامي، كما تُشير إلى ذلك الرسوم من التركة الفاطمية بوضوح. كذلك ما تولاه البحر المتوسط في نقل الثقافة

بين ضفتيه الشمالية حيث إيطاليا واليونان، والجنوبية حيث مصر والشام والعراق. كانت الضفة الجنوبية عامرة في الفكر والفن والثقافة، لكن الهزات السياسية التي تعرضت لها المنطقة أدت إلى التقوقع في الميادين المادية والروحية. فبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على الحكم بالقاهرة لم يبق الجامع الأزهر مكاناً للإشعاع العلمي والفكري التنويري، بقدر ما أصبح مكاناً يصدر الفتاوى ضد العلم والعلماء.

يدعونا التقويم المعنوي لقراءة الماضي من أجل مستقبل أفضل إلى نقد المفاهيم الفوقية، وفشل المركز السلطوي في الحفاظ على مظاهر التمدن، واستمراريتها مثلما حصل مع القاهرة وضياع ازدهارها، ونقد طغيان الحاكم على حساب المجتمع المدني، أكان ذلك بالقاهرة أو دمشق أو بغداد، مع الأخذ بالحسبان الاختلاف بين الأزمنة، فنحن لا نتكلم عن المجتمع المدني المعاصر وإنما نتكلم عن التضييق على الفنون والأفكار الرحبة قياساً بزمانها.

كان بودي تقديم مشروع خاص بالاستيطان في وادي نهر العاصي اللبناني، لكن أطروحة الدكتوراه لا تتطلب اقتراح حلول خاصة، بقدر ما تعطي منهجاً فكرياً يتسم بالشمولية أو العمومية. وفي مثل هذه الدراسة تطرقت إلى مهام الاستيطان الدائم وحداثة الاحتلال، ومنها الاحتلال الصهيوني، وهوية فلسطين الثابتة. بدأ ذلك الاستيطان من الأربعينيات، وكانت مجلة تخطيط المدن قد نشرت مخططات المستوطنات الإسرائيلية الجديدة، بتسميتها المستوطنات الزراعية، وتخص إعمار الأرض الصحراوية. كان ذلك عبارة عن إعلان إعلامي أشار إلى طابعه غير السياسي. لقد أثار تعليقي على ذلك الاستيطان الاستياء، فكان السؤال في المناقشة: ما هو نقدك لهذه المستوطنات، هل كان بدافع عاطفي شخصي أم بدافع قومي؟

كان من مبررات نقدي لذلك الاستيطان أنه لم يكن منسجماً مع البيئة، فهو استيطان مستورد، لا يمتلك الخصوصية الحضارية الضاربة بالقِدَم في ذلك المكان، تلك الخصوصية التي تتمثل في القرية الفلسطينية، والواحة العربية، كذلك لم يكن منسجماً مع خصوصية العمران المدني الفلسطيني أو الشامي بشكل عام، وتراث القرون القديمة. يتضح ذلك بمجرد الاطلاع على بعض رسوم بيئة ذلك العمران، التي ظهرت في مجلدات رسوم ديفيد روبرت المشهورة، بعد الاطلاع عليها في مكتبة فكتوريا.

بعد هذا الإيضاح أعود إلى جواب السؤال السابق، الذي لم يكن عاطفياً ولا قومياً بقدر ما كان إنسانياً، أتذكره بالآتي: إن ذلك الاستيطان هو استحواذ على أرض الغير، ولا يمتلك الهوية والخصوصية بما يجعله منسجماً مع المكان، ثم لماذا يحدث ذلك، وما هي الدوافع الإنسانية له. ما حاولت توضيحه في إجابتي، أن لا وجود لحضارة يهودية خاصة بالمنطقة، بقدر ما هي جزء من تراث المنطقة يهودياً وإسلامياً ومسيحياً.

ربما أثار اعتبار الكتابين السماويين، القرآن والكتاب المقدس، من مصادر أطروحتي، استغرابَ البعض في أن تدخل الكتب الدينية في موضوع عمراني. الحقيقة، أن الكتابين أشارا إلى المسرح الجغرافي نفسه، الذي هو موضوع الدراسة. فهناك آيات عديدة تتحدث عن المكان ومعطياته بشكل عام، وخصوصاً ما يتعلق ببيئة حوض البحر الأبيض المتوسط. فقد وردت مفردة الظل في أكثر من آية، وكذلك الماء والسماء والنخيل والأعناب، وهذا أيضاً ما تحدث عنه الكتاب المقدس. تبدو الخصوصية الشرق أوسطية واضحة في النصوص المقدسة، ومن الصعب أن تنتمي إلى بيئة شمالية غربية. لقد عبر الكتاب المقدس عن مفردات من صميم حوض البحر الأبيض المتوسط عند ذكره الزيتونَ والتينَ والنخيلَ. والجنةُ في القرآن عبارة عن ظلال من النخيل تجري تحتها الأنهار. لم تشر تلك النصوص إلى الشتاء الأوروبي القارس البرد، ومفرداته من موقد وجلوس في بيوت محجوبة عن الفضاء، مثل إشارتها إلى الطرف الجنوبي من حوض البحر الأبيض المتوسط.

وبالمقارنة مع الرسوم والمنمنمات في الفن الإسلامي، أو حتى الفن البيزنطي المجاور للمنطقة، نُلاحظ أن المجتمع في يومياته وفي جوانبه المختلفة، يعبّر عن تلك الفنون أصدق تعبير. كذلك عبرت مفردات الجنة الموعودة عن بيئة جغرافية، أرضاً وسماءً وأنهاراً وأعناباً ونخيلاً، كل هذا موجود في الفضاء الشرقي، ونتعامل معه بشكل يومي، من خلال المفردات التي تزخر بها طبيعة الشرق، أو طبيعة منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بالذات. كان اعتبار الكتب المقدسة من مصادر الأطروحة فرصةً لإعادة قراءة النصوص القرآنية والكتابية، بلغة مجردة بعيداً عن مفهومها القاموسي. عموماً، ساعدتني الدراسة بجامعة كمبردج على العودة إلى مفردات العمران في المدينة والمبنى، واستيعاب معارف جديدة، بمنظار العلاقة الجدلية بين التراث والمعاصرة، عبر الجدل بين الثوابت والمتغيرات.

يوميات كامبردج

كان سكني الجامعي على بُعد أمتار من بناية مكتبة الجامعة الكبيرة، التي تُعدّ من أهم المكتبات العالمية بوفرة مصادرها. فقد ظلت تلك المكتبة على وضعها برغم شدة وطأة الحرب على المدن البريطانية، ومنها مدينة كمبردج، بينما تشتّت محتويات مكتبة المتحف البريطاني بين أماكن عدة من أجل الحفاظ عليها.

ومن تقاليد حياة المدينة الجامعة التزام اللباس الجامعي المهيب، الذي تظهر عليه وجاهة العلم، ومكانة الانتماء إلى جامعة بحجم كمبردج. فالروب الذي نرتديه، نحن طلبةَ الدراسات العليا، كان أطول من الروب المخصص للطلبة الجامعيين. وأن يجوز لنا السير على الطرق واجتياز الساحات الوسطية المغطاة بالثيل، وهذا ما لا يُسمح به للطلبة العاديين، كذلك يسمح لنا بأن نسير وندخل أي محاضرة، أو ندوة، أو مكتبة، فحقوقنا هي حقوق الأساتذة نفسها.

اعتدت حضور محاضرات عدد من الأساتذة المعروفين في مجالهم العلمي، مثل محاضرات البروفسور هارلدلاسكي، أحد اللامعين في تاريخ الفلسفة، ومحاضرات الفيلسوف برتراند راسل في الفلسفة، إضافة إلى محاضرات أساتذة الفن والجغرافيا. كان البرفسور شيبرد عميد الكلية التي انتسب إليها كينز كولج، شخصية محبوبة. شعره الأبيض الكثيف يوحي بالوقار والثقة، وكان من المتفوقين في مادة الأدب الإنكليزي. وكنت أقصد محاضراته برغم بعدي من موضوع الأدب، حيث كانت حيوية المحاضر ومعنوية الموضوع تجذبانني إلى المحاضرة، فهي عبارة عن عرض مسرحي حي، فحصل أن ترك المُحاضر منصة المحاضرة، وصعد فوق المنضدة مواصلاً محاضرته، وكأنه يقدم مشهداً مسرحياً أمام الطلبة.

ومن الأساتذة المعروفين أيضاً مستر بيفس: مدير إدارة الكلية. كان محسوباً على الفكر اليساري، في وقت كان لايزال فيه لليسار والفكر الاشتراكي نفوذ بين الطلبة. وإضافة إلى إدارة الكلية كان يشارك في مسرحيات شكسبير، على اعتبار أن ذلك الدور جزء من دراسة الآداب الكلاسيكية بالجامعة. كان أساتذة الأدب يشاركون في إخراج وتمثيل المسرحيات التي تتولاها الجامعة، ذلك لصلة مادة الأدب بالفن المسرحي.

كان بيفس يسارياً أيضاً، يساعده وظيفياً (المستر شوب، مرشدي الخاص، ويميل إلى الفكر الرأسمالي، وخصوصاً إلى فكر اللورد كينز الاقتصادي الإنكليزي المعروف. ولعل تلك ظاهرة من ظواهر الليبرالية الإنكليزية. كان ثمة تفاعل بين اليسار واليمين في المجتمع الإنكليزي، فما أن يبدأ اليمين بطرح الفكرة حتى يظهر اليسار معارضاً. وانعكس هذا الصراع السلمي واضحاً في عمل الجمعية الطلابية في الجامعة، وفي يوميات برلمان الجامعة، الذي يبدو كأنه نموذج مصغر عن البرلمان البريطاني.

كانت أيضاً ميول الأب وبرنيس، وهو أسقف من أساقفة كانتربري، يسارية. ومما أتذكره حول الأسقف المهيب الجانب، الذي جمع بمهارة بين يساريته وانتمائه إلى سلك الأساقفة، أنه ألقى محاضرة حول روسيا الاشتراكية في قاعة مدينة كامبردج، بعد زيارته موسكو. ومن جملة ما قاله إنه لا مانع لديه في أن تدرس ابنته في جامعة موسكو، جاء ذلك رداً على أسئلة الحاضرين.

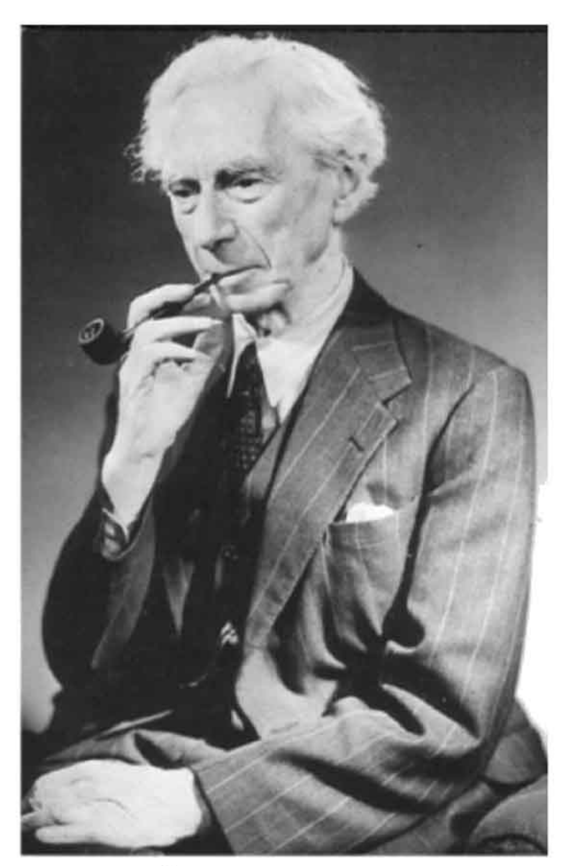
ومن مزايا الدراسة الجامعية في كمبردج، العلاقة المباشرة بين الطلبة والأساتذة، لهذا كنت أتردد على المستر روبتسن، وهو صاحب مكتبة شخصية عامرة كماً ونوعاً، اختص في علوم العمارة الإغريقية والرومانية. تحدثت كثيراً معه حول تاريخ العمارة الإسلامية وحاضرها، وكيف لم تأخذ مكانتها الحضارية في واقع المدن الإسلامية.

ومن المصادفة أن يكون البروفسور لورانس، شقيق تي. أي. لورانس، الشخصية المثيرة للجدل والمعروف بلورانس العرب، أحد الممتحنين، أو المناقشين لأطروحتي، باعتباره أستاذاً في الدراسات الكلاسيكية، التي تقترن بتاريخ الفنين اليوناني والروماني في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد تمحور الحوار معه بحكم دور أخيه في الجزيرة العربية حول ثورة العرب ضد الحكم العثماني.

أعلام الأساتذة في كامبردج

كان من أعلام الاساتذة عميد كلية ترينتي، البروفسور تراتيليون، وهو من الأسر العلمية السياسية المعروفة ببريطانيا. أُعجبت بكتابه «التاريخ الاجتماعي البريطاني»، الذي أصدره في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، ويومئذ كان حدثاً هاماً لما قدمه من دراسة

اجتماعية، وكيف يقرأ التاريخ كعلم في الاجتماع. فالتاريخ، حسب ما ذهب إليه الكتاب، لم يكن تاريخاً لملوك وأمراء، ويوميات حروب فقط، بل التاريخ هو تاريخ الناس المبدعين في شتى المجالات.



برتلاند رسل

كان الأقرب إلي من بين الأساتذة، إلى حد ما، هو البرفسور المرشد ريجادرسون، وهو من مشاهير المعماريين والمؤلفين في العمارة الكلاسيكية، وقد تضمن كتابه فصلاً خاصاً بالعمارة الإسلامية، كتبه بمشاركة الأستاذ اليوناني كورمبارو. كان رئيساً لقسم العمارة بجامعة لندن، وقدم إلى كمبردج بصحبة قسمه الذي انتقل مع ما انتقل من أقسام كليات جامعة لندن أثناء الحرب العظمى، بعيداً عن القصف الجوي المركّز على لندن. أصبح البروفسور ريجادرسون مشرفاً على أطروحتي في ما بعد، ولم تسمح الظروف بالعلاقة معه بأكثر من جلسات الشاي والحوار العام. كان يشجعني معنوياً فقط، فلم أشعر منه بأكثر من ذلك، وبهذا ظل موضوع أطروحتي يعتمد على جهودي الشخصية أولاً وأخيراً، وما توفره المكتبة من ذخائر المصادر. وعلى الرغم مما تحويه مكتبة جامعة كمبردج من مصادر كنت أضطر بين الحين والآخر إلى زيارة مكتبة جامعة أكسفورد، بحثاً عن المصادر المعمارية التي تعود إلى القرون الوسطى.

لم ينحصر اهتمامي بمحاضرات الدراسات المعمارية، فكثيراً ما حرصت على حضور محاضرات البروفسور (هارلدلاسكي) في تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي، التي تُقام عادة يوم السبت، وهو من أساتذة جامعة لندن أيضاً. كان يحضرها عدد كبير من الطلبة والمهتمين. يُعدّ هارلدلاسكي من كبار شخصيات الفكر السياسي الليبرالي. إلى جانب التدريس كان محرراً في مجلة (ستيتمنت) المشهورة آنذاك باتجاهها اليساري.

لقد ساعدتني محاضراته بالتعرف على عقلية الفكر السياسي الغربي، من فلسفة أرسطو طاليس إلى فلسفة جان جاك روسو، وهيغل، حتى الفلاسفة الآخرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وما يتعلق من ذلك بالعمارة والعمران. لم يكن (هارلد) محاضراً عادياً، إنما كان مبدعاً في موضوعه، يتكلم وكأنه على خشبة مسرح، ويمتلك طريقة شيقة ومثيرة في الحوار. لاحظت أن محاضراته، في تاريخ الفكر السياسي، كانت خالية من أية إشارة إلى تاريخ الفكر الشرقي، بما فيه الفكر الإسلامي، أو من التاريخ الرافديني القديم،

وامتداده إلى الصين والهند. شعرت يومها أن هناك تخلفاً في الثقافة الأوروبية رغم إعجابي بالمحاضر الجدير في مادته. أجد هناك شيئاً من التعتيم حول مفهوم الحضارة الإسلامية والأفريقية والآسيوية عموماً.

ساعدني حضور سلسلة محاضرات البروفسور (أريك نيوتن) في تاريخ الفن الأوروبي، والمشفوعة عادة بالسلايدات، أو وسائل إيضاح أخرى في استيعاب مقومات الفن الأوروبي، وللمحاضر كتاب قيم في الموضوع نفسه. وربما كنتُ الوحيد من بين الحاضرين، على حد علمي، من غير المختصين بمادة فن الرسم.

كنت أحضر بين الحين والآخر محاضرات البروفسور (دادلي ستامب) بمادة الجغرافيا، فهي مسرح البيئة العمرانية، ولها الأسبقية في فهم التاريخ. ولعلَّ الحضور إلى محاضرات الجغرافيا كان تعويضاً عن فشلي في هذه المادة المذكورة حين درستها لأول مرة في الصف الخامس الابتدائي، في مدرسة العوينة ببغداد، وكان معلم المادة إبراهيم شوكت. لم أتوقف عند ذلك بل أدخلت تدريس الجغرافيا إلى قسم العمارة في ما بعد ببغداد. وحصل أن طلبتُ من قسم الجغرافيا في كلية الآداب أن ينسبوا لنا مدرساً في هذا المجال، ومن حسن الصدف أن يكون الأستاذ إبراهيم شوكت رئيساً في ذلك القسم، وفي الوقت نفسه كان أميناً عاماً للجامعة. اعترض أول الأمر على طلبي الغريب بالنسبة إليه، وبعد محادثات طويلة اقتنع بوجهة نظر تلميذه السابق، ولم يفتني تذكيره بفشلي في مادة الجغرافيا.

كان الفيلسوف (برتراند راسل)، أحد أعلام كامبردج، ورعاً ومهيوباً، إلى جانب تواضع شخصي، فهو من صنف العلماء الكبار. كنت أحضر محاضراته باستمرار، وكثيراً ما كنا نلتقي معه في مقهى (دورثي كافيه). كان له موقف جميل من قضايا حقوق الإنسان، ومنها حقوق الإنسان بالعراق، وللجمعية المؤسسة لمشروع جامعة الكوفة رسائل متبادلة معه، وكان من المباركين والمشجعين لفكرة المشروع.

كانت لي لقاءات ممتعة مع البروفسور المستشرق (فلاديمير مينورسكي)، الروسي الأصل، وهو شخصية يسارية في الجامعة، سلوكه ومودته للطلبة يدلان على دماثة خلق. يجيد الفارسية، وله دراسات وكتب فيها، وهو أحد الرحالة الذين زاروا كردستان العراق أكثر من مرة، وله دراسات قيمة حول الأديان والمذاهب هناك. ومن جملة ما أتذكر أنه شارك في لجنة ترسيم الحدود بين العراق وإيران. وأشار إلي بمعرفة تلميذه آنذاك الصديق المؤرخ عبد العزيز الدوري.

أخيراً كان من أعلام كامبردج البروفسور (برنالد لويس)، المستشرق اليهودي المعروف، صاحب المؤلفات والاختصاص في التاريخ العربي، وخصوصاً التاريخ السياسي منه، لم تؤثر يهوديته على علاقته بالطلبة العرب، بأي حال من الأحوال. جمعتني معه مناسبات حوار عديدة. كان أستاذاً لامعاً، ويُعدّ من الشخصيات والمراجع الهامة في المجال الاستشراقي، وله كتابات في التاريخ العثماني بشكل خاص. كان آخر لقاء معه بالقاهرة عند حضور مؤتمر دولي في نهاية الخمسينيات، حول المدينة العربية.

الأمير عبد الإله في لندن وكامبردج



الأمير عبد الإله
(1975)

ألقيتُ بدعوة من جامعة لندن محاضرة تحت عنوان «تأثير الحضارة الغربية على الفن العربي والبيئة العربية»، في عام التخرج (1946)، بمناسبة الأسبوع العربي. شارك في هذا الأسبوع سفير المملكة العربية السعودية في لندن الشيخ حافظ وهبة، الذي نشر يومها كتاباً حول الجزيرة العربية. بعدها حضرت دعوة رئيس الجامعة إلى حفلة عشاء شملت السفراء العرب، جلست إلى جانب سفيرنا بلندن شاكر الوادي، جرى الحوار خلالها حول الحفل الذي أقيم للوصي الأمير عبد الإله أثناء زيارته لندن، ودعوة السفارة عدد من العراقيين. أخبرني الوادي بشعور الوصي أني لم أتقدم لتحيته، بعد أن اصطف الآخرون للحفاوة به؟ لفت تصرفي انتباه الوصي، فراح مستفسراً عن السبب. قال لي شاكر الوادي: «إن سيدنا يقول لماذا لم يسلم عليَّ ذلك الشخص أبو لحية»، وكنت ملتحياً.

كان الحضور، في استقبال عبد الإله كبيراً، فمنهم الضباط العراقيون الذين يدرسون في المعاهد والكليات العسكرية، وطلبة الدراسات العليا ببريطانيا. أتذكر كان مكان الحفل الفندق الضخم في شارع بارك لين (الدورجستر)، بوسط لندن. ومن الذين صادفتهم في هذه المناسبة الدكتور ناجي الأصيل مدير الآثار السابق، الذي اشترك في تأسيس كيان على شكل جمعية، تخص العلاقات في مجال الآثار بين العراق وبريطانيا. والدكتور صالح العلي، وقتها كان يحضر أطروحته حول تاريخ مدينة البصرة.

في مناسبة أخرى زار الوصي عبد الإله مدينة كامبردج، وتكرر الموقف في عدم زيارته والترحيب به من قبلي، بعد أن زاره الآخرون إلى مقر إقامته. وعند مراجعة ذلك التصرف، بعد مرور أكثر من خمسين عاماً، لم أجد وراءه غير الإحساس بالتعالي، أو شعور بالتمرد. ما كان يدور بخلدي، وأنا أمتنع عن المشاركة في استقبال الوصي على مَلك العراق وولي عهده أن يؤثر فيَّ مثل هذا الموقف، بعد العودة

إلى بغداد، فلو كنت مثل زملائي، لتوافرت لي فرص مع مؤهلاتي العلمية، من خلالها أستطيع تنفيذ ما فكرتُ فيه من مشاريع لبغداد. لقد انحصرت وظيفتي بمهندس، أو مستشاراً في مديرية البلديات، ليس لها غير تقديم المقترحات.

بعد اجتياز متطلبات التخرج، والفراغ من مراسمه الجامعية، ونيل الشهادة، حاولت البقاء في إنكلترا مدة ما يسمح فيها للمتخرج من الدراسات العليا. لذا طلبتُ من أخي الدكتور عبد العزيز مكية أن يرسل لي مقدار حصتي من بيع البيت، فكانت كافية أن أقضي بها فترة مع خطيبتي في التجوال بين مدن ومقاطعات إنكلترا، ومن جملة رحلاتنا كان السفر إلى إيرلندة، ولم يفتنا زيارة أسواق تلك المدن لشراء الكتب النادرة.

جمع الكتب

كنت أبحث عن العنوانين التي شخصتها من مكتبة جامعة كمبردج، وهي فرصتي الوحيدة في اقتناء الكتب من أسواق الوراقة الإنكليزية، قبل العودة إلى العراق، والدخول في تفاصيل حياة جديدة اجتماعية ووظيفية.

كانت مارغريت تساعدني في هذا المسعى كثيراً، فلها الاهتمام نفسه، وأكثر ما كانت تعتني بشراء كتب الرحلات إلى الشرق، وخصوصاً مذكرات الرحالة إلى العراق. ما زلت أحتفظ بعدد كبير من الكتب التي اشتريتها من مزادات الوراقة ببريطانيا. واقتناء كتب قديمة أخرى من مكتبات مدينة كامبردج.

كان اقتناء الكتب بحد ذاته هواية محببة إلى نفسي، فليس من المعقول أن صاحب العشرين ألف كتاب يكون قد قرأها كاملة. فمن طريف ما اذكر أن طفلة أحد المعارف سألت والدها، بعد أن جالت بنظرها في أرجاء مكتبة ديوان الكوفة وما فيها من مجلدات كبيرة، لمن هذه الكتب؟ قال لها إنها كتب محمد مكية، فسألته، ببراءة، هل قرأها جميعاً؟ واجابتي على هذا التساؤل الذكي هل قرأ أحدنا قاموساً مثل قراءته الكتاب، فالمكتبة مثل القاموس يرجع إليها وقت الحاجة.

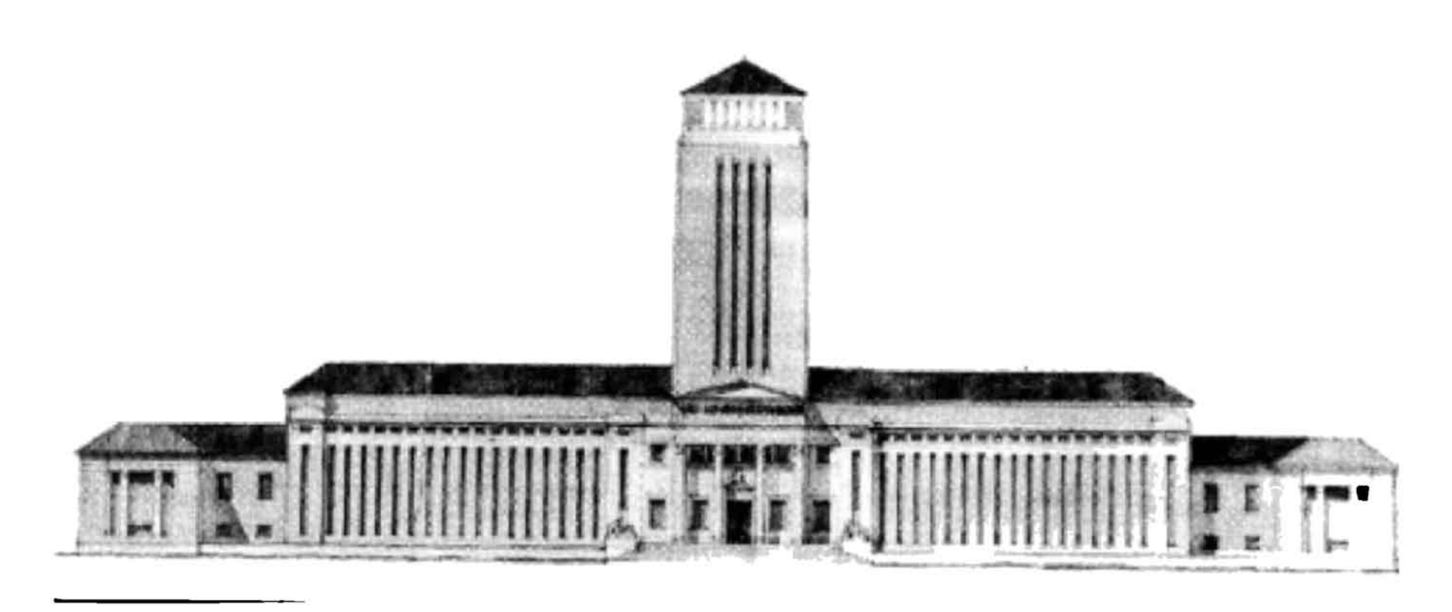
كتبتُ إلى أخي عبد العزيز أن يذهب إلى المتحف العراقي، ويطلع على مواضيع الكتب في مكتبته إذا كان هناك من أعمال السيدة (المس بيل) سكرتيرة المندوب السامي البريطاني في بغداد، التي كتبت كثيراً عن العراق، والمحيط بآثاره إضافة إلى دورها في تأسيس الحكم الملكي، وهي التي وضعت اللبنات الأولى للمتحف المذكور، وواحدة من المستشرقين الذين أفادوا المنطقة بدراساتهم التاريخية، وكانت المؤسسة لدائرة الآثار العراقية.

كانت كتب المستشرقين، أو الرحالة الغربيين، تلفت نظري، فهم أول مَنْ كتبوا عن المنطقة، وعن التراث الإسلامي بشكل عام. فعلى سبيل المثال لا الحصر أحتفظ بكتاب عن بغداد، موثق بالخرائط والمعلومات الدقيقة، يعود لأحد الرحالة في منتصف القرن التاسع عشر، لم يترك كبيرة أو صغيرة إلا ووثقها بمعلومات مفيدة. عموماً، وفرَّ لنا الاستشراق كنوزاً من المعارف عن تاريخ منطقتنا، والتعريف بتراثنا وهويتنا.

لفت نظري المستر شوب مسؤول كتب الشرق الأوسط، في مكتبة (هيفر) في مدينة كامبردج، إلى العناوين التي يجب أن أبحث عنها، والحقيقة كان شوب باحثاً قبل العمل في بيع الكتب، فرحب كثيراً باهتمامي كطالب يريد اقتناء الكتب. وكانت الأسعار حينذاك رخيصة للغاية، قياساً بما هي عليه اليوم. بعدها اقتنيت من شارع (جيرنك كروس)، شارع الكتب القديمة بلندن، مجلدات حملة نابليون كاملة بسعر تسعين جنيهاً فقط. كانت مخزونة في سرداب المكتبة، عندها دعاني صاحب المكتبة إلى النزول والتعرف إلى المجلدات، وهي من المجلدات الكبيرة الحجم. ومن المكتبات التي كنت أتردد إليها باستمرار في لندن، بحثاً عن كتاب نادر، مكتبة (فرانس أدورد)، ومكتبة (كينك اند بول)، ومكتبة (روبشتاين) في شارع المتحف البريطاني. كنت زبوناً معروفاً عند أصحاب هذه المكتبات، واستمرت العلاقة معهم حتى بعد عودتي إلى العراق، ومحاولتي في قسم الدراسات المعمارية بتأسيس مكتبة خاصة.



أثناء الدراسة في كامبردج



برج جامعة كامبردج



كاتدرائية ليفربول

الفصل الثالث: العودة إلى العراق

بعد غياب دام أحد عشر عاماً (1935-1946)، بين لندن وليفربول وكامبردج، عشتُ خلالها عهود أربعة ملوك بريطانيين، وفترة ما قبل الحرب، ثم سني الحرب وما بعدها، ففي أية لحظة يمكن أن تهتدي قنبلة أو صاروخ إلى السكن الطلابي، فلم أكن خارج دائرة الخطر، برغم أنني كنت من المتفرجين، فارقتُ خلالها أصدقاء ذهبوا إلى ساحات القتال دون عودة. وبريطانيا في زمن السلم غيرها في زمن الحرب، فالفرصة كانت متاحة لرؤية تلك الحياة وتفاصيل الزمنين عن قرب. وطرأ على طريق السفر، بين الذهاب إلى بريطانيا والعودة منها، تطور ملحوظ، فقد عدتُ بالطائرة، بعد أن وصلنا إلى لندن 1935 بالسيارة والباخرة والقطار. كان طريق العودة: لندن، روما فالقاهرة.

طريق العودة والتوقف في القاهرة

في طريق العودة مكثت في القاهرة عشرة أيام، رغم شوقي لبغداد والأهل، تلك الحاضرة الفاطمية الرائدة في الفكر الإسلامي، وما شهدته في ذلك العهد من تلاقح الحضارات عبر عالم البحر الأبيض المتوسط. مكثت فيها وكأني أريد إثبات ما قدمته من أفكار في أطروحتي الدراسية، ومقارنة ما اقتبسته من المصادر النظرية مع مشاهد الواقع مباشرة. أعني بالقاهرة الحضارة المصرية، من عهود ما قبل التاريخ إلى الحقبة الفاطمية، المتميزة بتطور الفن والعمارة. في الفترة الفاطمية تولت القاهرة، بعد بغداد، دورها في المد الحضاري، من أهم عناصر تلك الحضارة الفن الإسلامي، ومعطياته الحيوية في العمارة. فمن جملة جولاتي في أرجاء القاهرة زيارة المتحف الإسلامي والمتحف القبطي. كانت إقامتي في فندق شبرا وسط المدينة.

بعد زيارة الأهرامات، والمتحف الكبير، وأسوان، والمناطق السياحية الأخرى المألوفة حرصتُ على زيارة أهم المواقع الأثرية والحضارية في حياة القاهرة الإسلامية وهي: جامعة الأزهر، ومسجد ابن طولون، وحي السيدة زينب. التقيت أثناء تلك الجولات، دون اتفاق مسبق، بزميل الدراسة المعماري علي الحريري، وبالدكتور علي الهاشمي (شقيق الصديق طبيب العيون محمود الهاشمي)، أيام دراسته للآداب في جامعة القاهرة.

اشتريت بعض الفخاريات من العهد الفاطمي، بعضها كان محطماً، كانت معروضة في دكاكين الأنتيك في القاهرة. استغرب أخي عبد العزيز من الفخاريات التي اشتريتها وأطلق عليها اسم (گحوفة) وهي كلمة عراقية دارجة تعني الفخار العتيق والمكسور، هازئاً ببضاعتي الخائبة حسب تعبيره، ففي بغداد لم يعرف سوق لمثل هذه الفخاريات، ماعدا دكان طه سعيد في شارع الرشيد. أنبني عبد العزيز بعصبية حرصاً منه على تدبير حالي بطريقة لائقة كما يعتقد، غير أنه لم يعرف أن تلك الفخاريات أو (الگحوفة) هي تحفيات فاطمية وصلت قيمتها إلى أرقام لا يصدقها العقل ذلك لانتسابها إلى العهد الفاطمي ورقيه الفني.

كانت الطائرة المصرية التي أقلتني إلى بغداد صغيرة الحجم، يراوح عدد ركابها بين الستة إلى ثمانية أشخاص. ومناسبة جميلة أن يكون المطرب العراقي اللامع حضيري أبو عزيز أحد الركاب، وعلى ما يبدو كان في القاهرة للمشاركة في حفل غناء. كان مشهد الوصول إلى مطار بغداد حدثاً في ذاكرة العمر، وما كنتُ أتوقع أن يكون في استقبالي هذا العدد الكبير من أفراد الأسرة والمعارف. شاهدتُ الجمع من بعيد تتقدمه والدتي، والخال عبود الذراع، وأخي عبد العزيز، وقد تمكنوا من الدخول إلى ساحة المطار، بعد أن تجاوزوا المنطقة المحظورة. فما أن هبطت الطائرة، وفتحت الأبواب، اندفع أخي عبد العزيز نحوي. كانت الوالدة تنتظر في المكان المخصص للاستقبال، لا تقوى على إخراج كلمات المودة والدعاء، فقد خنقتها العبرة، وهذا ما لا أتمكن من وصفه.

الوصول إلى مطار المثنى

في عين والدتي لم أزل ذلك الطفل، أحتاج إلى اهتمامها وعنايتها، لذا لم يكن المشهد غريباً عليَّ حينما أخرجت من جيبها عرموطة (كمثرى) ناضجة ودستها في يدي، ونحن في الطريق إلى البيت. لعلَّ حركة والدتي في إخفائها العرموطة، وكانت من عرموط العجم

الشهي، لها علاقة بالماضي، عندما كانت تخفي الطعام لي ولأخي عبد العزيز، عن عيون أخوتي، غير الأشقاء، بعداً من حساسيتهم، وحسد زوجاتهم، المؤذي لها ولوالدي الحاج صالح. أو أنها قصدت عدم إحراجي أمام المستقبلين، وأنا العائد من الدراسة بشهادة عليا، ولحيتي أو حرمة شهر رمضان منعتها من التظاهر بحمل الطعام، فقد وصلت في شهر أغسطس/آب المقترن آنذاك بحلول هذا الشهر، وكان الصيف لاهباً في بغداد. لم يطرأ أيٍ من هذه التساؤلات في بالي لحظة تناول الفاكهة من يد الوالدة، فالتساؤل تأخر كل هذه العقود، فهناك ما كان يشغلني عن كل ذلك، ومنه مسحة الحزن الظاهرة على وجوه أولاد العم الحاج عبد المجيد مكية، ولبسهم الثياب السود، وعدم حلق لحاهم على غير العادة. علمت في ما بعد أن العم عبد المجيد قد فارق الحياة، وهو في مستشفى من مستشفيات القدس، وقد وصل جثمانه قبل أسبوعين من وصولي بغداد.

إضافة إلى الأهل حضر إلى المطار زميل الدراسة في جامعة ليفربول خليل الداغستاني مع زوجته البريطانية. استغرب الخال عبود تبادلي القبلات على الوجه مع زوجة الصديق خليل كما هي العوائد الأوروبية. كان هذا استغرابه الثاني في لحظة وصولي إلى المطار بعد استغرابه الأول من منظر لحيتي، وكانت بالنسبة إلي ضرباً من التمرد وحب الشذوذ والانتساب المهني الجديد كتعبير عن الهوية لا أكثر ولا أقل، أو الرغبة في إثارة اهتمام الآخرين، وكان خالي أول المُثارين.

بغداد بعد غياب

كنتُ أتطلع ببهجة وفرح عبر نوافذ سيارة أخي عبد العزيز المتواضعة إلى الشارع المؤدي إلى الجسر، وهي تشق الطريق إلى داره، أتأمل معالم بغداد، بعد أن تركتها في منتصف الثلاثينيات. رأيتها متأنقة بحلة جديدة من التجديد في واجهات المحلات، وتعبيد الشوارع حديثاً، ولم أرَ ما كنت أراه حتى نهاية العشرينيات، من مشاهد السفر بعربات الخيول بين بغداد وكربلاء والنجف، يوم كان تجمعها في ساحة مجاورة لمحطة سكك الحديد، المعروفة بمحطة غرب بغداد. لفت انتباهي شجرة النخيل، ما زالت تُظلل واجهات البيوت، وأن شق الشوارع لم يخفِ شخوصها بالمكان، وقد سرني كثافة ذلك الشجر في منطقة الصالحية، وإن كان هناك نخيلات مستوردة، حللنَّ بالمكان كضيوف، وعُرفنَّ بالواشنطونيات، لاعتقاد الناس أن مصدرهن واشنطن. أما حديقة الورد التي كنا ندخلها بأربعة فلوس في العشرينيات فقد تحولت إلى منطقة سكنية، بعد تقسيم الأرض إلى وحدات صغيرة من قبل دائرة الأوقاف وعرفت بالعرصات.

كان بيت عبد العزيز والوالدة في منطقة بستان العطار، محلة أبو أقلام، في الكرادة الشرقية، وقد لاحظتُ أن تلك المنطقة مستوطنة من قبل عدد كبير من سكان محلتنا صبابيغ الآل، والدهانة، وسوق الغزل. كان البيت يطل مباشرة على ضفة دجلة، وهو مستأجر من أحمد الزاهد المكتبي. شيدت تلك المنطقة السكنية على أرض كانت كلها بساتين، ولم يبق من تلك البساتين غير بستان صغير يشغل مدخل الشارع، وملحق ببيت الشخصية الحلاوية المعروفة عبد الوهاب مرجان.



أثناء الاستقبال

كان من أصدقاء أخي وجيرانه، الذين عرفتهم يوم وصولي، أسرة البعلي، ومنهم مدير البعثات في وزارة المعارف رؤوف البعلي، وصادق البعلي المتخصص في الزراعة والبستنة، وكان قد أهدى لي مجلدين من كتبه في الزراعة، ومن الجيران أيضاً عدد من العائلات الصديقة المسيحية. لم تستطع زوجة أخي أم نزار المشاركة مع المستقبلين بسبب حملها، لكنها أطلقت على ولدها الجديد إكراماً لعودتي اسم أسعد، بينما حضر طفلاها الآخران أمل ونزار مع المستقبلين، أتذكر شغلتهما والدتي طول الانتظار بأغنية «يا كَمرنا العالي أجئ عمو محمد الغالي». زارني إلى البيت الكثير ممَنْ لم يحضر إلى المطار من الأقرباء والأصدقاء، أكثر مما لو عدت من حج مكة. لقد مرت الأيام الأولى سعيدة جداً، وحافلة بالزوار.

وصول أم كنعان

بعد الانتهاء من الاستقبال العائلي، وتلبية دعوات الأصدقاء الخاصة كان من واجبي زيارة مَنْ كان لهم الفضل في حصولي على البعثة الدراسية، وأول هؤلاء كان صادق البصام، وزير المعارف السابق، والسيد عبد المهدي المنتفكي الذي يعود له الفضل في حصولي على إمكانية إكمال الدراسة في جامعة كامبردج.

استمر مكوثي في بيت عبد العزيز حتى وصول خطيبتي من بريطانيا. وكانت قد قدمت أوراقها إلى السفارة العراقية في لندن، فحصلت على تعاقد للعمل كمدرسة للأدب الإنكليزي بكلية الآداب في بغداد، دون تدخل أو دعوة مني. لكنها تأخرت في بيروت لحوالى شهرين، بسبب إصابات الطاعون التي ظهرت في العراق يومذاك. استعنت بابن عمي كاظم مكية وعلاقاته التجارية هناك لتسهيل إمكانية البقاء في بيروت وتغطية المصاريف، فأخذت لها مبلغاً على أن أسدده له في بغداد. فحاولت تسديد المبلغ مقابل تنازلي عن تعويض شراء السيارة، وتصميم عدة بيوت له، مع إعادة تخطيط وترميم محله التجاري. لكنه لم يكتف بذلك فقدم شكوى ضدي، ذكرني فيها محاميه ناظم حميد، فسبق أن صممت بيت والده بالأعظمية، ولكن بتدخل ابن عمنا قنبر مكية انتهى الأمر بتقدير الدين وتسديده. بعد وصول خطيبتي بغداد أقامت فترة في فندق ساحل دجلة، ثم انتقلنا بعد إتمام عقد الزواج إلى الشقة التي استأجرناها من كاظم مكية، ومكثنا بها مدة عام (1948-1949)، وكانت سكناً ومكتباً، كما سيأتي ذكر ذلك.



أم كنعان (1951)

البحث عن وظيفة

بدأت أول المراجعات الرسمية بشأن الوظيفة بوزارة المعارف، واللقاء مع الوزير، والمدير العام محي الدين يوسف، الذي سبق ودرسني مادة الرياضيات في المتوسطة الشرقية. كان رأي المدير العام أن ألتحق بكلية الهندسة، فقمتُ بزيارتها واللقاء بالعميد. وكان انطباعي عنه أن يكون مدرساً في مدرسة الصنائع بدلاً من عميد كلية تُعد من الكليات العلمية الهامة.

تقدمت بمقترح تأسيس الدراسة المعمارية كقسم مستقل عن أقسام الكلية الأخرى، وإنشاء مرسم خاص، لكن المسؤولين عن كلية الهندسة استغربوا فكرة قيام مرسم معماري. كذلك أخبرتُ وزارة المعارف بأن دراستي واختصاصي لا يسمحان أن أرميهما في كلية الهندسة، مقترحاً مادة معمارية تُضاف إلى مواد السنة الأخيرة من الكلية، كدرس إضافي غير منهجي. حاولت تحقيق ذلك موقتاً، حتى تأتي فرصة قيام قسم خاص بالهندسة المعمارية، أو تتحقق كلية معمارية. لكن ما تحقق لي هو إقناع كلية الهندسة بإضافة ساعتين خاصتين بالدراسة المعمارية في الأسبوع للصف المنتهي. والغريب في الأمر أن مادة العمارة اعتبرت من المواد الإضافية، ولاتدخل في درجات الامتحان!

كانت البداية مع الطلبة مفيدة وممتعة لهم ولي على حد سواء، فقد طلبتُ منهم استغلال العطلة الربيعية في موضوع التعريف بهويتهم انطلاقاً من المدينة التي يقطنونها، وذلك بالتصوير والرسوم والمخططات، وبوسعهم الذهاب إلى دوائر البلديات للاستعانة بالمخططات والمسوحات. شعرتُ بتعاطف الطلبة وحماسهم لإنجاز المهام التي طلبتها منهم. فالغرض هو تأسيس أرشيف مخطط ومصور للمدن العراقية. أملاً أن يستمر العمل في كل سنة دراسية لإنجاز أرشيف شامل للمدن العراقية، ويكون نواة مكتبة عمران وتطوير هامة لهيئة تخطيط كل مدينة، بالإضافة إلى الاهتمام الخاص ببغداد. والفكرة أن يتسع مفهوم المهندس المدني إلى عمران المدن، ويقترب من

المهندس المعماري في مشاريع العمران، وهذا يتطلب العمل الجماعي ومشاركة الاختصاصات كافة، خشية من عزلة المهن بذريعة الاختصاص المنفرد.

إلى جانب تلك الفكرة، كان لوضع الأرشيف أهمية في التعريف بالعمارة المحلية، ومقدمة للتعريف بتاريخ العمارة، وخصوصية العمارة الإسلامية، وفهم العلاقة بين الهندسة المدنية والهندسة المعمارية. فمفهوم المهندس ما زال، يومذاك، مفهوماً شاملاً، وقد لا يفهم المجال الذي يشغله المهندس المعماري. لتوضيح ذلك دعاني عميد كلية الهندسة (فرانكلو رايد) لإلقاء محاضرة في جمعية المهندسين العراقيين، كمقدمة لتبني الدراسة المعمارية بكلية الهندسة، طلب فيها الإشارة إلى أن المهندس المعماري هو ذلك المهندس المهذب، وتعني إشارته إلي أن يتهذب المهندس المدني ليحقق ما خططه وصممه المعماري، وأن الأخير بالأصل كان مهندساً.

تبين من تلك المحاضرة وغيرها أن الدراسة المعمارية فترة أحد عشر عاماً في بريطانيا جعلتني غريباً عمّا هو مألوف عند غيري، فالدراسة المذكورة تتحدد في جمالية العمران، واختصاصها الفني، كالرسام والنحات، أو بهذا المعنى. وأن العمارة، حسب فهمي، عبارة عن فكر اجتماعي فلسفي، واقتصادي، وتربوي، وأخلاقي، لذا يحتاج المعماري إلى ثقافة متكاملة.



مع الأصدقاء عباس التميمي ومدحت علي مظلوم وآخرين (1946)

كان انتسابي إلى كلية الهندسة كمحاضر خارجي ضد رغبتي، وهو ما تمناه لي مدير المعارف، ولابد من البحث عن وظيفة ثابتة، تليق بتخصصي، إلا أن شهادة الدكتوراه أصبحت عبئاً عليَّ. قدمتُ أوراقي إلى عدد من الوزارات والدوائر المختصة، مثل: أمانة العاصمة، ووزارة الأشغال والتخطيط. وكنتُ أعتقد أنها ستهتم بشهادتي في مجال التخطيط والاستشارات الهندسية، لكن درجة الوظيفة المعادلة لشهادتي غير متوافرة. ومع إلحاح أخي عبد العزيز وأصدقاء عمي عبد المجيد مكية ذهبت إلى مكتب رئيس الوزراء ورئيس مجلس التخطيط أرشد العمري.

مقابلة أرشد العمري

كانت المقابلة غير مريحة لي، فقد تكلم بعصبية وتعال، ولم يشر إلي بالجلوس، تكلم معي وهو يتجول في مكتبه، قائلاً: لماذا الدكتوراه، هل هي ضرورية لمثل بلدنا؟ وقبل أن أجيب نعتني بالغرور، وأردف قائلاً: بعد حصولكم على شهادة الدكتوراه تأخذون بالتعالي! عاد إلى الجلوس خلف طاولته، وتكلم مع وزير المعارف تلفونياً، فسمعته أمر بتوقيف بعثات الدكتوراه في المستقبل. كان رئيس الوزراء محتاراً في أمر تعييني بسبب شهادتي، فأمانة العاصمة رفضت استيعابي في دوائرها لعدم توافر الدرجة الشاغرة. بعد ذلك،

طلب مديرية البلديات التابعة لوزارة الداخلية، فوجد فيها قسم مسح المدن، الذي سمي بقسم التخطيط والتنظيم، فانتهى أمري رئيساً للقسم المذكور في مديرية البلديات العامة.

قبل الاسترسال في يوميات مديرية البلديات العامة أود التوقف قليلاً عند شخص رئيس الوزراء أرشد العمري. فهناك مسؤولية كبرى يتحملها شخصياً، لعدم اكتراثه في الحفاظ على المعالم الأثرية ببغداد. يتحمل العمري مسؤولية تشويه نسيج بغداد العمراني، باعتباره امتلك خلفية المهندس الاستشاري، حيث درس الهندسة بجامعة استنبول، واحتل بعد مجيئه من الموصل منصب أمين أمانة العاصمة، وهو المؤسس لها. وكان وراء إصدار عدة قوانين ساهمت في تشويه معالم بغداد التاريخية، ومنها قانون البلديات المعروف بقانون العرصات. والعرصة هي الأرض الزراعية والبساتين التي استعملت للسكن بعد بيعها للأشخاص. جرى البيع أولاً لمدة ثلاثين عاماً ثم صدر قانون شرائها. وكان من المفروض أن تتحول إلى أرض تعود ملكيتها إلى الدولة، من أجل الحفاظ على هوية المنطقة، وإمكانية التصرف بها لتنظيم المدينة، وقد لعبت في تحقيق هذا القانون جمعية يوسف عبود التعاونية، فعن طريقها نشأ حي جميلة، وأحياء أخرى.

وبموجب ذلك القانون قسمت الأراضـي إلى عرصات، وأن تكون مساحة المنازل (600) متر مربع، وأخرى (300) متر مربع، وأبعاد البناء عن الجوانب مسافة أربعة أمتار. وبتلك القوانين قضى العمري على البيت البغدادي التقليدي، بما فيه فكرة الفناء الوسطي، لاغياً تراث آلاف السنين. كذلك منح العمري متصرفي الألوية حق مد الطرق والشوارع وتقطيع أوصال النسيج العمراني لتحقيق الحركة الآلية. فظهرت في بغداد الشوارع السائجة، التي شقت على أنقاض ما يعترضها من محلات أو بوابات قديمة، أو أي معلم أثري آخر. فمن تخريب العمري للمعالم الحضارية قطع جامع مرجان لكي يمتد شارع الرشيد، مع أن الجامع المذكور من الآثار العريقة في بغداد. ويتحمل أيضاً مسؤولية تخريب بوابة باب المعظم، التي هدمت من أجل امتداد الشارع في المنطقة.

مديرية البلديات العامة

بعد اللقاء الودي مع مدير البلديات عبد الرزاق شكارة، ابن محلة صبابيغ الآل، تسلمت مهام رئيس قسم التخطيط والتنظيم. فكرتُ أن تكون البداية، في مثل هذا القسم، تحقيق طموحاتي بالتدرج، فأنا على رأس مؤسسة، من المفروض أن تكون مسؤولة عن تخطيط وتنظيم المدن العراقية كافة. لكن واقع الحال أنها دائرة لا حول لها ولا قوة، فمهامها أقل من اسمها بكثير، فهي مجرد دائرة لحفظ خرائط إضافية، وأخذ موافقة وزارة الداخلية من متصرفيات الألوية، هذا كل ما تقوم به من مهام. ومثلما أشرتُ سابقاً بأنها دائرة لتقديم الاقتراحات، ولا تلزم أحداً بتنفيذها. بيد أن رغبتي بأن يكون التخطيط من اختصاص الإدارات المحلية في الألوية، بعيداً عن هيمنة متصرف اللواء، والمركز في بغداد، لكن هذا لا يمكن تحقيقه في ظل مركزية قاهرة.

ساعدني في قبول الحال بدائرة البلديات، والبقاء فيها مدة ست سنين (1946-1951) مدير البلديات عبد الرزاق شكارة، الذي عاملني وفقاً لمنزلتي العلمية، وبهذا خفت عليَّ مسؤولية المرؤوس أمام الرئيس. غير أن مشاكل وظيفتي أن الراتب الرسمي للموظف لا يتجاوز الثلاثين ديناراً، وهو أعلى راتب لتعيين الجديد وإن كان حاصلاً على شهادة الدكتوراه. إلا أن واسطة ابن العم كاظم مكية مع وزير الداخلية صالح جبر تمكن بصورة خاصة من إضافة مخصصات ليعدل راتبي إلى ستين ديناراً، ولا تدخل هذه المخصصات في خدمة الموظف واستحقاق راتبه التقاعدي. ووفقاً لذلك أصبحت درجتي مستخدماً وليس موظفاً، بالإضافة إلى ذلك ليس لي الحق في التقاعد، فالمستخدم آنذاك لا يشمله قانون التقاعد، أو ما يسمى بقانون الخدمة المدنية.

من خلال موقعي في قسم التخطيط والتنظيم البلدي طلبت رسمياً القيام بجولة بين مدن العراق، فكانت إلى المدن الجنوبية والشمالية، ومهام التنسيق مع المتصرفين، ورؤساء البلديات، بما تسمح فيه حدود عملي الرسمي. كانت الجولة في الجنوب العراقي إلى الناصرية والبصرة ممتعة ومفيدة عبر اللقاءات مع الأهالي، أقل ما فيها التعرف إلى البيئة الجنوبية ويومياتها. وبالمقارنة كانت الرحلة إلى الشمال العربي الموصل وتكريت، مهنية فقط، لم أستطع الاطلاع على البيئة بشكل جيد، أما الرحلة إلى كردستان العراق، فإضافة إلى متعة وجمال الطبيعة حاولت عبرها إعداد مخطط لمدينة أربيل. تعزز موقعي الوظيفي أثناء بعض الرحلات، وكنت محط اهتمام رؤساء البلديات، وكبار موظفي الإدارة.

لاحظت خلال تلك الزيارات النقص الكبير في الخرائط المدنية، ولا يتوافر سوى خرائط الطابو، لذا حاولت يومها الاستعانة بالمصورات الجوية، عن طريق وزارة الدفاع، ومديرية الخطوط الجوية، وإمكانية تزويدنا بخرائط جوية لعدد من المدن والمناطق العراقية، لكنهم رفضوا الطلب لسرية الخرائط، حسب ما يدعون. بعدها بعثتُ طلب الخرائط من مؤسسة الخطوط الجوية البريطانية (رويال إيرفلوس) بالقاهرة. وفعلاً حصلنا على عدد من الصور الجوية، ومن ضمنها صور لمدينة أربيل. وبهذا استطعنا تجاوز قرارات المنع التي كانت تصدر من قبل شخصيات توهم الآخرين، بخطورة أعمالها. لم يكن قرار المنع مفاجئاً لي، فقد سبق أن أشارت مديرية السياحة بكردستان العراق إلى سرية الخرائط عندما طلبتها لمشروع أطروحتي الأول حول عمران قرى سياحية في المنطقة.

مقترح حول إعمار جزيرة الخنازير

كان مقترحي بشأن جزيرة أم الخنازير، وسط دجلة جنوب بغداد، أن تتحول إلى حديقة نباتية وحيوانية. أفصحت عن المقترح لعدد من المسؤولين خلال اللقاء بهم في مكتبي الاستشاري. وقد قدمت اعتراضي يوم عرفت بقرار إهداء الجزيرة إلى دولة الإمارات، أقصد ما كان يمثلها من نظام قبل توحيدها في أوائل السبعينيات، فكتبت رسالة جاء «يجب أن لا تعطى قطعة من بغداد، فالجزيرة يمكن أن تكون متنزهاً أو حديقة حيوان أو أوبرا هاوس، فتكون معلماً حيوياً من معالم بغداد النهرية». وبعد سنوات، أي العام 1963، صدر أمر جامعي من رئاسة الجامعة، لتشكيل لجنة لدراسة مشروع تحويل الجزيرة إلى حديقة نباتية وحيوانية، كنت أحد الأعضاء الأربعة، كوني رئيساً لمهندسي الجامعة، إضافة إلى رئاسة القسم المعماري. كانت اللجنة برئاسة: مدير السياحة والاصطياف العام مدحت الحاج سري، وعضوية مدير الغابات العام الدكتور حسن كناني، وعميد كلية الزراعة الدكتور حسن العاني. لكن لم يتحقق المشروع، وظل حبراً على ورق.

الحزام الأخضر

من الأمنيات التي تمنيت تحقيقها لبغداد هي إحاطتها بحزام أخضر عبر التأثير في أمانة العاصمة، على اعتبار أنها دائرة مستقلة ولديها دائرة تخطيط خاصة ببغداد. كانت أراضي السدة وما وراءها في شرق بغداد ما تزال خالية، ماعدا الأراضي التي استغلتها وزارة الأشغال كمخازن. كتبت تقريراً وافياً عن فكرة الحزام، وما سيحققه للعاصمة من فضاء أخضر، وحفاظٍ على البيئة. لكن ما حدث بعد وصول التقرير إلى الدوائر المختصة أن شُنت حملة عنيفة ضدي، قامت بتأجيجها أمانة العاصمة، ووزارتا الأشغال والري، وعذرهم غير المقبول أن المشروع المذكور سيشغل أرضاً من دون فائدة، وبذلك ستُحرم مساحة كبيرة من مدار بغداد. أثر ذلك طُلب من مدير البلديات العامة عبد الرزاق شكارة الحضور إلى وزارة الداخلية لغرض مناقشة الموضوع، وبما أن شكارة كان محبذاً لفكرة مشروع الحزام، ولم يكن لديه اطلاع كافٍ لذا طلب مني الحضور معه، والدفاع عن المشروع أمام الجهات المختصة.

تمت المناقشة في ديوان وزارة الداخلية، بحضور وزير الأشغال ضياء جعفر، ورئيس مهندسي أمانة العاصمة فخري الفخري، ومدير الري العام عبد الأمير الأزري، إضافة إلى وزير الداخلية ووزراء آخرين لم أتذكرهم بالضبط. دافعت بقوة عن فكرة المشروع، وكانت النتيجة أن غضب وزير الأشغال ضياء جعفر، رغم الصداقة التي تربطه بأخي عبد العزيز منذ الدراسة الثانوية، ولم أتوقع منه ذلك الموقف المحبط. كان سؤاله المبطن بالإساءة، والشديد الوقع عليَّ، لقد تكلم معي باستهزاء وشذوذ قائلاً: تفيد مَنْ تريد في تلك الأراضي؟ دفعني اتهامه هذا إلى الرد بقوة، وعلى أثر ذلك قال لي: «اطلع بره»، فقلتُ له بعصبية: المكان ليس مكانك، حتى تتحكم فيه وتطرد مَنْ تُريد!! بطبيعة الحال كان غضبي غير مألوف في عرف الإدارة وحضور وزير الداخلية ومقامه، وبقية الحضور.

كانت فائدة الحزام الأخضر إحياء بوابات بغداد، كمواقع هامة وتاريخية، وتنظيم حركة الآليات (السيارات)، ويُعيد للعاصمة كرامتها وهيبتها المعهودة. فالحزام سيحل محل السور الذي كان يدور حول بغداد لحمايتها من الفيضانات. مع قيام طريق دائري، وبساتين تتخللها مجمعات سكنية على هيئة أبراج، وفيها حدائق للترفيه كامتداد لحوض ديالى حتى الصليخ، فتتحقق بغداد كبرى يليق بها اسم أم القرى والمدن، وبهذا يُعاد لها وجهها النضير، فهي معروفة بالبساتين على جانبي دجلة.

بعد فشل فكرة مشروع الحزام بالطريقة التي ذكرتها وجهت اهتمامي إلى تقوية مركز مديرية البلديات العامة، والمحكومة دائماً من قبل المتصرف، فرئيس الدائرة لم تتجاوز صلاحياته أوامر متصرف اللواء، أو ما تفرضه وزارة الداخلية، وهذا الأمر كان معمولاً به في ألوية العراق كافة. لم أقدر حينها عمل شيء سوى التماس متصرف البصرة والمسؤولين الأخرين لوقف شق المزيد من الشوارع المستقيمة على حساب النسيج العمراني التاريخي.

كثيراً ما كانت أفكاري تواجه بالازدراء من قبل القائمين على تخطيط المدن العراقية، فمن الجهل أن يُقاس عمل المتصرف الفلاني وإخلاصه بالخدمة بشق شارع، كيفما اتفق. وهذا ما كنتُ أراه في مدينتي كربلاء والنجف المقدستين، فقد مزقت هاتين المدينتين شوارع ليس لها علاقة بمكانتهما، كمحلين مقدسين، يحج إليهما الناس من مختلف أقطار العالم. وأن يسعى البعض إلى تهديم سوق هرج التاريخي ببغداد، من أجل مواكب الزوار الرسميين. ومن المفارقة بمكان أن يُنظر لمن يصور تلك المعالم، من أجل الاحتفاظ بشكلها على الأقل، أنه جاسوس لمصلحة دولة أجنبية. كل ما فعلته في التصدي لذلك الخراب هو كتابة التقارير، ولعلَّ مَنْ ينبش ملفات مديرية البلديات سيجد منها الكثير.

النجف... مشاريع البلدية

حاولتُ أن يكون لبلدية النجف دور خاص في التصرف بالأراضي الصحراوية، وعائديتها للدولة، وفي التخطيط العمراني واتساع المدينة. وما يمكن أن تلعبه البلدية في توسيع مشاريع الماء والكهرباء، فعن طريق هذه المشاريع يمكن رفع قيمة تلك الأراضي المهملة، وأن تكون الفائدة عامة. ومن الأفكار التي راودتني حينها تأسيس مؤسسات تعاونية للنهوض بمشاريع إنمائية، ودعماً لفكرة التعاونيات أن ينشأ بنك أهلي محلي. ظلت تلك الأفكار والتمنيات خيالات لم أستطع تحقيقها، أو كما يُقال ظلت حبراً على ورق. والسبب أني في دائرة لم يكن لها أي صلاحية ما عدا الاقتراح أو الاستشارة.

كان هدم سور مدينة النجف، الذي أحاط المدينة لقرون عديدة، حتى أصبح معلماً من معالمها التاريخية، خطوة متخلفة لا تقل تخلفاً عما حدث لسور بغداد وبواباتها. ذلك أنه ضم المدينة فبدت كأنها متحف كبير، بكل ما فيه من تفاصيل. صحيح أن الكثافة السكانية تستدعي توسيعها، لكن هدم السور لم يحل المشكلة، وكان بالإمكان تحقيق التوسيع مع وجود السور، كأن تكون له بوابات عظيمة تحيط بمركز المدينة، وأن تحاط المدينة ككل بسواد من أشجار النخيل، والنخلة هي الشجرة المباركة.

كذلك كان لبحر النجف قيمة جغرافية وتاريخية، اقترن وجوده بهذه الديار العريقة، وامتدادها في منطقة الحيرة وارث الرافدين حتى من قبل الإسلام، وما له من علاقة بنشوء المدينة وتطورها. لهذا البحر دلالة بيئية هامة، لأنه منبسط مائي على طرف نهاية الصحراء، حيث تنتهي صحراء النجف إلى الجزيرة العربية. حاولت أن يكون لبلدية النجف، وهي مدينة دينية حققت دوليتها من خلال المرقد العلوي ومدارسها الفقهية والفلسفية، أن تكون لها خصوصيتها ومسؤوليتها المباشرة في تخطيط أو إعادة تخطيط المدينة، وأن يتم الحفاظ على قصبتها، وبعدها المكاني عن الكوفة، فللمدينتين خصوصية حضارية، وأُصول متباينة رغم قرب المكان، وهذا ما حاولناه في مشروع جامعة الكوفة في ما بعد.

مكتب الاستشارة والتصميم

بدأت فكرة قيام مكتب مشترك مع المعماري جعفر علاوي، وما له من صلة قرابة بكاظم، إلا أن الفكرة سرعان ما فشلت بعد أسبوع واحد فقط، ذلك لشعوري بصعوبة التوفيق بين مفاهيم فن العمارة وهوية التراث، فكان من الصعب علينا التوفيق، فعمرانياً كنا ننتمي إلى مدرستين مختلفتين. لهذا باشر مكتبي العمل من محل سكني، العام 1948، في الشقة الصغيرة التي تشغل الطابق الرابع من عمارة كاظم مكية في شارع المستنصر. بدأت بإمكانيات محدودة ومقتصرة على تصميم البيوت الجديدة، بيوت الأصدقاء والأقارب. ومن الطريف أن كاظم مكية طلب دفع بدل الإيجار وفقاً للتاريخ الهجري، على اعتبار أنه أقصر مدة من التاريخ الميلادي، فالفرق بين

السنتين حوالى أحد عشر يوماً. وفي سبيل إيجاد مكان مناسب للمكتب حاولت الافادة من فارق ثمن السيارة التي كان لي حق استيرادها، بتسهيلات جمركية خاصة بطلبة البعثات الدراسية، من الذين أكملوا الدراسة العليا، ولكن لم تنجح المحاولة.

كان أول مشروع أنجزه مكتبي المنزلي هو تصميم دار قاضي محكمة بغداد السيد هادي. قام المشروع على فضلة أرض مستطيلة الشكل، وضيقة المساحة، لا يتجاوز عرضها الستة أمتار، وطولها الخمسين متراً، ومطلوب أن أصمم عليها بيتاً أو بيتين. وقد يسرني معالجة مثل هذه المواقع، فصممت عليها بيتين، كانت أجوري المهنية عشرين ديناراً فقط. فالقاضي هادي، مثل غيره، يعتقد أن الهندسة والخرائط ليست من أعمال البناء الشاقة، فعلى الرغم من أنها تأخذ من الوقت ساعات وأيام، مسبوقة بدراسة سنوات، إلا أنها حسب تصور الأصدقاء لا تُكلف المصمم غير ورقة وخريطة، وهذا بالمنظور الضيق آنذاك لا يُعادل أجرة الأسطه، أو عامل البناء.

من طرائف زبائن المكتب أن أهدى لي أحد شيوخ الديوانية، بدلاً من تكاليف تصميم بيته، بقرة، استوعبتها حديقة المنزل، وكانت تحت رعاية فلاح الحديقة حسن الفلسطيني وزوجته التي كانت تساعد في شؤون المنزل، وكان يحلبها ويعتني بشؤونها. وأهدى لي حسن الدجيلي، سفير العراق بإيران، زولية إيرانية. ودفع لي عبد الفتاح إبراهيم، كهدية وليست أجوراً، مئتين وخمسين ديناراً مقابل تصميم بيته بمنطقة هيبة خاتون. والنتيجة أن العمل في التصميم لا يأتي منه مالاً في مثل بلادنا، لأن الرسم يعتبر هواية وليس عملاً، لذا دعت الضرورة إلى فتح مكتب للهندسة الإنشائية للتصميم والتنفيذ، ما معناه مكتب مقاولات.

لم يحل الإشكال المادي كي أتمكن من فتح مكتب مناسب، إلا بعد حصول زوجتي على الحق بسكن حكومي لأنها موظفة أجنبية. وعلى أساس ذلك حصلنا على سكن في دور العلوية التي شيدها البريطانيون بعد الحرب العظمى الثانية في بغداد لسكن كبار مستشاري الدولة والقضاة والأطباء المشهورين، وترتبط هذه الدور بالنادي المعروف بنادي العلوية، وهو أول نوادي بغداد الترفيهية، تأسس في مطلع العشرينيات. كانت الدار عبارة عن (بنكلة) من (البناكل)، تحمل الرقم (19). في تلك الدار البنكلة ولد كنعان وهند. وكانت الدار سكناً للمستشرقة والرحالة المعروفة (فريا ستارك)، التي نشرت عدة كتب عن رحلاتها إلى العراق والشام وحضرموت، ومن جملة مؤلفاتها كتاب «صور بغداد القديمة»، ومن جيراننا كان مستشار الحاكم البريطاني برجارد. استمر سكننا في البناكل البريطانية حوالى تسعة أعوام (1949-1957)، فقد حصل أن ألغت الدولة التعاقد مع أم كنعان كموظفة أجنبية فتحولت إلى موظفة عراقية، على اعتبار أنها متزوجة من عراقي. بعدها أقمنا في بيت بمنطقة المنصور مقابل دفع بدل الإيجار، حتى تم بناء لنا بيت خاص أقمنا به ثلاثة عشر عاماً (1957-1970)، شهدنا فيه الانقلابات العسكرية كافة، وكان قريباً من قصر الرحاب وشهد ما شهده القصر في تموز/يوليو 1958، ثم شوارع المنطقة المحيطة معارك جانبية أيام الحرس القومي 1963.



هند وكنعان بداية الخمسينيات

العمل في المقاولات

كان الجمع بين الوظيفة والعمل في المكتب مضنياً، فما أن أتناول الغداء وارتاح قليلاً حتى أترك البيت إلى المكتب الجديد في عمارة

جامع مرجان، وكانت أم كنعان تلومني لعدم رؤية الأطفال بما فيه الكفاية. كما أن العمل في البلديات كان متعثراً، وكنت أبحث عن عذر لتقديم استقالتي، وحصل أن زار أحد الوزراء مديرية البلديات ولم يجدني في مكتبي، فقدمت شكوى وظهرت اعتراضات عليَّ في البرلمان، فقدمت استقالتي وقبلت العام 1951. كانت فرصة سانحة للتفرغ إلى العمل الحر في مجال التصميم والمقاولات.

كسبتُ خلال عملي متعهداً لمشاريع البناء خبرة محلية، فالتعامل كان مباشراً مع الأسطوات والعمال. كان يُنظر للتنفيذ على أساس أنه الهندسة التي ينظرها الناس، فالتصميم ورسم الخرائط، في نظر الناس، إنها عمل بسيط نسبة للعمل المنظور لديهم، وهو عمل البنائين، فالتصميم والاستشارة هما الما وراء، أي غير المنظور. وهذه النظرة اضطرت أيضاً جعفر علاوي ومحمد مخزومي أن يكونا متعهدي بناء. لقد اكتسبتُ خبرةً عملية لم أكن أحصل عليها طوال دراستي للفن المعماري في بريطانيا.

تحمل المكتب الجديد مسؤولية تنفيذ مشاريع حكومية، مثل بيوت مصرف الرافدين بالمنصور، وفي هذا المشروع تدخلت إلى حد ما في التصميم الداخلي للبيوت. جاء ذلك بطلب عدد من المستفيدين من المشروع، مثل الفنان محمود صبري. وتحمل مكتبنا أيضاً إنجاز مشروع بيوت الأمراء بالمنصور، وهما بيت الشريف حسين زوج الأميرة بديعة ووالد الشريف علي، وبيت الشريف حازم، وعلى أثر وجود هذين البيتين عُرف الشارع بشارع الأمراء.

أما المشروع الذي وضع نهاية لعملي في المقاولات فهو مشروع مستشفى التويثة، في منطقة جسر ديالى، على طريق سلمان باك. ما حصل أن تلكأ العمل بسبب الفيضان وانقطاع الطريق بين بغداد والمشروع، فأصبح من الصعب نقل الطابوق والمواد الأخرى، وبهذا واجهتني خسارة كبيرة تركت على آثرها العمل في المقاولات. كنت حينها مشتركاً مع المقاول عمران توفيق باستئجار مكتب واحد، مع الاستقلال في العمل.

تنقل مكتبي، مكتب التخطيط والتصميم، ومكتب المقاولات، بين عدة أماكن، فكان في شارع المستنصر، المعروف بشارع النهر، في عمارة لنج، ثم في عمارة مرجان في شارع الرشيد، ثم الكرخ حيث واجهة النهر. كان مكتب الكرخ الذي يحمل عنوان «مكية ومشاركوه مؤسسة هندسية للتصميم والتخطيط» مجاوراً لمنزل الروائية المعروفة (اجاثا كرستي)، فكانت ترافق زوجها الآثاري المعروف، وأحد رواد الآثار العراقية. كان المشاركون معي طلبتي المتفوقين، وخصوصاً يوسف داوود، الذي ألحقته بقسم الهندسة المعمارية، ومحمود عبد الوهاب.

أثناء ذلك، أي العام 1956، زار مكتبي مساعد السفير الأميركي، وظل جالساً مع المنتظرين من بنائين وعمال، وأنا لم أعرف بوصوله، وقتها سلمني رسالة دعوة من الجامعات الأميركية كأستاذ زائر لمدة عام، والسبب يعود إلى مؤتمر القرى العربية بالقاهرة، الذي حضرته العام 1951.

الأسطوات والبناؤون

في تجربة المقاولات، ومتابعة تنفيذ مشاريع عمرانية كثيرة، وبناء بيتين، الأول بالمنصور والثاني بكرادة مريم على ضفة النهر، نشأت بيني وبين الأسطوات والبنائين علاقة طيبة، فقد عرفوا ما أريد، وعرفتُ كيفية التعامل المريح لهم. وكثيراً ما تستمر العلاقة مع عامل بناء إلى أن يكون خلفة ثم أسطه، وكان الود متبادل بيننا. تعاملت في بناء بيت شخصية من أسرة آل الدباغ الموصليين مع البغدادي ابن صبابيغ الآل الأسطه حمودي، الذي كثيراً ما يضع كرستة زائدة عن المطلوب، ويزيد بحجم الأساس. فهو الذي بنى أعمدة شارع الرشيد، وكان يعتمد قوالب جاهزة في صب الكونكريت. وطلباً لصلابة الأساس كان يدعو المهندسين إلى وضع المزيد في حسابات الكونكريت المعتمدة.



أسطوات بغداد - بينهم أسطه الحاج حمودي المشهور (1948)

عمل الحاج والأسطه حمودي في بناء بيت لكاظم مكية، على مساحة أرض تقع في منطقة المسبح، مقابل السفارة الأميركية، كثيراً ما لفت البيت أنظار السياح الأميركان فيعمدون إلى التقاط صور لواجهته. استعمل الأسطه حمودي، في بناء هذا البيت وغيره، المقرنص، يوم كان المقرنص يلفتُ أنظار الجميع. افتتح البيت بحفلة كبرى، حضرها وجهاء الدولة من صالح جبر وسعيد القزاز، وجماعة من كبار ضباط الجيش العراقي، كذلك حضرها أخوه وهيب مكية الضابط بالجيش، قبل أن تحصل الجفوة بينهما بسبب زاوج الأخير من خارج العائلة. قدمني كاظم مكية إلى الحاضرين في تلك الحفلة بلقب الدكتاتور بدلاً من الدكتور، بسبب ما كنتُ أفرض عليه من تصميم في بناء بيته. أتذكر كان في البيت، وقت الاحتفال، صبي يعمل خادماً، كنتُ أُحرج في التعامل معه كخادم، فمن المفروض أن يكون مكانه المدرسة، لم يرض هذا التصرف كاظم مكية، فثروته قادته إلى موقف طبقي، ينظر بتعالٍ إلى الآخرين.

كان بيني وبين الأسطه الحاج حمودي عِشرة عمر كما يُقال. كنت أسمع عنه الكثير وأنا طالب في المدرسة، فاسمه كان معروفاً آنذاك في عالم البناء. كان هو وأسرته مدرسة في البناء. فهو الذي تولى تصميم وبناء بيتنا الكبير بيت الحاج صالح بمحلة صبابيغ الآل. كان هؤلاء المعماريون، الأسطوات، يسكنون في محلة خاصة بهم تعرف بمحلة الهيتاويين، وهي امتداد لمحلتنا شرقاً، ومحلة القشل. يتميزون بالتزامهم باللباس البغدادي العريق، المتكون من الصاية والجراوية، وما يميزهم أكثر وضع الجماغ (الكوفية) على أكتافهم، ولهذا التصرف دلالات معروفة، يأتي الخلفات بعد الاسطوات درجة. ومهنة العمران البغدادي حالها حال المهن الأخرى، غالباً ما يتوارثها الأبناء عن الآباء، مثل أسرة الحاج حمودي.

ومن هؤلاء المعماريين: الأسطه سلمان: يعد مدرسة في البناء، وقد تعامل معه البريطانيون في بناء الأبنية التراثية، مثل المدرسة المركزية، أول ثانوية بالعراق، وعمارة لنج، وجامعة آل البيت بالأعظمية من بغداد، المجاورة للمقبرة الملكية، التي أصبحت في ما بعد مقراً للبرلمان العراقي، ثم معهداً للمعلمين. وكان المصممان البريطانيان (ميسن) و(ولسن) قد أعجبا بأعمال الأسطه سلمان. والجدير بالذكر أن دراستي في جامعة ليفربول كان بتوصية من المعماري البريطاني (ميسن). لقد استعان بالأسطة سلمان الآثاري الألماني أوسكار في كتابه حول البيت العراقي (1909)، الذي نسب الفضل في إنجاز هذا البيت إلى الأسطوات البغداديين.

والأسطة الحاج حسن فرج وهو عم المعماري صبحي العزاوي، ولد بمحلة الهيتاويين العام 1909، وأخذ المهنة عن والده فرج محمد، واشتغل مع الأسطه حمودي، وكان يجيد البناء بالنورة والرمل، وبيناء يسمى (جف قيمة)، ويجيد نقش السقوف نوع (الحصيري)، ورسم الخرائط والمخططات، مع أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. ومن المشاريع العمرانية التي ساهم في بنائها: جامع الخلفاء في بغداد، وطارمة ضريح الإمام موسى الهادي بسامراء، وحسينية الحاج جواد باقر الشكرجي بكربلاء، ودار أمل الخضيري، ودور أخوات الأمير عبد الإله، ولي عهد الملك فيصل والوصي عليه. وعمل معي في بناء عمارات وبناء بيت كاظم مكية، الذي تميز ببالكونة جميلة. وأخيراً، قيل إنه توفي السنة 1976 بأزمة قلبية.

والأسطة صادق عبد الكريم أبو الورد: ولد ببغداد ـ القشل، تعلم على يد الأسطه سيد عزيز، وعمل خلفة عند الأسطه صالح البياتي، الملقب بأسطه صالح زنوبة، والأخير كان أسطه مشهوراً من العهد العثماني وحتى الخمسينيات من القرن الماضي. ومن أعمال الأسطه أبي الورد: تنفيذ قناطر منطقة الفتحة بجبال حمرين، قرب شهربان (المقدادية) ببعقوبة، كما اشتهر ببناء النافورات، وبناء دور مدينة الحرية ببغداد، وبناء القناطر، والطرق على نهر الحسينية بكربلاء، وأعمال عديدة أخرى. وقيل توفي بحادث سيارة السنة 1983.

والأسطة الحاج توفيق: عمل معي في جامع الخلفاء، واستفاد من هذه التجربة فأخذ بتطبيقها في بناء الحضرة الكيلانية، مستخدماً الآجوريات والبوابة. ولعل الأسطه عبد اللطيف العاني هو الوحيد، من بين زملائه الاسطوات، تحول إلى مقاول كبير في ما بعد. ومن الاسطوات أيضاً حسن رشيد من الكاظمية ببغداد. ومن اسطوات محلتنا، محلة صبابيغ الآل: «الحاج سلمان سلبي، طه حمودي، ناصر وولده عبد علي، اسطه صالح البياتي، الحاج إسماعيل البياتي، الحاج رضا». ما جاء حول الأسطوات كان من الذاكرة ومما ذكرني به ابن المحلة مرهون الصفار في كتابه «محلة صبابيغ الآل وما جاورها»، وما سبقه من تسجيل وتعريف حول أعلام البناء في المجتمع البغدادي.

قسم الدراسات المعمارية

لم أستطع تحقيق ما كنتُ أرجو تحقيقه أثناء عملي في مديرية البلديات العامة، لكن الأمر كان مختلفاً في قسم الدراسات المعمارية، الذي حققت فيه عدداً من الطموحات، كمؤسس ورئيس له. خفف ذلك، بعض الشيء، من الإحساس بالإحباط والفشل في العمل مع الدولة، الذي واجهته في الوظيفة السابقة. وفي بداية العام 1959، بعد أن نضجت فكرة تأسيس القسم المعماري التي طرحتها العام 1946.

جاءت دعوة عميد كلية الهندسة، في محاولة أولية للجنة متكونة من ثلاثة معماريين شملت مدحت علي مظلوم، وقحطان المدفعي وأنا، تداولت اللجنة أمر تأسيس قسم خاص في الدراسات المعمارية، واتفقت أن أتولى الإعداد لهذا التأسيس، وفقاً لما توافر لديَّ من خبرة، ومطالعة واهتمام في مهام مقومات الدراسة المعمارية مما دعاني إلى نهج منهج جديد، وافكار قد تختلف مع ما هو سائد في عالم الدراسة المعمارية، وممارستها الحالية، وتقاليدها في الجامعات العربية. والمنهج هو اعتبار العمارة عمراناً وليس مجرد آنية مشكلة، وهذا ما اطلعت عليه في دراسة تخطيط المدن، ودراسة التراث المحلي في سني الدراسة في ليفربول وكامبردج. كل هذا ساعد في فهم الدراسة المعمارية بإطارها الشمولي، الذي يحتاج فيه المعماري إلى وعي في الاقتصاد والحضارة والاجتماع والبيئة الجغرافية، والقيم المعنوية الملازمة للمكانة الإنسانية، وهي التوافق بين الثلاثي: الإنسان والمكان والزمان. وبطبيعة الحال لم يكن من السهل تطبيق هذا المنهج دفعة واحدة، ولا بد من التدرج، واستيعاب الاعتراضات.

بعد قرار تأسيس القسم المعماري، اقترحتُ فتح أقسام فرعية لتدريس طلبة المعمار علوم أخرى، رأيت من الضروري تدريسها، إضافة إلى دراسة العمارة، التي يفترض بالمهندس المعماري الإلمام بها. حاولت إدراج تلك المواضيع نظرياً وعملياً في المنهاج الدراسي. تمكنت بعد مناقشات مستفيضة واعتراضات من البعض من إدراج العلوم التالية، بمعدل ساعتين في الأسبوع لكل علم: التصوير الفوتغرافي، الجغرافيا، علم الاجتماع، السيراميك، التوثيق، والخط العربي. لكن تحقيق ذلك لم يكن سهلاً، فالأساتذة والمسؤولون لا يحبذون مخالفة المألوف.

ما أتذكره في قضية القبول، واضطرار رئاسة القسم التزام معدل الدرجات في تنافس المتقدمين، ما حصل مع المعمارية الحالية زهاء محمد حديد، التي تقدمت إلى الدراسة المعمارية مع توصية الصديقين قاسم حسن، وأحمد سوسة بطلب من والدها، الذي كان وزيراً للمالية بعد 1958، على ما أتذكر، ومن السياسيين الديمقراطيين المعروفين. ومع تعاطفي لقبولها، بدافع رغبتها واعتزازها بالانتماء إلى المدرسة المعمارية، إلا أن نسبة معدلها كانت أقل من المتقدمين الآخرين، لذا انتظرتُ فرصة انسحاب أحد المتقدمين حتى يتم قبولها وفقاً للأصول المرعية. كانت محاولتي في اللقاء مع المقبولين حسب نظام الجامعة التأكد من التزامهم بمثل هذا القبول، ومعرفة الخيار الأفضل، فلعله يكون في أقسام الهندسة المدنية، الذي يحق أسبقية القبول فيها بعد قبولهم في القسم المعماري.

كنتُ أواجه الطالب المقبول بمشكلات العمارة، وأهميتها وصعوبة تخصصها، ومن مجموعة الأسئلة سيُعرف مستوى الطالب، واستعداده لأن يكون معمارياً، فالعمارة لا تُختصر في معرفة الرسم، فهي ليست مساحات وسطوحاً بقدر ما هي فن من الفنون، تحتاج إلى موهبة واستعداد. حذرتُ المتقدمين من تصديق فكرة أن أي شخص يجيد الرسم أو موهبة العمارة يصبح معمارياً، واضعاً أمامهم الصعوبات الجدية. سيتحمل طلبة القسم مهام العمران الحضاري، فما سيقومون به من تصاميم ليست تأليف كتاب أو رسم لوحة من السهل تبديلها بأخرى، فالبناء بعد أن يُشيد على الأرض يصبح جزءاً منها، يصعب تبديله بآخر. لذا حاولت تطبيق نظام خاص بالقبول، خلاصته: أن تكون هناك سنة تحضيرية يستعد الطالب فيها للدخول إلى القسم المعماري، وأن تكون الدراسة على فترتين، منها البكالوريوس كدراسة جامعية من دون شهادة تخصص مهنية، وأخرى ما بعدها يتم فيها دراسة الاختصاص.

بدأ القسم بعدد قليل من الأساتذة، وأغلبهم كانوا محاضرين خارجيين، تُحسب أجورهم على عدد المحاضرات، من غير تعيين في القسم. كان من بين هؤلاء الأساتذة الدكتور علي الوردي لتدريس علم الاجتماع، وهاشم الخطاط لتدريس الخط العربي. وتحملت الفنانة البولونية صوفيا، والفنانة لورنا سليم، زوجة الفنان جواد سليم، مهمة تدريس الرسم، ثم عُينت لورنا بعد وفاة جواد. لعبت لورنا دوراً مهماً في القسم، كانت تصطحب الطلبة للتجوال بين المحلات البغدادية، وإلى البيئة النهرية، وتسجيل التراث البغدادي في رسوماتهم وأعمالهم الفنية، كانت تتنقل معهم، بين المحلات السكنية، من زقاق إلى زقاق، ظهرت تلك المشاهدات، في ما بعد، في أعمالها الفنية الهامة.

ومن مدرسي القسم أيضاً فنان قبرصي، لا يحضرني اسمه، ينتسب فنياً إلى جماعة جواد سليم، التي كانت تُعرف بجماعة بغداد. كان عمله الدائم في الخزف، ولكن بعد أن تعذر عليه الاستمرار في عمله بسبب تقدم العمر اكتفى بتدريس مادة الفن التشكيلي لساعات محددة. كان تدريس تلك المادة لطلبة القسم المعماري أمراً غير مألوف، إلا أن الفنان المذكور أدرك جيداً أن حضارة العراق هي حضارة الطين منذ أيام سومر، والإبداع الفني العراقي كان محصوراً بمادة الطين، وما فيه من روعة الألوان. فالبلاط الملون، وهو طيني الصيرورة، كان شائعاً، ثم انحسر استخدامه في تزيين العتبات المقدسة. بيد أن تلك المادة مادة لونية بإمكانها أن تدخل بأشكال متعددة.

محاولة مسح المدن

أعطينا عناية ملحوظة لموضوع مسح المدن العراقية عبر العمل الطلابي الجماعي، وما للتصوير من أهمية في هذا المجال، والذي تحمل المهمة شخص يدعى عبد هامل الشطري، رغم أنه لم يكن من أصحاب الشهادات، لكن تجربته وخبرته في فن التصوير كانت كافية لتحقيق الطلب، فكانت أعمال الطلبة تُسجل وتوثق بعناية. والغرض المستقبلي من التوثيق أنه بعد سنوات يمكن جمع تلك المحفوظات وإصدارها بدراسات موضوعية، وأن يتم عبرها تحقيق المعارض في مهرجانات الكلية، كذلك المساهمة في المناسبات الجامعية العالمية، وتستخدم كمصادر في دراسات البيئة العمرانية. كما حاولتُ إدراج تدريس مادة تاريخ العمارة، ومنها العمارة الإسلامية، لكن كثرة الدروس منعت تحقيق ذلك. لقد أصبح المنهاج الدراسي للقسم مكثفاً، يصعب تحقيقه دون أساتذة ثابتين، وإمكانات أكبر.

كان بودي انتماء المعماريين كأساتذة إلى القسم المعماري، لكن لوائح الجامعة وكلية الهندسة وشروط التدريس في القسم لا تسمح بتجاوز المألوف كما ذكرت آنفاً، منها الشهادة العليا، فمَن دونها لا يمكنهم الانتساب إلى القسم. مثلاً كان يصعب عليَّ توظيف الفنان فائق حسن رغم اختصاصه الفني وخبرته الطويلة، لأن توظيف الأستاذ أو الأستاذ المساعد يحتاج إلى شهادة دكتوراه، كذلك يحتاج توظيف المعيد إلى شهادة البكالوريوس أو الماجستير.

فبالنسبة إلي، لعدم وجود سنوات خدمة في التدريس لم يحق لي تبوأ درجة رئيس قسم بدرجة أستاذ، لذا لجأت رئاسة الجامعة ممثلة برئيسها الدكتور عبد العزيز الدوري إلى استحداث لقب رئيس مهندسي الجامعة، ثم منتسب إلى رئاسة القسم المعماري. تم ذلك بعد إصراري رفض لقب مدرس، والدولة غير مستعدة منحي في البداية لقب الأستاذية، الذي حصلت عليه في ما بعد.

مع الملحق الثقافي الجيكوسلوفاكي والوفد الأميركي

بعد مغادرة الأساتذة الأجانب الأميركان والإنكليز بسبب حرب يونيو/حزيران 1967، وقطع العلاقات مع الدولتين، أصبح لدينا نقص في عدد المدرسين، وقتها طلبتُ بعثة مدرسين من الدول الاشتراكية، جيكوسلوفاكيا على وجه الخصوص. فحصل أن وصل مدرس جيكوسلوفاكي للتدريس في القسم، وبعد مباشرته العمل ظهر لي أنه غير لائق لمكانة أستاذ مشرف أو محاضر في مثل هذا القسم، مما دعاني إلى الاتصال بالملحق الثقافي الجيكوسلوفاكي، ودعوته لزيارة القسم. تمت الزيارة دون علم عميد الكلية، فأوضحت له الأمر، وإذا كان بالإمكان استبداله بأستاذ آخر، على أن يكون مناسباً، وعاتبته بالقول: إن طلابنا أذكياء وبارعون، والعراق ليس بلداً من بلدان مجاهل أفريقيا، حتى تُعاملونا بمثل هذه المعاملة! جاء عتابي له بعد الاستفسار من الأستاذ (باستا)، المحبوب جداً في القسم، عن أساتذة جيكوسلوفاكيين جيدين، فأشار إلى أفضلهم أستاذ اسمه (جايكا)، فطلبته، في ذلك اللقاء بدل الأستاذ المرفوض، تم ذلك دون أن يدري أحد من المسؤولين في إدارة الجامعة. كان الأستاذان الجيكوسلوفاكيان (باستا) و(جايكا) من الأساتذة المتفوقين، والمتعاطفين مع التراث والبيئة، ولهما دور بارز وهام في الهيئة التدريسية، ظل يتذكرها طلبة القسم باعتزاز وتقدير.

قبلها حدث مرة أن زار الوفد الأميركي ببغداد كلية الهندسة والقسم المعماري، وكانت الزيارة بقصد الحوار حول التعاون العلمي والثقافي وتزويد الكلية بالأساتذة. واثناء الحوار أشعرت الوفد بطريقة تجمع بين الجد والهزل أن يكون سفراؤهم من العلماء والأكاديميين، لهم علاقة بالعلم والفن، فنحن بحاجة إلى سفراء يزودوننا بأستاذ جيد، وهذا أفضل تعاطف مع طلبتنا. تجاوب رئيس الوفد مسروراً، وأبدى إعجابه بمثل هذا الحوار. لكن فكرة الاستعانة بأساتذة من الخارج على مستوى من العلم والمعرفة والخبرة كانت غير ملائمة بالنسبة إلى الأساتذة العراقيين في كلية الهندسة. لأن طلب أساتذة من الخارج يعني حرمان عراقيين من العمل، أو أجور المحاضرات الإضافية التي كان مردودها المالي يسد لهم ما لا يسده الراتب القليل. فمثلاً زوجتي كانت تتولى إلقاء محاضرات إضافية من أجل زيادة راتبها الشهري، الذي كان لا يتجاوز الستين ديناراً رغم سنوات خدمتها، فكانت تُعامل كعراقية في الوظيفة.

درس التصميم

كانت دراسة التصميم والتخطيط، في معظم الوقت، تتم في مراسم القسم، وبإشراف الأستاذ المختص ومساعديه. وبطبيعة الحال كان لموضوع التصميم الأولوية في درجات النجاح. والطريقة المتبعة أن يُحدَّد الزمن للمشروع المطروح، ثم يُقدم الطلبة تصاميمهم، ويعهد إلى لجنة الاساتذة بدراسة المشروع، ويجتمع الكل للنقد والتقويم، وهذا بلا شك له الأسبقية على المحاضرات الصفية. والنقد بطبيعة الحال فرصة مفيدة لتوضيح الأخطاء، وبعد استكمال المناقشة تُقدر الدرجات للطلبة. لكن حضور المرسم والحوار مع الطلبة كثيراً ما كان يتعارض مع وقت المحاضرات، وقد شكى محاضر علم الاجتماع من تغيب الطلبة. كنا نعطي اهتماماً خاصاً للسمينارات، ففيها يستمع الطلبة إلى شرح زميل منهم عن تصميمه، والمطلوب أن يقنع نفسه بمشروعه قبل إقناع الآخرين. ولعل لهذه الطريقة أثراً هاماً في محاولة تفوق القسم المعماري على الأقسام الأخرى، ونشاطاته مشهود لها في المهرجانات السنوية، ويوم الكلية.

وفي مشاريع السنة الأخيرة، وهي تقديم الأطروحات، حاولنا دعوة أخصائيين في مهام بعض المشاريع، ففي حال أطروحة تصميم مجمع طبي أو مستشفى أدعو إلى الحضور زملاء من كلية الطب، كونهم على دراية ببناء المستشفى، وما يُلائم ذلك من غرف أو أروقة وتشكيلات أخرى، وكذلك الحال مع بقية المشاريع. كان المعماري قحطان المدفعي أحد الأساتذة المتحمسين لفكرة فريق أو مركز البحوث والدراسات الأولية، لكن ما ينقصه للأسف تفاعله مع الحداثة بما يستغني عن التراث.

كان يوم كلية الهندسة مناسبة هامة، تعرض فيه الأقسام نشاطاتها حسب التخصص، والغاية من ذلك أن تظهر فنون الطلبة عبر هواياتهم واهتماماتهم، ويطلع الطلبة الجدد على نشاط أقسام الكلية كاملة. تميز القسم المعماري بأعماله. فإلى جانب عرض الأعمال المعمارية عرض الطلبة المسرحيات لأول مرة، ذلك بتشجيع بعض الأساتذة، وقد حصل في إحدى السنوات منع التجول ببغداد في مناسبة انقلاب لا أتذكر تفاصيله، فقررنا عرض المسرحية داخل بيتي بالمنصور. هذا إلى جانب اشتراك الطلبة بالسباقات الرياضية، كمنافسة بين الأقسام، وكان للطالبات دورهنَّ الفاعل في تلك المناسبة. ومن حسن حظ القسم أن طالباته من أجمل طالبات الكلية،

ويكسبنّ دائماً جوائز مباريات الجمال بين بنات أقسام الكلية الأخرى. أتذكر أسماء الجميلات جداً منهن ميسون وشقيقتها، لعلهما الآن من المعماريات الناجحات، إذا لم تعيقهما الهموم العائلية. كذلك كان للقسم محاولة في إصدار نشرة ثقافية ومعمارية سنوية.

قرية في الأهوار

عادة يدعو اتحاد المعماريين الدولي كل أربع سنوات طلبة العمارة من الدول كافة للاشتراك في المسابقة حسب منهاج تلك الدورة، بمشاريع الاستيطان المتميزة في إحياء منطقة خاصة، فجاءت زيارة طلبة القسم إلى منطقة الأهوار بجنوب العراق فرصة هامة لدراسة واقع المنطقة، والموقع المطلوب لتصميم مجمع قروي كنموذج استيطان في دلتا شواطئ مياه وجزر الأهوار. كان من المؤمل أن نشترك في مسابقة الاتحاد الدولي للمعماريين ببراغ، وكنتُ عضواً في لجنة التحكيم، لكن حرب يونيو/حزيران السنة 1967 في الشرق الأوسط منعت سفري. وما علمته من في ما بعد أن أحد طلبتي، وهو فوزي عجام من أهل الحلة، اشترك بمشروع مماثل في المسابقة، ورغم وصوله متأخراً حصل على الجائزة. بعد العودة السريعة إلى بغداد في العام 1980، بدعوة من الحكومة العراقية، ألقيت محاضرة ذكرت فيها هذا المشروع، بعدها سألني صدام حسين عن المشروع وصاحبه، لكن حملة تجفيف الأهوار لم تترك مجالاً لحسن الظن بشخص مثل صدام حسين.

زوبعة بسبب قارورة بيرة

حصل في يوم من أيام الدراسة العادية، أثناء عمل الطلبة بمشروع قرية من الأهوار، أن يُعقد اجتماع الأساتذة ورؤساء الأقسام بغيابي في غرفة عميد الكلية، للتحقيق في شكوى قُدمت ضد طلبة القسم. وبعد الاستفسار بلغني أن عقد الاجتماع كان للتحقيق في أمر وجود قنينة بيرة فارغة في المرسم. تبين أن الذي أثار القضية هو سكرتير العميد الموقت، والمسؤول عن شؤون الطلبة والطالبات. وهو من الأساتذة المتدينين المتزمتين، وكان يُراقب عن كثب، وربما بحسد، العلاقة بين الطلبة والطالبات. ولما وصلت إلى الكلية لم أجد أحداً، فالكل في قاعة الاجتماع، ما عدا الفراش سلمان الذي أخبرني بالأمر. اعترضت على تصرف العميد في أن يعقد اجتماعاً بشأن القسم المعماري دون علمي وحضوري، وبسرعة خطرت ببالي فكرة مناسبة لتخليص الطلبة والأساتذة المشرفين على النشاط من الموقف، فقد ادعيتُ بموافقتي على مقترح غطس الورق في سائل البيرة لإخراج الرسوم على ورق يميل إلى لون القصب، فصفرته مثل صفرة البيرة، ذلك لتحقيق مشروع قرية من الأهوار، وبهذا اكتفى العميد بحجتي وأنهى الاجتماع بسرعة. الحقيقة، كان الطلبة والأساتذة يعملون ليلاً في استكمال تصميم هذا المشروع، ولا بد أنهم احتاجوا إلى احتساء البيرة.

شملت مشاريع الطلبة، من غير التراث البغدادي وقرية الأهوار، إعداد دراسات ورسوم للتراث الشعبي، كدراسة خانات بغداد وكربلاء والنجف، وحمامات بغداد، والبيت العراقي بشكل عام. ومشاريع أخرى تخص بعض تفاصيل العمارة منها: مطارق أبواب البيوت، والحمامات المنسية ببغداد. لم يألف الناس، ولا مؤسسات الدولة، تجول الطلبة بين الأحياء لإعداد تصاميمهم، لذا كثيراً ما كانوا يستدعون من قبل الشرطة، للتحقيق بسبب تصويرهم وتجوالهم اللافت للنظر في تلك الأماكن، رغم أني زودتهم، بعد التنسيق مع الجهات المعنية، شهادة تسمح لهم بتصوير الأماكن التي تخص مشاريعهم الدراسية.

ومن مشاريع القسم الهامة لبغداد، والتي أشير إليها باعتزاز، مشروع رسم ساحل دجلة، امتداداً من الجسر المعلق إلى جسر الأعظمية أو الأئمة. كانت الباخرة الصغيرة أفضل واسطة تُتيح لنا الإشراف تماماً على الساحل، تسير بطيئاً، وعلى بعد مناسب لالتقاط الصور الفوتغرافية للواجهات وامتدادها. في تلك الرحلة وزعتُ الطلبة على مجموعات، كل مجموعة مسؤولة عن تصوير كذا مسافة من الساحل، ثم يقومون بنقل تلك الصور إلى رسوم. طلبت في هذه الرحلة مرافقة أساتذة الرسم والعمارة مثل: الأستاذ الجيكوسلوفاكي (باستا)، والفنانة لورنا سليم، والمدرسة صوفيا، والفنان فرج عبو مدرس الرسم.



مع عبد العزيز الدوري
في بيروت (1970)

مقترحات بشأن القسم

كان رئيس الجامعة الدكتور عبد العزيز الدوري، الذي أصبح بعد انقلاب 8 فبراير/شباط رئيساً للجامعة بدلاً من رئيسها السابق العالم الفيزيائي عبد الجبار عبد الله، متعاطفاً مع ما أقترحه من مقترحات بخصوص استقلالية القسم المعماري، ومقدراً اهتمامي الخاص في مختلف مهام التراث العربي والإسلامي، وأيد طلبي لما يمكن أن تحققه كلية العمارة والعمران بين كليات الجامعة وفروعها، ذلك بحكم الصداقة المعمرة بيننا، فقد وافق على بناية مستقلة للقسم، عن كلية الهندسة، تُشيَّد على قطعة أرض عائدة إلى محطة قطار كركوك شرق بغداد.

كان المفروض أن تُخصص الأرض الممتدة من السدة لمجمعات جامعية، رغم أن رئاسة الجامعة كانت بالجادرية. غير أن الأفضل أن يلم شمل الجامعة بكل ملحقاتها، من كليات وأقسام ومكتبات، بمكان واحد، وتكون بوابة واحدة مهيبة، ترمز إلى الروح المعنوية الجامعية وخصوصيتها، تتناسب مع هيبة العلم ورجاله. كانت هنالك فكرة أن يكون مكان القسم في مبنى المتحف العراقي القديم والمهجور، ذلك لقربه من المدرسة المستنصرية، وأسواق الكتب ومدخل الجسر القديم، بعد انتقال المتحف إلى الصالحية.

وبعد المداولات تقدم الدوري بمقترح إلحاق القسم بمعهد الفنون الجميلة، وشُكلت لجنة لتقويم ذلك المقترح، لكني رفضت وأوضحت له الأسباب، إن معهد الفنون ليس مؤهلاً في الوقت الحاضر، ويستحق أيضاً الاستقلالية المتميزة، وأفضل التعاون المشترك لا الاندماج. كان اعتراضي مقنعاً للجنة المكلفة بدراسة اقتراح الدوري. وأتذكر أن الفنان فائق حسن كان أحد أعضاء اللجنة المعنية بالأمر. كذلك واجهت مقترح رئاسة الجامعة، في دمج المجالين، بمقترح تقديم منهج دراسي مواز للمناهج المألوفة في الجامعات الأوروبية والأميركية وغيرها من الجامعات الدولية، وأن تكون الدراسة خمس سنوات، ودعيتُ إلى تأكيد الهوية الفنية العراقية بأوسع مدلول، لا أن يكون الخريج من ذلك الكيان مجرد رسام أو نحات، بعيداً عن الأدب والمسرح والعلوم الأخرى. حاولتُ في محاضرة لي في جمعية المؤلفين

والكُتاب العراقيين آن أُشير إلى العلاقة بين الفن والأدب، فالأدب العربي كان يتجلى فيه اللحن الموسيقي، وهو زهو الألفاظ وبلاغتها، لكنه ظل يناغي الحس السمعي بعيداً عن مناغاة الحس البصري.

عبد العزيز الدوري

تربطني بالمؤرخ عبد العزيز الدوري، كما أشرتُ إلى ذلك في أكثر من مناسبة، صداقة مميزة، وهو كما أعرفه أيام لندن وكامبردج كان ينطلق في قراءة التاريخ الإسلامي من الفكر التحرري، وكان متأثراً بأساتذته مثل: البروفيسور مينورسكي وهارولد لاسكي وأعلام الاستشراق، لكنه تحول في ما بعد إلى محاولات إعلاء شأن القومية العربية. ففي الأربعينيات كان اليسار وما يتعلق به من حركة اشتراكية هو المهيمن، وكان العديد من أساتذتنا وزملائنا من الاشتراكيين. لكن ما حصل للصديق الدوري أن تحول من الفكر الليبرالي واليساري إلى الفكر القومي. أكد ذلك في كتابه المعروف آنذاك حول الشعوبية، ففيه قدم الإسلام بميول قومية ضيقة. أما أنا فبقيت محافظاً على أفكاري الليبرالية اليسارية وفهمي الأممي للإسلام. وبالمناسبة كان الصديق الدوري أكثر قرباً مني إلى الفكر اليساري وأنا أقرب منه إلى الفكر القومي، لكن دارت الدوائر وتغير كل منا. فبعد أن كنا متفقين إلى حد ما أصبحنا مختلفين في الجدل الدائر بيننا باستمرار، لم يؤثر ذلك في عمق الصداقة بيننا، وهو في موقع رئيس الجامعة وأنا في رئاسة القسم المعماري. وفي مناسبة من المناسبات اقترح أن أتولى مكانة نيابة رئاسة الجامعة، لكن لم يكن من السهل عليَّ قبول النيابة في الجامعة أو أمانة العاصمة بدافع هويتي الشخصية، ولعل ذلك يقترن بنزعة الفنان والأديب والشاعر وهو الحرص على الاستقلالية.

قبل الدوري كان رئيس جامعة بغداد، منذ تأسيسها بعد 14 يوليو/تموز 1958، الدكتور عبد الجبار عبد الله، الذي تخرج من (M.I.T) وهي أهم كلية بالولايات المتحدة الأميركية، وما يعرف عنه اصراره واقتداره العلمي، الذي توجه بالالتحاق بهذه الكلية. عاد إلى العراق زاهداً بطلب الأوساط العلمية الأميركية في الاستفادة منه، لما يمتلك من مواهب وفهم حضاري. كان طيب القلب، سهل التعامل، بذل جهوداً كبيرة في تثبيت أركان الجامعة.

بحكم حقوق وواجبات رئاسة القسم المعماري ورئاسة مهندسي جامعة بغداد، كنتُ أحضر اللجان التي تخص التعليم الجامعي، ومن جملة تلك اللجان لجنة مشروع جامعة البصرة، فقد تقرر برغبة سياسية من رئيس الوزراء أن يكون موقعها مدينة الزبير، مع أن ساحل شط العرب هو الأكثر ملاءمة لقيام مثل هذا المشروع. فحوض شط العرب هو المكان المناسب للجامعة. فلا أدري، ما هو الداعي في تفضيل الصحراء القاحلة على جنة الله، الشط الذي اجتمعت فيه مياه دجلة والفرات، وعلى ضفتيه غابات النخيل الكثيفة، وما فيها من تفاصيل جميلة أخرى! غير أن يكون بفعل مسألة لا علاقة لها بالعلم! وكان الرأي الأخير أن تكون في منطقة التنومة، حيث شط العرب. إلا أن رئيس جامعة البصرة عبد الهادي محبوبة (زوج الشاعرة نازك الملائكة) اقترح أن تكون بالزبير كلية أو كليتان، حتى يرضي الطرف الآخر، ورغبة الدولة أيام عبد السلام عارف.

استمر عملي في رئاسة القسم المعماري حتى 1971، ففيها حصلت على سنة تفرغ. وبعد العمل في الخليج، والفوز بجائزة مشروع مبنى غرفة تجارة البحرين مع دعوة لتنفيذ المشروع، قدمت استقالتي من الجامعة، وبعد إلحاح ومشاورات قبلها رئيس الجامعة، وبقبولها انتهت مرحلة من أهم مراحل حياتي العلمية ومشكلاتها، وكثرة أمانٍ وأحلام لم يكتب لها التحقيق في المستوى الذي كنت أتمناه، لتبدأ حياة عملية أخرى خارج العراق.

جامع الخلفاء

يعد جامع الخلفاء، القائم حالياً في وسط بغداد على شارع الجمهورية قرب الشورجة في محلة صبابيغ الآل، من جوامع بغداد القديمة، وكان يعرف بجامع الخليفة وجامع سوق الغزل، هدم ليدخل في شارع الجمهورية، ولم يبق منه سوى المنارة. تعود عمارته إلى زمن الخليفة العباسي المكتفي بالله، فقد شيد في سنوات حكمه الست (902-908م)، وقيل إن المئذنة، مئذنة سوق الغزل شيدت بعده بحوالى مائة عام. ويذكر أنه كان في فترة من الفترات جامع الدولة العباسية الرئيسي. وهو المسجد الجامع لصلاة الجمعة في شرق

بغداد، عرف بجامع القصر، ثم أُطلق عليه اسم جامع الخليفة، ثم جامع الخلفاء. كان أحد الجوامع الثلاثة الكبيرة ببغداد، تقرأ عهود القضاة، ويصلى فيه على جنائز الأعيان والعلماء، وتعقد فيه حلقات الفقهاء والمتناظرين والمحدثين، ظلت تُقام فيه صلاة الجمعة في القرون العباسية الأربعة الأخيرة.

تفرض هذه الخلفية التاريخية تعاملاً خاصاً يليق بالجامع المذكور، ومنارته منارة سوق الغزل، التي تم تجديد عمارتها في العهد المغولي، وجددت في عهود لاحقة مختلفة. كلفت العام (1961م) بتحقيق جامع يرتبط بالمنارة، كان ذلك في عهد مدير الأوقاف العامة بهجت الأثري، ومستشار الدائرة إحسان شهرزاد، وبدلاً من تكون المنطقة المحيطة بالمئذنة عرضت لتشييد دكاكين، يُلحق بها جامع وميدان، وكان المبلغ المرصود (60000) دينارعراقي (تعادل يوم ذاك حوالى 180 ألف دولاراً) فقط. كان اطلاعي على المئذنة أيام طفولتي، فلا تبعد عن بيتنا بمحلة صبابيغ الآل سوى عشرة دقائق سيراً على الأقدام، وكانت المعلم الدائم في الطريق إلى المدرسة، حتى تخرجي من المدرسة الثانوية. كنت راغباً في التكليف، بحكم الألفة القديمة وتاريخ المنارة العريق، ومتردداً بحكم قلة المبلغ وضيق المكان، فمن المفروض أن تتسع المساحة لاستيعاب جامع يليق بالمنارة وإضافة مبلغ مناسب لعملية الإنشاء والصيانة. في البداية رفضت المشروع للأسباب الآنفة الذكر، لكنني تراجعت بعد إلحاح إحسان شهرزاد بقوله لي: «أرجو أن تقبل المشروع، فإن لم تقبله فسيتحول إلى دكاكين، فأرجو إنقاذه».

حاولت تصميم الجامع بعيداً من زمن العباسيين، مع عمل جدارية، تحمل مشاهد وطبقات وإطاراً حروفياً، يكرر صدى المنارة التاريخي، ويحافظ على هويتها في منع أي تجاوز عمراني عليها. كتبت رسالة باسم الأوقاف إلى أمانة العاصمة، موضوعها أن تمنع الأمانة بيع قطع الأرض المحيطة بالمنارة، وأن لا تظهر الأبنية متعاطفة مع علو الجامع. اكتفيت بهذين الطلبين، رغم الطموح بإزالة الشارع المواجه للمنارة والجامع، لكن القول والتمني شيء وواقع الحال شيء آخر.



منارة جامع الخلفاء المعروفة بمنارة سوق الغزل

وبعد مسح المكان وجدت الأرض رخوة، متسربة فيها مياه المجاري، لذا لا بد من ارتفاع أساس البناء بواسطة عمل قوازيق لتثبيت ركائز كونكريتية كقاعدة للبناء في عمق الأرض. ولتحقيق ذلك اتصلت بمدير شركة (فرنكي بايل)، وكان من الأصدقاء، فحصلت منهم على تسهيلات في السعر. غير أن ذلك لا يتم بلا زيادة المبلغ المرصود من قبل مديرية الأوقاف العامة. حاولت ذلك مع بهجت الأثري فوافق على زيادة (30000) دينار، فأصبح المبلغ العام (90000) دينار، أما المساحة فكانت (1600) متر فقط، وهي مساحة ضيقة بالنسبة إلى أهمية المشروع.

أخذت بنظر الاعتبار أن يكون جامعاً مناسباً لهوية المنارة التاريخية، على مساحة صغيرة، فكانت طريقة المعالجة توهم أن الطراز تراثي. لكن المدير الجديد للأوقاف العامة، الذي حل محل بهجت الأثري، رفض طلبي بإضافة 10% من تكاليف العمل لغرض تحقيق بوابة مناسبة للجامع، وتفاصيل معمارية أخرى. وعند تقييم المقترح أشعرني المدير الجديد، وهو من أهل الموصل، أن اهتمامي في الجامع لأنه قريباً من محلتي، محلة صبابيغ الآل، مع أني أعرف جيداً ما يدور في ذهن المدير الجديد وفي أذهان موظفيه من حسٍ طائفي مقيت، فهو لم يرتقِ إلى سلوك المدير السابق، العلامة بهجت الأثري ومستشاره إحسان شهرزاد، اللذان تعاملا مع المشروع بمسؤولية وحس حضاري.

كنت أميل إلى أن تؤدي الشوارع إلى النهر ولا توازيه، ففكرت بزقاق مشجر بالنخيل، يمتد من بوابة الجامع حتى دجلة، ولما سمع رئيس الوزراء (1958-1963) عبد الكريم قاسم بالفكرة طلب أن يكون هناك ميدان جديد، ويصبح الجامع مركزاً لبغداد، ويمكن أن تتطور الفكرة إلى إيجاد مجمع حضاري يرتبط بالمناطق التاريخية الأخرى، مثل المدرسة المستنصرية والقصر العباسي.

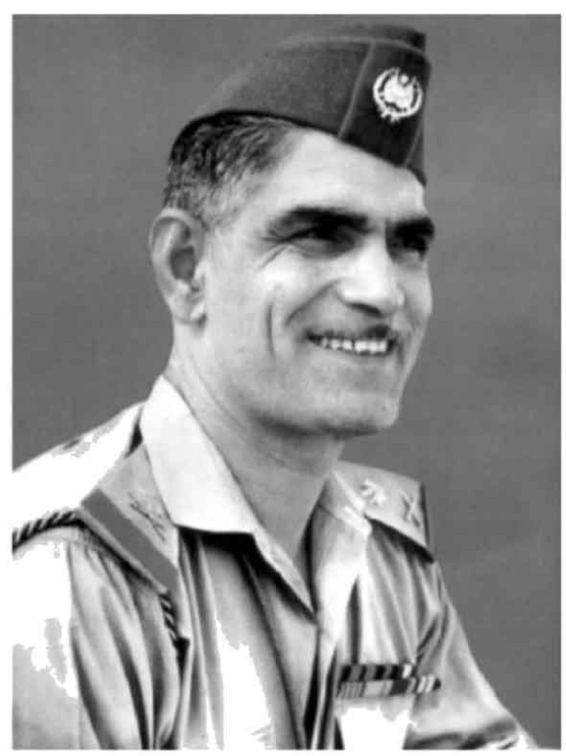
ولعل طلب عبد الكريم قاسم في إيجاد ميدان مشجر بالنخيل له علاقة بما وصل إليه قبل توليه رئاسة الحكومة عن طريق الصديق عمران. تعرفت إلى عبد الكريم قاسم شخصياً، قبل ثورة 14 يوليو/تموز 1958، عن طريق الصديق عمران توفيق، وكان الأخير رجل أعمال، ملتزم بناء أبنية عسكرية، وباعتباره من اليساريين، كان له اتصال بعبد الكريم، لا أعرف ماهيته بالضبط.

في ذلك الوقت كنتُ أطرح تصورات حول الحفاظ على بساتين النخيل، وقيام مجمعات سكنية تحت ظلالها، كان ذلك الصديق ينقل إليه ما كان يسمعه مني، يوم كان عبد الكريم ضابطاً بجلولاء. وبعد الثورة ذكرني عبد الكريم قاسم، في لقاء معه، بما كان يسمع عن مشروع البساتين الذي كنتُ أقترحه بإلحاح عندما كنتُ رئيساً لقسم التصميم والتنظيم بمديرية البلديات العامة، وكان يُرفض جملة وتفصيلاً.

تحريم قطع النخلة

بعد فترة من هذا اللقاء، أصدر عبد الكريم قاسم قانوناً يمنع بموجبه قطع النخيل أو تحويل بساتينه إلى أحياء سكنية، أو أن تُشق محلها شوارع. وعندما عرف أن منارة سوق الغزل منفردة، وأنها منارة دار الخلافة العباسية، وما كان يُحيطها من مزابل، كُلفتُ بتصميم بناء حول الجامع، الذي أرادت الأوقاف إحاطته بدكاكين للاستثمار، وتبقي على المنارة ومصلى صغير. شجع عبد الكريم قاسم ما كنت أرمي إليه في إعطاء منارة سوق الغزل هوية جامع الخلفاء، فهي منارته التاريخية، وانفصلت عنه بسبب الإهمال والاعتداء على البناء بين حين وآخر، لبناء مرافق أخرى. كذلك حاولت أن أشق زقاق من الجامع باتجاه دجلة، لترتبط المئذنة وجامعها ببيئة بغداد النهرية، وأكثر من ذلك اقترح أن يمتد ما بين المئذنة والنهر ميدان، مثل ميدان عالمي.

وقتها فكرتُ أن تتخلل الميدان فضاءات وأروقة. فلو تحقق ذلك الميدان لرفع عن بغداد بعض الغبن الذي تعاني منه، بسبب السياسة العمرانية، وكشف عن هويتها في علاقتها التاريخية بدار الخلافة وجبهة النهر. لكن للأسف قُتل عبد الكريم قاسم في انقلاب 8 فبراير/شباط 1963، ولم تتحقق الفكرة. وقد تولى وزارة الأوقاف في ما بعد شخص سيئ، طلب محاكمتي بتهمة ملفقة، مفادها أن كسية جدارية الجامع كانت صليبية، وأن اتجاه القبلة ليس دقيقاً. وقد اطلعت بواسطة أحد طلابي على الملف المعد لمحاكمتي، ووجدت فيه ما ينوون توجيهه ضدي من اتهامات خطيرة.



عبد الكريم قاسم

افتتح الجامع دون دعوتي بعد ترتيب بوابة مزيفة، غير التي حاولت تحقيقها، وحضر المناسبة ضيوف من خارج محلة الجامع. وحين علمت بموعد الافتتاح سارعت إلى الحضور، لأرى المهزلة بنفسي، لم أمكث غير برهة من وقت الاحتفال، ألقيت خلالها نظرة على المشروع وكيف كانت نهايته. وقد سلف أن ذكرت العوائق التي حاول الشيخ جلال الحنفي أن يضعها أمام المشروع، وبعد فشله أصر على الأوقاف أن يكون له مكتب خاص، لم أوافق عليه لأنه سيكون على حساب رواق الجامع، ومساحته الضيقة.

الجامع وتخطيط بغداد

استمرت مطالبتي رغم محاولة وزارة الأوقاف غلق موضوع جامع الخلفاء، بمهزلة الافتتاح. فالجامع ومنارته بالنسبة إلي يعني بداية في إعادة تأهيل بغداد، والنظر في الأخطبوط العمراني. لذا أعدت الكرة العام 1964، وكتبت رسالة إلى أمين العاصمة، موضوعها «جامع الخلفاء وتخطيط مدينة بغداد»، جاء فيها: «أرفق لكم بعض التقارير بصدد موضوع جامع الخلفاء، وذلك بالنظر لعلاقة تخطيط مدينة بغداد بواقع الجامع والحضارة الهامة. ولإمكانية إظهار مكانة الأبنية والمعالم الأثرية والحضارية في التخطيط الشامل، والذي يهدف بالإضافة إلى تحقيق متطلبات المدينة الحديثة، ومكانتها كعاصمة، ومركز لحضارة العراق بحقولها المختلفة كافة.
كان مشروع تخطيط بغداد يطمح أيضاً إلى تحقيق الاحتفاظ بخصائص بغداد، كعاصمة ومركز للحضارة العربية والإسلامية. إن جامع الخلفاء وكيانه الحضاري باعتباره أهم وأوسع جوامع بغداد الشرقية، والذي لا يزال الجامع التاريخي الموقع، تشهد له منارته الحالية، ولا شك أنه سيأخذ مكانه اللائق في مشروع تخطيط العاصمة وتنظيم الحي بكامله. راجياً أن يؤخذ هذا الموضوع بنظر الاعتبار، وتتحقق على ضوء هذا التخطيط متطلبات المسجد من مساحة وأرصفة وميادين تجاوره، واستقامات بعض الشوارع التي تؤدي إليه. وإلحاقاً لما عرضته لسيادتكم سابقاً، فإني مستعد للقيام بما يتطلبه هذا المشروع التخطيطي من ناحيتي الخاصة بصفتي الاستشارية، واختصاصي المهني في التخطيط والعمارة الإسلامية» (31 مايس 1964). هذه الرسالة كانت واحدة من عشرات الرسائل والمطالبات بتأهيل الجامع، والأخذ بنظر الاعتبار الاقتراحات السابقة، ولكن لا حياة لمن تنادي.

آثار نينوى

مدينة الموصل بشمال العراق لها ما لذي قار في الجنوب، والحلة في الوسط، تحتضن الأثر العراقي القديم، فسومر وبابل وآشور حضارات سادت وما بادت، فآثارها بائنة على المجتمع العراقي، في نمط العيش وفي الفن. ومطالبتي كانت ملحة في حماية الأهوار، على أنها الريف السومري، وحماية منطقة بابل، رافضاً إقامة فندق سياحي على أنقاضها، كان ذلك في اجتماع عقد العام 1969، بحضور الآثاري المعروف طه باقر، ووزير الثقافة الشاعر شفيق الكمالي، لكن السكوت كان من حصة طه باقر على مشروع خطير مثل إقامة فندق سياحي في أشهر منطقة أثرية بالعالم.

وبالنسبة إلى نينوى فكان مشروع دور المعلمين، العام 1965، مهيئاً أن ينفذ على أنقاض العاصمة الآشورية، وكانت البلدوزرات جاهزة لقلع الآثار من مكان أوت فيه آلاف السنين. يومها كنت في زيارة إلى الموصل مع لجنة مجلس السياحة، الذي كنت عضواً فيه، مع طارق مظلوم ممثل مديرية الآثار العامة، وفؤاد سفر الخبير الآثاري المعروف. وبعد العودة إلى بغداد كتبت تقريراً إلى مجلس السياحة الأعلى، منتقداً أن تكون منطقة الآثار محلاً لمنطقة سكنية، وأرسلت التقرير إلى جهات عديدة في السلطة والمجتمع، بعد أخذ الإذن من مجلس السياحة. لكن تحريضاً بارزاً ظهر في الصحف المحلية ببغداد بعنوان كبير «الدكتور محمد مكية يحمي الوثنية». غير أن وزير الداخلية تجاوب مع الحملة من أجل الحفاظ على المنطقة الأثرية، فأصدر قراره المؤرخ في 17 «نوفمبر» تشرين الثاني 1965 منع بموجبه تشييد أبنية سكنية داخل أسوار نينوى، ووقف تخصيص أراضٍ حكومية لجمعيات سكنية.

لجأت، من أجل عرقلة تنفيذ المشروع المزمع قيامه، إلى رئيس الجامعة عبد العزيز الدوري، كي يمنح المشروع السكني أرضاً من أراضي الجامعة بالموصل، أو أن يساعد في قطع أرض من الملعب الرياضي. ثم لجأت إلى وزير الثقافة والإرشاد محمد ناصر، وكان قبل ذلك أستاذاً جامعياً، ووجدته متحمساً لفعل شيء ما. فكتب رسالة باسم مديرية الآثار العامة ومديرية الأبحاث الآشورية، وهما من دوائر وزارته، إلى وزير المالية، صاحب القرار في تعطيل المشروع مالياً. وكان عنوان الرسالة «إنقاذ نينوى» التاريخ (5 يناير/كانون الثاني 1966).

جاء في الرسالة: «إن نينوى، وهي العاصمة الآشورية الشهيرة، قد شيدت في عصور زمنية موغلة بالقدم، وكان لها أعظم الأثر في حياة العالم القديم، إذ كانت مهداً للحضارة ومركزاً للإشعاع الفكري والقيادي والسياسي. لهذا فإن هذه الوزارة، تشاطرها المعاهد العلمية الوطنية منها والعالمية، قلقة في الوقت الحاضر على نينوى، وترى في وجودها والعناية بها دعماً للتراث الحضاري والتاريخي، والتفريط بها يعني الإساءة لبلدنا، وتراثه الحضاري القديم». ثم ذكرت الرسالة بقرارات الدولة السابقة في إهانة المنطقة الأثرية، بداية من السنة 1935، يوم أعطت الدولة حق التصرف للمنتفعين داخل أسوارها، و1936 يوم قطع جزء منها لمنطقة سكنية.

آخر بيت جمعنا ودجلة

بعد إقامة ثلاثة عشر عاماً فكرنا ببيع بيتنا بالمنصور، والانتقال إلى مكان آخر، فالبيت كبير اتسع كما ذكرت لاستضافة القسم المعماري في نشاطاته السنوية، واستضافة معرض الفنان محمد عبد الغني حكمت، يوم تعذر عليه العرض بصالة أورزدي باك. وبعد سفر كنعان وهند لغرض الدراسة بدت هموم الوحدة والوحشة ثقيلة على أم كنعان، ومع هذه الوحدة كانت المخاوف من الصراعات السياسية الدموية، التي كانت منطقتنا ساحة لها، فالرصاصة الطائشة عبر زجاج النافذة من رشاش الحرس القومي 1963 كادت تقتل أحدنا. يضاف إلى ذلك الرغبة في تصميم بيت آخر، أضع فيه ما كانت ترفضه الدوائر الرسمية بأعذار مختلفة، وآخرها كان جامع الخلفاء، ومحاولة ربطه بضفة النهر عبر زقاق وميدان. بعت البيت لشخص من ملاكي شركة حسو إخوان، فاستبدل الطابوق والألواح بالمرمر، ليعبر به عن مركزه المالي الكبير بالعراق.

إن العمل الوحيد الذي حققت فيه بعض أفكاري كان آخر بيت سكناه محاذاة دجلة، فجيرة النهر، ليل نهار، بحد ذاتها كانت أمنية من الأماني العزيزة. صممت البيت على قطعة أرض اشتريتها من ضياء جعفر، وكانت مكاناً لماكنة سقي، اشترك معي فيها قريبي الدكتور مهدي مكية، ورغم صغر الأرض، التي لا تتجاوز مساحتها عدة أمتار، إلا أنني استفدت من امتدادها إلى النهر حوالى خمس وستين متراً، فظهر عليها بيت حميم، ولد الاستقرار النفسي لنا، وبددَّ مخاوف أم كنعان السابقة.



لوحة القرية لجواد سليم عرضت
في معرض الجمعية بالنادي
الأولمبي (1975)

لكن حدث جلل أنهى كل شيء، فما أن أتى البعثيون ثانية (1968) للحكم حتى ظهرت علامات عدم الاستقرار. ويوم من أيام السنة 1971، وأنا في سفر لمتابعة أعمال مكتبي في دول الخليج، استلمت أم كنعان أمراً بإخلاء البيت لعدنان خير الله الطلفاح، الذي أصبح وزيراً للدفاع. وصل أمر الإخلاء بعد اقتحام البيت من قبل جماعة مسلحة، أعطوا تقريراً بقيمة البيت على مزاجهم، وكان التعويض مبلغاً زهيداً.

يومها أصيبت أم كنعان بصدمة نفسية قوية، فقد كانت تعتز به كثيراً، وقررت الرحيل عن بغداد، فليس هناك شيء آمناً، بعد اغتصاب المكان بهذه الطريقة، وساعتها تمنت أن تحل اللعنة على مَنْ سيسكنه بعدنا بالقوة. ولا أدري، هل قال القدر كلمته، مثلما تمنت أم كنعان، فيحرم عدنان الطلفاح من البيت ومكانه الفردوسي رغماً عنه أيضاً، يوم قضى بحادث طائرة العام 1988، لم يعد غامضاً.

جمعية الفنانين العراقيين

العمارة أم الفنون، لعلَّ في ذلك تجاوباً مع فكرة الفيلسوف الذي قال: الفلسفة أم العلوم، وعلاقتهما كعلاقة الشجرة بالأغصان. مثل ذلك تبدو علاقة العمارة بالفنون التشكيلية الأخرى. وقد تتحقق مقولة العمارة أم الفنون في هوية العمارة الإسلامية والفن الإسلامي، فالرقش والزخرفة والخط من مفردات الفن التشكيلي والمهني.

تميز عقد الخمسينيات، بالعراق، بمكانة فنية تشكيلية عكست الهوية العراقية العريقة من عهد سومر وبابل. عبرت تلك المكانة عن نفسها بظهور جواد سليم والمدرسة البغدادية، ومحمود صبري، وفائق حسن وآخرين. تنادى هؤلاء الرواد إلى تشكيل كيانهم الفني، جمعية الفنانين العراقيين. كان هذا الكيان الأول في تاريخ الحركة الفنية العراقية، وهذا ما يجعلنا نعتبرها حدثاً تاريخياً هاماً.

تأسيس الجمعية

ساعدني في تولي مهام التأسيس التصورات التي حملتها من الدراسة بجامعتي ليفربول وكامبردج. فالجامعة الأخيرة تفوقت بنشاطها الفني والثقافي، أعطت الطالب كل الحرية في حضور ما يشاء من محاضرات ونشاطات، ومن تلك المحاضرات حرصتُ على حضور محاضرات البروفسور (شبرت)، وهو يتحدث بعمق عن الميثولوجيا الإغريقية، والأدب الإنكليزي. ومن ذلك أيضاً حرصتُ على حضور محاضرات تاريخ الفن والرسم، والنحت الأوروبي للبروفسور (أريك نيوتن). أدركت من خلال ذلك أن هناك وحدة عضوية بين الفن المعماري والفن التشكيلي، فلابد من نظرة شاملة للفن، بما توحي به البيئة الجغرافية والاجتماعية. ما كنت أتمناه بعد هذا الحدث هو تحقيق الهوية المرتجاة لمدرسة بغداد الفنية، بشموليتها وخصوصيتها المستوحاة من حضارة العراق القديمة والإسلامية.

ظهرت فكرة تأسيس جمعية للفنانين التشكيليين إلى الواقع العام 1954، كمحاولة في جمع الجهود من أجل تحقيق الهوية الفنية العراقية، ولا أعني خلقها بقدر ما أعني التعبير عنها والحفاظ عليها من التأثيرات، وإبراز هوية متنوعة داخل إطار واحد. ولعلَّ في تجربة تأسيس الجمعية مشجعاً لقيام مؤسسات مدنية خارج الإطار الرسمي، فالفن مسؤولية الفنانين لا مسؤولية وزير ثقافة، أو رئيس جامعة، أو عميد مدرسة فنون.

توليت رئاسة الجمعية، وإلى جانبي كان الفنان جواد سليم، ومكانته في الفن العراقي وتعاونه المباشر وغير المباشر، إلى جانب الأسماء التي أشرتُ إليها من قبل. لم يعترض على انتخابي رئيساً أحد من الفنانين، رغم أن الكل يعرف أنني لست رساماً في يوم من الأيام.

إن الصعوبات التي واجهتنا في الدعوة إلى تحقيق مدرسة فنية عراقية متميزة هو اتجاه الفنانين نحو حداثة تمتلك جذوراً وأصالة تعود إلى المدرسة العراقية. وبرأيي إن تأكيد هوية فنية عراقية متميزة لا يعني العودة إلى الوراء باسم التراث وخلفيته. فنجد أن الفن السومري هو أقرب إلى الحداثة من مدارس معاصرة، ومن المفارقة أن يتأثر عمالقة النحت الغربيون، في القرن العشرين، بالنحت السومري، كتأثر (هنري مور)، بينما يتأثر الفنانون العراقيون، على سبيل المثال، بمدرسة (مايكل أنجلو). لكن شعار الجمعية عبر بقوة عن أصالة الفن العراقي، فقد صممه الفنان جواد سليم، بعد الاتفاق بين أعضاء الجمعية، من وحي الرافدين، مع صورة كوديا السومري.

بدأت الجمعية تعرض معارضها التشكيلية في نوادي بغداد المعروفة وقتذاك، فمن المعارض الهامة التي حققتها الجمعية معرض نادي المنصور. كنت عضواً في النادي، ولي علاقة صداقة مع رئيسه علي حيدر الركابي، وأولاده من أصدقاء كنعان، كذلك كان سكرتيره الشاعر بلند الحيدري. زادت معرفتي بالحيدري عن طريق زميل أم كنعان في كلية الآداب (دزمن ستيوارت) الأديب والسياسي البريطاني، وهو من المهتمين الثلاثة بقراءة الشاعر (تي أس أليوت)، إلى جانب (جون هيلوك) و(ألن لين)، ولعل الحيدري عن طريقه أطل على عالم أليوت الشعري. كان الثلاثة منبوذين من قبل الجالية والسفارة البريطانية ببغداد، بسبب آرائهم، وكانت علاقتنا معهم علاقة عائلية، كونهم كانوا زملاء أم كنعان في تدريس الأدب الإنكليزي، في كلية الآداب ببغداد.

في تلك الظروف كانت الفنانة سعاد العطار في السادسة عشرة من عمرها، ومقارنة بصغر سنها بدت رسامة متفوقة، وقد قدمت رسوماتها رغبة بالمشاركة في معرض الجمعية بالمنصور، وحملت توصية من وزير المعارف خليل كنة، لكن هيئة اختيار الرسوم لم تحقق رغبتها، ومن حقها الرفض أو الموافقة، فكان القرار بالرفض. أتذكر أن أم كنعان علقت حينها على رسومات صبية في مقتبل العمر تمتلك جدارة فنية كبيرة، بقولها: عليها أن تُحافظ على رسوماتها فلعلها تصبح رسومات أسطورية في وقت ما، أي أن تتجه إلى الاسطورة، فهي صاحبة خيال متميز، والفنانة سعاد العطار ظلت تتذكر تلك الكلمة.

غير معرض نادي المنصور تولت الجمعية إقامة معرض النادي الأولمبي، الذي افتتحه الملك فيصل الثاني وولي العهد عبد الإله. كانت المشاركة واسعة من قبل الفنانين، ولكثرة الزوار تحول المعرض إلى مهرجان فني كبير. كان من ضيوف الشرف المعماري الكبير (فرانكلو درايت).

بفن يزور بيوت الفنانين

صاحب نشاط الجمعية الفني زيارة وزير الخارجية البريطاني، والقيادي في حزب العمال، بفن إلى بغداد أوان العهد الملكي طبعاً، وقد أدهشنا طلبه من الملحقية الثقافية البريطانية الاتصال بي لإمكانية ترتيب زيارات إلى بيوت الفنانين العراقيين، فلم نسمع بمثل هذا الطلب سابقاً، ولعله خروج عن العرف الدبلوماسي المعمول به. ولتحقيق هذا الطلب اتصل بيَ مدير المركز الثقافي البريطاني في بغداد، يسأل عن إمكانية تنظيم مثل هذه الزيارات، وأن الوزير لا يريد أن يقتصر زيارته على لقاء وجهاء السلطة من نوري السعيد والوزراء. اتصلت بدوري بالفنان سكرتير الجمعية محمود صبري كي يتهيأ لمثل تلك الزيارة، فقد كان موعد سفري إلى إيطاليا في اليوم التالي. وفعلاً أعد محمود صبري زيارة ولقاء، كان أهمها زيارة بيت الفنان جواد سليم. لم يكن طلب الوزير البريطاني عفوياً فلا بد كانت له دراية بدور الفنانين العراقيين الرائد في منطقة الشرق الأوسط.

الملك فيصل عضواً في الجمعية

قدمت باسم الجمعية إلى الملك فيصل الثاني دعوة حضور حفل رأس السنة في بهو أمانة العاصمة، مع دعوة الانتماء، أثناء استقبالي في البلاط الملكي بالأعظمية. ولتواضعه الجم أشعرني حينها بتقدير وحفاوة غير عاديين، كأنه أحد أبنائي أو تلميذ من تلامذتي. فوافق ممتناً من دون تردد. كذلك طلبتُ منه أن يساعد في دعم مهرجان سنوي عراقي كتقليد مستمر، فوافق على المقترح بحماس. لكنه لم يتمكن من الحضور، بسبب إصابته بالزكام، فحضر نيابة عنه رئيس الوزراء، وعدد من الوزراء، وسفراء دول العالم ببغداد.



صورة للملك فيصل الثاني
من رسمه

يومها اضطر الفنانون إلى ارتداء البدلات السموكن، الخاصة بالحفلات الرسمية، وممارسة المجاملات الرسمية مع الضيوف الرسميين من وزراء وسفراء. ومن المصادفات الجميلة، أنه مرت أثناء الاحتفال برأس السنة زفة عرس على باب القاعة، ظهرت وكأنها من فقرات برنامج الحفل، فقد امتزج فرحها الصاخب بأجواء احتفالنا، فأثارت دهشة الحاضرين وتعليقاتهم.

معارض الجمعية

كنا نود أن يتكرر هذا الحدث كتقليد سنوي، لكن الظروف لم تسمح بأكثر من هذا. وكانت فكرة الاحتفال الفني السنوي بمناسبة رأس السنة جديدة في بغداد، وقد اعتدنا على إحياء المناسبة أثناء سنوات الدراسة في بريطانيا، والمكان المعتاد هو قاعة (جيلسي آرت بول) الشهيرة في الثلاثينيات في لندن. كان الفنانون والرسامون ينتظرون المناسبة، وكأنها طقس من الطقوس. في محاولتنا في بغداد تمنينا تحقيق ذلك التقليد سنوياً، فلعلَّ منه نخرج إلى محاولات أرحب بعالم الفن.

من غير المعارض التشكيلية كانت المحاضرات والندوات من نشاطات الجمعية البارزة من تلك المحاضرات استضافت الجمعية، في قاعة معهد الفنون الجميلة، العالم المصري زكي حسن، ومن مؤلفاته الهامة «كنوز الفاطميين»، في محاضرة حول الفن الإسلامي، وتقييمه وحضوره في الفن الحديث. كذلك نظمنا، في نادي الصليخ، محاضرتين للمعماريين رفعة الجادرجي وقحطان عوني. وعند انتهاء العرض أو المحاضرة يدعى الأساتذة والزائرون وأعلام الفن والأدب للمشاركة في جلسة الحوار.

واللافت للنظر أن معارض الجمعية الفنية أخذت تستقطب الأجانب، وأكثرهم من مشتري اللوحات المعروضة. منهم الملحق الثقافي الأميركي (ليتن)، الذي كان يتكلم اللغة العربية بدرجة جيدة. والروائية الشهيرة اجاثا كريستي، كانت أول مَنْ يحضر افتتاح المعارض، حتى تتاح لها فرصة الإطلاع والشراء بعيداً من المنافسة، وحدث أن اعترضت بشدة عندما وجدت صور فائق حسن معلمة بإشارة حمراء أي إنها مباعة، رغم أنها كانت أول الحاضرين. ومن المؤسسات الأجنبية التي ساهمت في تشجيع معارض الجمعية مؤسسة هندسية للتصاميم المعمارية، ومقرها في أثينا (دوكسيادس)، اشترت لوحات جواد سليم الغالية الثمن. كذلك اعتز المركز الثقافي البريطاني بما اقتناه من رسومات ولوحات فنية عراقية اشتراها من معارض الجمعية. وما زلت اعتز بلوحة القرية لجواد سليم، وهي من محفوظاتي ببغداد، وهي لوحة جصية كان سعرها آنذاك خمسين ديناراً عراقياً.

كاظم حيدر

ولعل أهم حدث لعضو لامع من أعضاء الجمعية هو إقامة معرض الأربعين لوحة للفنان كاظم حيدر حول الملحمة الحسينية، وعرضت تحت عنوان «الشهيد»، وكان المعرض اتجاهاً جديداً في ذكرى الاستشهاد، جسد فيها الفنان قصة مقتل الإمام الحسين، وشعائر الحدث السنوية، وهي من أهم أعماله الفنية. كانت لوحات رائعة، سرعان ما اختفت لكن مؤخراً عثرت على واحدة منها. رسم فيها ساحة الحرب، وما فيها من خيول، وملابس، ومعدات قتال، وما يحدث في الحسينيات من أداء مسرحي أسطوري في تلك المناسبة. لم ينظر الكثيرون إلى ملحمة كاظم حيدر بنفس فني صادق، بل اعتبروها ملحمة شيعية، بيد أنها كانت بعيدة عن هذا التصور، والفنان رسمها بتجرد، عبر فيها عن ملحمة من الشعبية، وعمقها في ذاكرة الناس.

محمد غني حكمت

حققت الجمعية للفنان محمد غني حكمت معرضاً للنحت في بيتي بالمنصور، مقتصراً على هياكل صغيرة الحجم. يومها سألني حكمت رأيي في معرضه، أشرتُ أنه لجأ إلى التشبيهية، مع لمسات جسدية وتناغم رقيق، فظهرت الأجسام كأنها ملائكة. وقلتُ له أيضاً لماذا لا تستخدم الحرف وتجعله هو الملاك بدل الجسد والبطن والخصر؟ فتحتُ له أحد الكتب، التي تتحدث عن الموضوع. وتطبيقاً لمقترحي في استخدام الحروفية، كلفته بأن يقوم بعمل باب لبيت أمل الخضيّري، الذي صممته. وبالنتيجة كان الباب من الأبواب المميزة، التي أشير إليها دائماً كعمل فني رائع.

عمل الفنان حكمت لوحة جصية، المفهوم السابق نفسه، خاصة بالجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، وقد تركتها مع ما تركته من مخلفات الجمعية المؤسسة ببغداد. إضافة إلى ذلك ظهرت لهذا الفنان أعمال رائعة أخرى. لكنه تنازل فنياً في تمثال المتنبي، عندما أظهر هذا الشاعر قزماً يقف على الرصيف عند باب المعظم ببغداد، فالتمثال لا يمتُ بصلة لشخصية كبيرة بحجم المتنبي، ودوره في تاريخ الأدب والشعر. كان المفروض بالفنان أن يستوحي عمله «المتنبي» أو «علي بابا والأربعين حرامي» من ملامح عراقية، فالمتنبي كان كوفياً،

وحكاية العمل الآخر كانت بغدادية الأصل. كذلك ما زلتُ ألوم الفنان حكمت على الصورة المشوهة التي ظهرت في عمله لسياج حديد لجمعية المهندسين العراقيين. بعدها تأتي محاولة حكمت في لوحة «علي بابا والأربعين حرامي»، تظهر السيدة في الوسط تحمل دورق الماء. يومذاك كان حكمت قد عاد تواً من فلورانسا بعد عمله مع جواد سليم.



نصب الحرية

كان الفنانون العراقيون يمثلون اليسار قبل 14 يوليو/تموز 1958 وبعدها. فجواد سليم، وهو أشهر منتسبي الجمعية، قام بعمل النصب التذكاري للثورة المشهور «نصب الحرية»، في الباب الشرقي، كما قام فائق حسن بعمل جداريته المشهورة في بغداد عند ساحة الطيران شرق بغداد. حاول جواد سليم أن يحقق أمانيه الفنية والفكرية في نصب الحرية المذكور، وأن لا يخضع لإرادة أحد، فظهرت نصبه معبراً عن ما قبل الثورة، من يوميات حضارة العراق القديمة، إلى ما بعد الثورة من طموحات وأماني، فظهرت ملحمة متكاملة لها خصوصيتها. كان من المفروض أن لا ترتفع هذه اللوحة كل هذا الارتفاع عن الرؤيا البصرية. لكن حسب ما أشارت إليه الفنانة لورنا سليم تحقق الارتفاع بطلب المعماري رفعت الجادرجي وهذا ما لم يكن جواد سليم يتمناه، الذي أراد للوحته أن تجس وتلمس من قبل المارة والأطفال، ولا ضير إن وضعوا عليها إشاراتهم، لا أن تتعالى عليهم بهذا الغرور. كان عذر المعماري المسؤول أن لا تكون بمتناول الأطفال والعبث بها، لكن جواد رد على ذلك بقوله: «يا ليتهم يفعلون ذلك فلمساتهم تزيدها جمالاً وحساً وعطفاً».

كنتُ من الذين طلب منهم المشورة، وتبادل الرأي، في موضوع «نصب الحرية»، ومكانه المناسب، وكيفية التعامل معه كنصب تذكاري كبير. كانت فكرتي أن ينعكس ظلها في الماء، حتى تكون بمتناول البصر بحدود النظر، فعندها يستطيع المشاهد الإحساس بالأم والطفل، وهما من اهم عناصر اللوحة. أما ارتفاعها الحالي فقد جعلها كالشبح البعيد. لكن عند المقارنة بين لوحة «الحرية» ولوحة «الجندي المجهول» بالعلوية تظهر الأخيرة ساذجة، لا معنى لها، ولا روح فيها، وهي عبارة عن قوس تدور حوله السيارات.

مقابل ذلك استخدم شاكر حسن الحروفية، وقد جللها بمغزى روحاني. كما ظهرت الحروفية في معرض الفنان جميل حمودي، المقيم في باريس، وقد صودف معرضه زيارتي إلى فرنسا، فكان اللقاء ممتعاً معه. تجولنا معاً في معارض باريس الفنية، منها معارض (الأرت كاليري)، وبيوت المزادات العلنية، ولأول مرة شاهدت معارض متميزة من الفن الأفريقي، والفنون الآسيوية الأخرى.

كان محمود صبري سكرتيراً لجمعية الفنانين، وهو من الفنانين الماركسيين، ومازال على قناعاته حتى الآن. كان كذلك مع أن علاقته بالعهد الملكي جيدة، وبعد الثورة أصبح مديراً عاماً لمديرية المعارض. كان معظم الفنانين العراقيين، من أعضاء الجمعية، متأثرين بفنانين عالميين، من الرواد الكبار، وحاولوا السير على هدى حوزات فنية وفكرية، وهذا بطبيعة الحال كان مألوفاً. فبيكاسو تأثر بغيره، لكنه لم يكن ناقلاً مباشراً، بقدر ما كان تأثره عبارة عن اقتناء، وهيمنة على الفكر والفن السائد في حقبته التاريخية، لذا تمكن من امتلاك مدرسة تأثر بها الآخرون.

معرض الرباط

في تلك الفترة كانت تُقام معارض عديدة دولية، وطلب مني أن أذهب إلى المغرب، لتنظيم المعرض العراقي في الدار البيضاء، الذي سيفتتحه الملك محمد الخامس، وصودف ذلك زيارة ملك الأردن الحسين بن طلال للرباط، وقد علمنا بوجوده مؤخراً. كنت أتوقع زيارة الملك حسين المعرض الدولي الكبير مع الملك محمد الخامس، فحاولت التقليل من الشعارات التي حملناها معنا بعد ثورة 14 يوليو/تموز، وما يتعلق بها من إساءة للنظام الملكي، والعائلة الهاشمية، وتمجيد الثورة، ونواحي ثورية أخرى.

لفت انتباهي في تلك الرحلة أن أسماء المحلات التجارية، والدوائر بالمغرب كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، يوم كان الملك محمد الخامس يقوم بمحاولة التعريب، لذلك كنا نرى إلى جانب الكلمات الفرنسية ما يُقابلها باللغة العربية. لكن العربية التي كانوا يكتبون بها تبدأ، مثل الفرنسية، من اليسار إلى اليمين. ومن شهود سريان اللغة الفرنسية بين المغاربة أن المتسولين كانوا يتسولون بالعبارات الفرنسية.

بعد الهيمنة

بعد هيمنة البعثيين على الحكم أصبح الفن خاضعاً بالكامل لمعايير السلطة، وشعاراتها اليومية، في تلك الظروف تحولت جمعية الفنانين إلى نقابة سياسية. تصدر الجمعية مَنْ هم هواة الفن السياسي، وبهذا تحول الفن، الذي حرصت الجمعية التقيد بأصالته، إلى دعاية للسلطة. كانت بادرة سيئة أن يقوم الفنان خالد الرحال بعمل نصب تذكاري للدرع الحربي، أو نصب السيفين بقياس أربعين متراً. وقد برر لي أحد الفنانين المعروفين ما عمله من نصب لا تُليق بتاريخه الفني بقوله: «إننا مضطرون»!

ساهم الفنانون، ومنهم مَنْ كان عضواً في الجمعية، في حملة أمانة العاصمة لتزيين بغداد بالنصب التذكارية. كنتُ رافضاً لمثل تلك الحملة، ففيها يصبح وجه بغداد كئيباً وبائساً. وحين أبلغني الفنان محمد غني حكمت ما عرض عليه العمل على تمثال للمنصور العباسي - أقول العباسي لأن هناك منصور جديد آخر في هذا الزمن خلع على نفسه مئات الألقاب ومنها المنصور - قلتُ له: يجب أن تعرف تاريخ حياة المنصور وسيرته بدقة، حتى يتسنى لك فهم مَنْ هو! وبعدها تتمكن أن تضع ملامحه بما هو قريب من شخصيته وأخلاقه، وهذا لا يتحقق إلا بعد تتبع سيرته، وكيف كان يدفن الناس وهم أحياء، لمجرد أنهم من العلويين، أو غير مؤيدين، بعد اطلاعه على معطيات حياة ذلك الحاكم، قال لي في ما بعد: «إنه مجرم حقاً! والمطلوب مني أن أظهره شخصية خليفة، إذاً سأنحت له قبضة حديد».

طرحت محل النصب التذكارية فكرة الجداريات، وهذا ما اقترحته لتخليد الشاعر معروف الرصافي. وهناك أمثلة عديدة من الفن العراقي القديم تُشير إلى أفضلية الجداريات على التماثيل أو النصب، فبدلاً من وضع الرصافي بشكل مجسد تافه لا روح فيه، وهو يلبس السدارة، والسيارات بكل ضجيجها تدور حوله، كان يفترض أن يُعالج الموضوع بطريقة تُليق بمنزلة الشاعر الكبير، لا بطريقة تظهره بهذا المظهر التافه.



نحن والواسطي

كان من المفروض، مثلما بالدول المتقدمة، أن يكون لمعهد الفنون الجميلة مكتبة واسعة في مجال الفنون، على الأقل، مع أن طلبة الفنون يجب أن يحصلوا على المعرفة في شتى المجالات، والأهم منها تاريخ الفن وأعلامه التاريخيين مثل شيخ الفنانين الإسلاميين الواسطي. فقد كنتُ أرى في مدرسة هذا الفنان نموذجاً حياً لتطور الفن الإسلامي، كان فناناً شاملاً في شتى مجالات الحياة، ففي لوحاته تظهر الملابس، والرحلات، والأعراس، ودفن الموتى وغيرها من صور الحياة اليومية. لا أدري، لماذا تجنب فنانونا الاقتداء بالواسطي، وما رسمه من لوحات خالدات، مع الحفاظ على العلاقة بين الماضي والحاضر.



مع ام كنعان وكاظم مكية ومدحت مظلوم بغداد (1948)



مع مدير الأشعال العامة نازي فتو وأخويه (1948)



أم كنعان مع صديقاتها بغداد (1948)*



لقاء الأطفال في نادي العلوية بمناسبة رأس السنة الميلادية



لقاء الأصدقاء في الستينيات



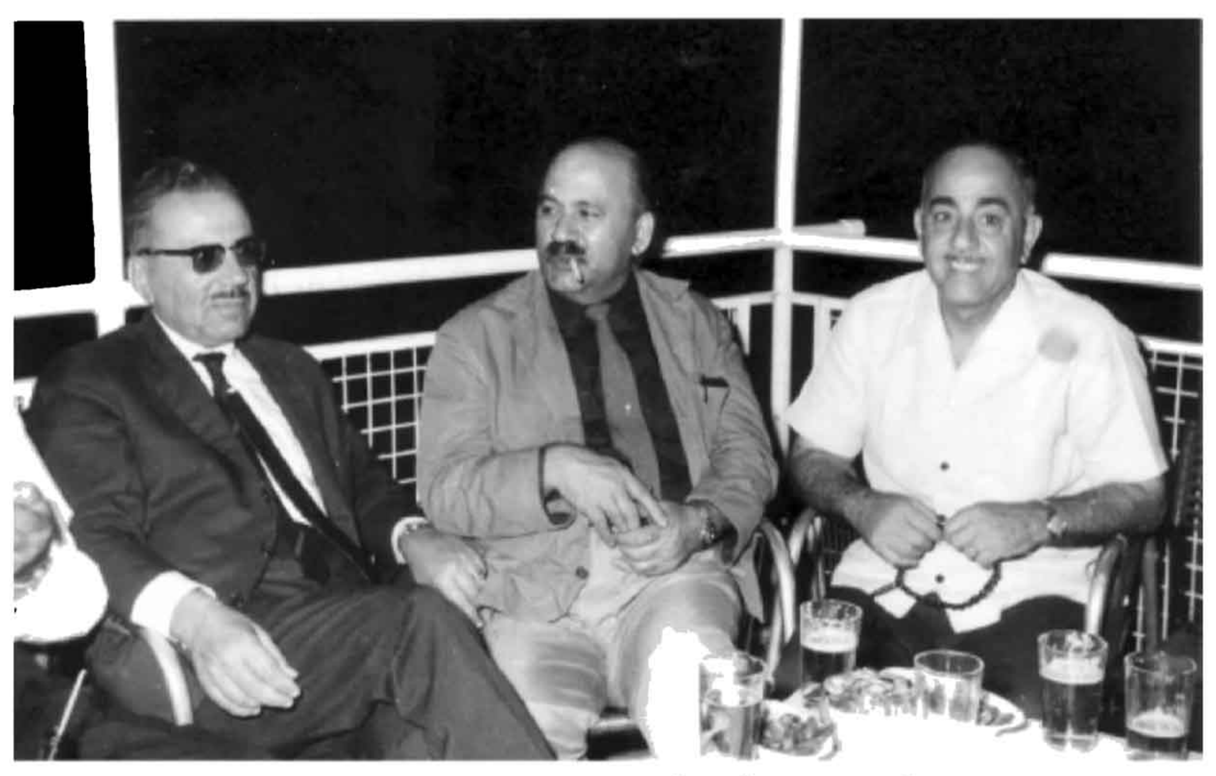
لقاء في المعهد البريطاني. ويظهر إلى أقصى اليمين الصديق محمود الهاشمي وزوجته



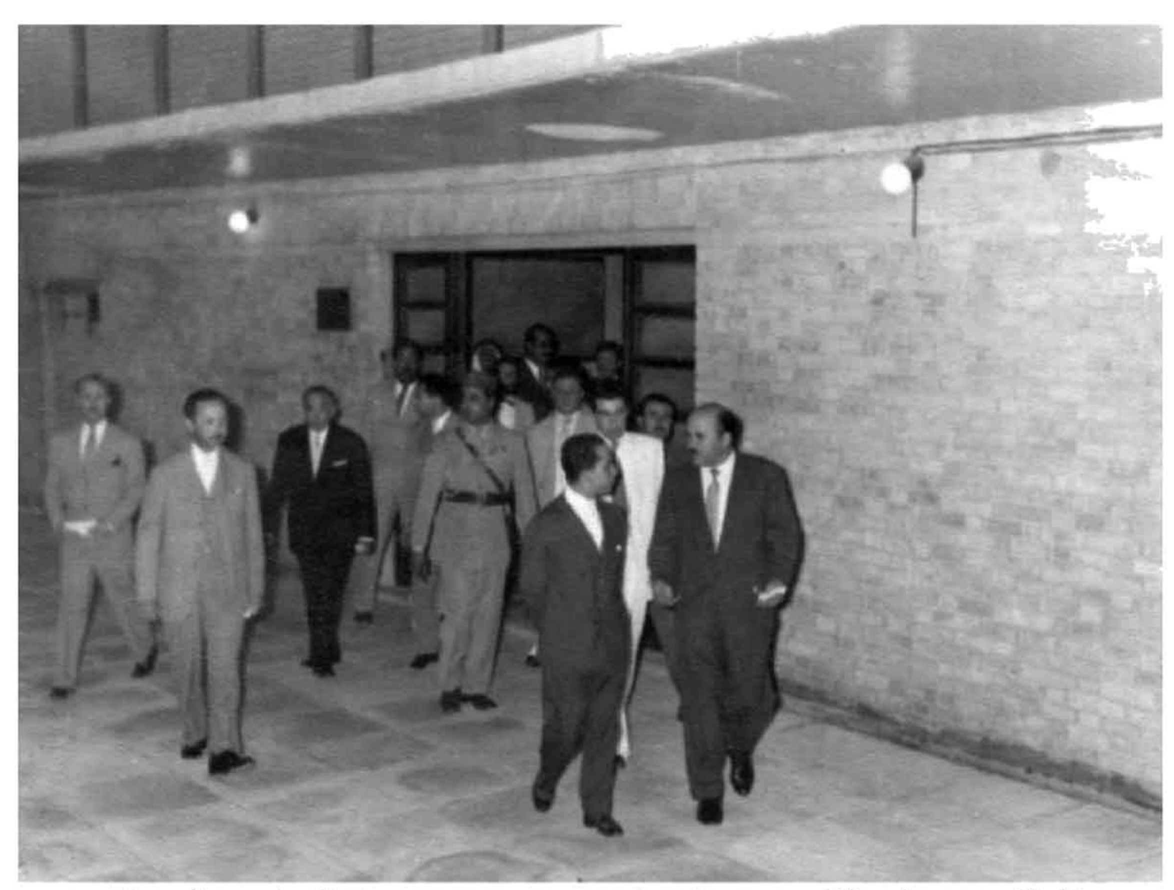
الحفل السنوي في نادي السكك (1949)



حفل لقاء الأصدقاء (1954)



مع كاظم مكية (إلى اليسار) وناصر مكية (1967)



مع الملك فيصل الثاني في افتتاح معرض جمعية الفنانين العراقي في نادي المنصور (1957)



مع الملك فيصل الثاني وعبد الإله وفاضل الجمالي في فتتاح معرض لجمعية الفناين العراقيين (1957)



جواد سليم مع المعماري الدولي فرانك لويد رايت.. ويبدو في الصورة
قحطان عوني ورفعت الجادرجي في معرض الجمعية (1957)



مع أسطه عبد البناء في زيارة لموقع بيت سكرتير رئيس الجامعة



الذكرى الألفية لمدينة «بغداد» والفيلسوف الكندي

يسر الزعيم عبد الكريم قاسم

رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة

دعوتكم لمأدبة العشاء في بهو الأمانة الساعة التاسعة

من مساء السبت ١/١٢/١٩٦٢

البطاقة شخصية
لشخص واحد

بطاقة دعوة لافتتاح مهرجان ألفية بغداد والفيلسوف الكندي (1962)



زيارة في الموقع نفسه أعلاه



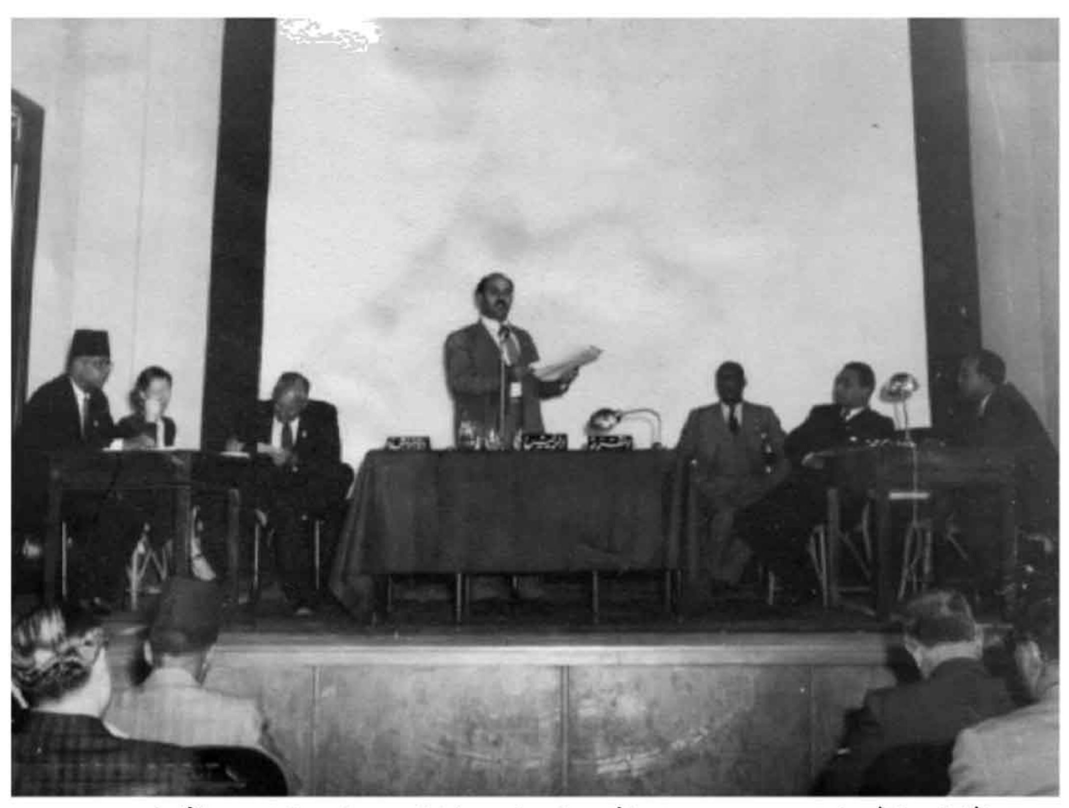
في استقبال كنعان في إحدى الزيارات
(1967)



كنعان في رحلته إلى الدراسة (196



كنعان أثناء دراسة الهندسة المعمارية في أمريكا (1967)



إلقاء كلمة في مؤتمر الدراسات الاجتماعية في القاهرة (1951)



استقبال في إحدى القرى المصرية



مع أعضاء مؤتمر الدراسات الاجتماعية في القاهرة
(1951)



مؤتمر القاهرة (1951)



في المكتب المعماري الاستشاري في بغداد
(1967)



في الحفل السنوي لكلية الهندسة مطلع الستينيات



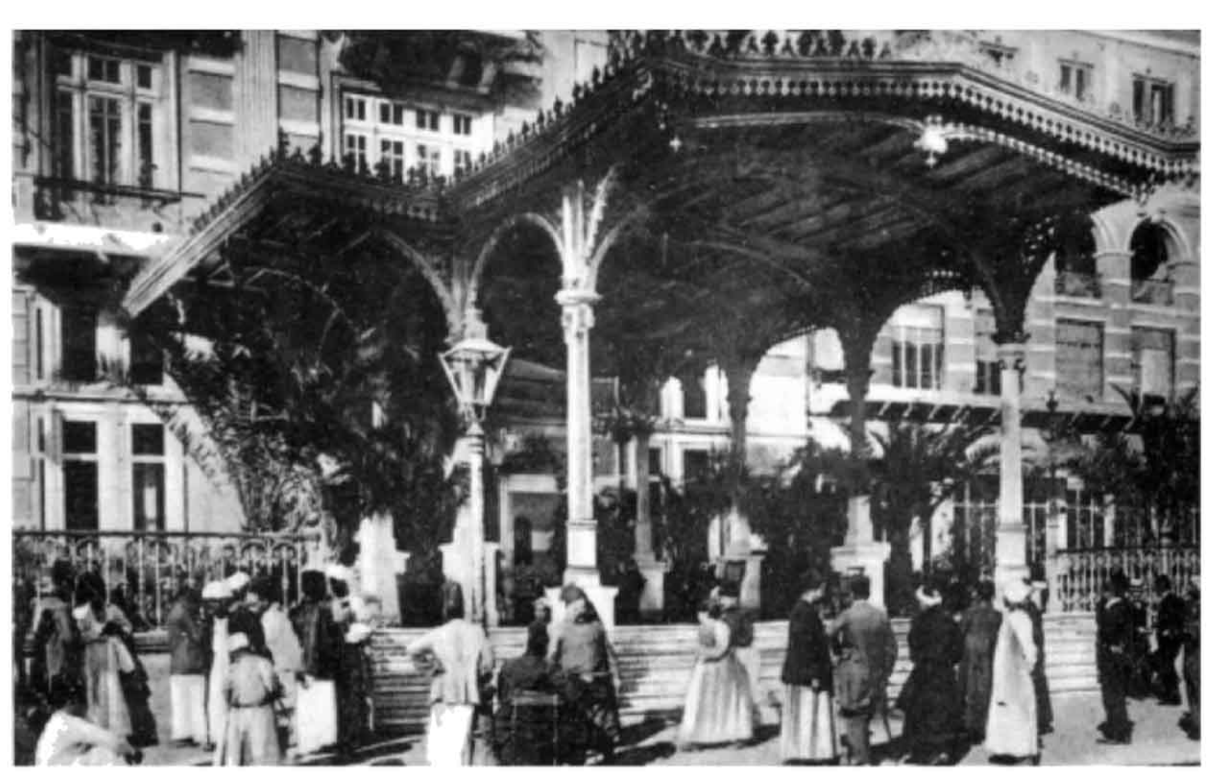
مع أخي عبد العزيز في توديع كنعان عند سفره للدراسة بالقطار (1968)



في إحدى سفراتنا داخل بريطانيا



في زيارة متصرف لواء الديوانية عباس البلداوي مع أعضاء من اليونسكو (1951)



الفندق الذي أقمت فيه في القاهرة (1946)



في منزلنا بلندن



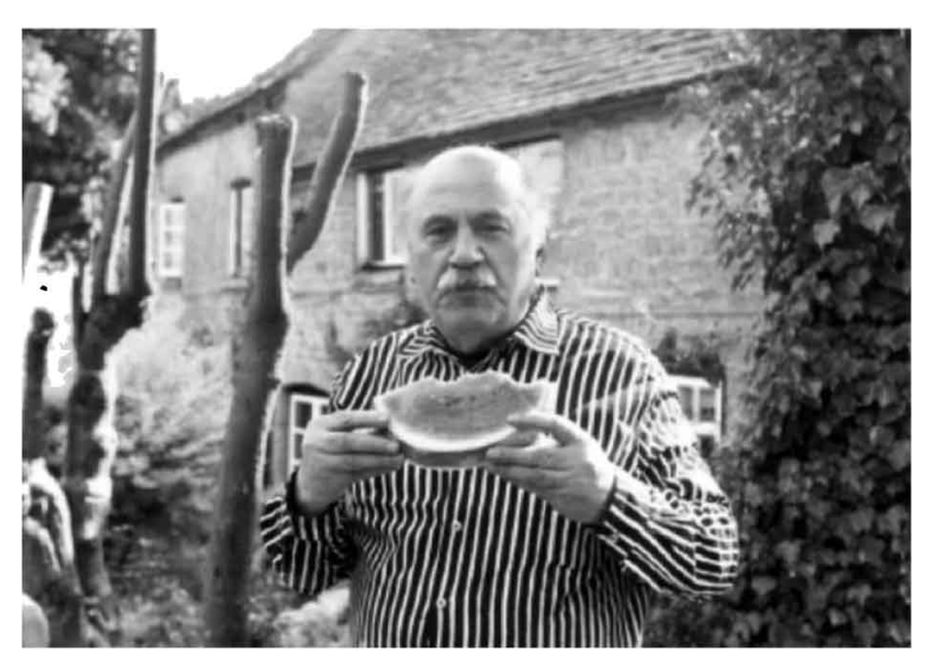
أم كنعان أمام البيت الريفي بأكسفورد في الثمانينيات



بيتنا في لندن



أم كنعان مع والدها في الخمسينيات





في إحدى الرحلات الخارجية

الفصل الرابع: مشروع جامعة الكوفة

ورثت الكوفة إنجازات اقليم العمران الحضاري الممتدة من سومر إلى بابل، وهي بالتالي إنجازات حضارة دولية. ولاختيارها عاصمة للإسلام من قبل الإمام علي بن أبي طالب له أبعد من الدلالة الجغرافية، أي التوسط بين أمصار الدولة الإسلامية، كذلك له أكثر من الدلالة السياسية السكن قرب وبين الأتباع، على أساس أن أهل العراق كانوا موالين لعلي، مقابل موالاة أهل الشام لمعاوية. لا أعتقد أن ذلك الاختيار كان بعيداً عن قيمة تلك المدينة، وامتدادها الحضاري. لم أتجاوز حقوق المؤرخ والباحث، في تقويمي لحاضرة العراق الكوفة، فأنا لم أكن مؤرخاً ولا باحثاً، بيد أنني مثل غيري أبحث عن تفسير لذلك الانتقال، وأن يكون منبر مسجد الكوفة مكاناً لولادة كتاب «نهج البلاغة»، ومكاناً لفقه الإمام أبي حنيفة النعمان ومدرسته الفقهية مدرسة الرأي، وهو كما أشار الباحثون من ولادات أقليم بابل.

والكوفة نقطة ربط بين الوادي الخصيب وبين الصحراء، فعندها تنتهي رحلة القوافل في إيابها، ومنها تبدأ رحلة السفن، حيث ساحل الفرات وامتداد شرايينه في كيان جغرافي طبيعي، حسب ما أشارت إلى ذلك خرائط الأقاليم والبلدان وما يتعلق بسواد الكوفة. لهذا وغيره من الاعتبارات المرتبطة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والفكرية خطر على البال فكرة أن تُكرم تلك الحاضرة بقيام جامعة دولية على أرضها. وبجهودي وجهود زملائي، أعضاء الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، بدأت رحلة التحضير لذلك الصرح العلمي، الذي ما خطينا خطوته الأولى السنة 1966 حتى وأده الكارهون للعلم والحضارة.

الجمعية المؤسسة

في أيام عبد الرحمن عارف - طاهر يحيى قدمنا، نحن الجمعية المؤسسة لمشروع جامعة الكوفة، طلب إجازة تأسيس جامعة أهلية مستقلة عن المؤسسات الرسمية. لفكرة المشروع علاقة بتأسيس نواة اللامركزية، ومؤسسات المجتمع المدني بالعراق. بطبيعة الحال، لم نطرح تلك الأفكار علانية، ولكن هذا هو المعروف من قيام مؤسسة علمية أهلية بالمستوى الذي نطمح إليه. لذلك لم يكن مشروع الجامعة بالمعنى المألوف، أي صفوف وأساتذة، وامتحانات ونجاح وفشل، وإنما هو مشروع تنموي، له علاقة بإحياء وسط وجنوب العراق، في المجال الزراعي والحضاري بشكل عام، ومحاولة لفهم الواقع وما كان عليه من عمران. ومن تفاصيل المشروع التي سأذكرها لاحقاً، سيتيسر فهم ذلك.

كانت بداية التحرك أن التقيتُ والزميل الدكتور كاظم شبر مع وزير الداخلية في مكتب رئيس الوزراء طاهر يحيى، ومعنا قائمة بأسماء الجمعية المؤسسة (ستنشر مع النظام الداخلي والبرنامج في ملحقات الكتاب). وكان السؤال لماذا لا يوجد بينكم، أعضاء الجمعية المؤسسة، عنصر من غير الشيعة؟ من هذا السؤال بانت علامات الخوف الباطني، فكان الخوف أن تكون فكرة المشروع فكرة مذهبية طائفية. أثار سؤال الوزير استغرابي، لأننا لم نفكر أو نلتفت إلى ذلك مطلقاً، فأعضاء الجمعية رشحوا وفازوا في انتخابات نزيهة، بعيدة عما طرح في مكتب رئيس الوزراء، وهذا كان ردي على السؤال المذكور.

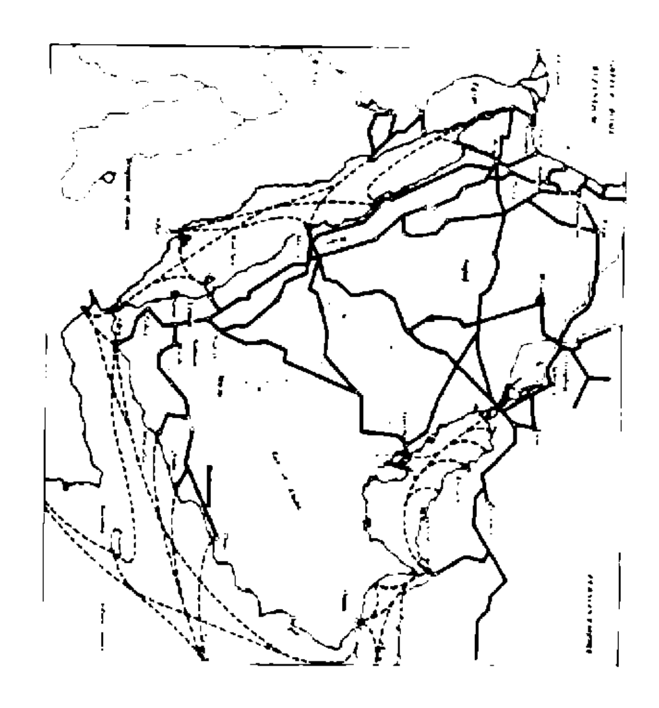
للأسف، كان ذلك الفهم الضيق مسيطراً على العديد من العقول. فما أثار استغرابي أكثر أن ينبري الصديق المؤرخ عبد العزيز الدوري، ويواجهني بالسؤال والخوف نفسه، بعد أن طلبتُ منه، باعتباره رئيس جامعة بغداد، أن يسجل التهاني والتبريكات لهذا المشروع. لكنه واجهني برأي ملخصه: أن يكون ذلك المشروع خاضعاً لجامعة بغداد، وهذا ما يلزم مؤسسات التعليم الأهلي كافة. غير أن عبد العزيز الدوري كان يوافقني، بتأثير تقاليد جامعة كامبردج، من أن مراكز نفوذ الجامعات من المفروض أن لا تخضع بشكل مباشر لإشراف الحكومة وتوجيهاتها.

بحدود ذلك عاتبتُ الصديق الدوري، فهو خريج تلك الجامعات، وذكرته بقناعاته السابقة بأهمية الفكر الاشتراكي في الإسلام. كذلك ذكرته بأستاذه البروفسور (مينورسكي) الروسي الأصل، وقناعاته التحررية التي كان الدوري متأثراً بها. بعد ذلك أجبته على رأيه

القائل بضرورة عائدية الجامعة الأهلية إلى مؤسسة حكومية، بأن التعليم وفقاً لهذا الارتباط سيفرضه السياسيون لا رجال العلم والمعرفة!

ماهية المشروع

للمشروع علاقة بمعالجة الزحف السكاني إلى بغداد، ومراكز المدن، وتقويم ومعالجة نتائج الهجرة المستمرة، وما يتميز فيه الجنوب والوسط من كثافة سكانية. وبالنسبة إلى الهجرة من الشمال فجامعة الموصل قد فتحت أبوابها، في تلك الآونة، وستلعب دورها في الحد من الهجرة ومعالجة فوضى الاستيطان. بعد دراسة الموضوع بتأن خرجنا بنتيجة أن يكون للجامعة المرتقبة دورها في معالجة أمور الاستيطان، وأن تطور البلد، أي بلد، لا يلزم أن يكون حكراً على سلطته المركزية، وإنما يجب أن تنشأ مؤسسات أهلية تمارس ذلك الدور، ومنها المؤسسات العلمية.



على سبيل المثال أن تطور المجتمع البريطاني، وحل المعظلات الثقافية والاجتماعية التي تواجهه لم تكونا من شأن الحكومة البريطانية فقط، وإنما هناك جامعات أكسفورد، وكمبردج، وأدنبرة، والمتحف البريطاني وغيرها من المؤسسات العلمية والثقافية. فليس من المعقول أن تحتكر الدولة التطور الثقافي ممثلة بوزارة المعارف أو الثقافة والفنون مع وجود مقدرة لدى مؤسسات أخرى أجدر من قدرات المؤسسات الرسمية.

لماذا الكوفة

قد يُطرح السؤال: لماذا اخترتم الكوفة دون غيرها من مدن الجنوب والوسط العراقي؟ إضافة إلى ما قلته في المقدمة عن ميزات هذه المدينة التاريخية والجغرافية يمتد سواد الكوفة إلى سواد الجنوب حيث سواحل ومياه الأهوار والتكامل مع سواد البصرة، اي يشمل المكان امتداد سكاني وبيئي شاسع كثير الخصوبة عميق التاريخ. وتُعد الكوفة، حالياً، جزء من النجف حيث المركز العلمي الديني، ولعلَّ في هذا القرب، بعيداً عما فُسر بالطائفية، يتحقق تقارب بين العلم والدين والتنمية الاقتصادية والاجتماعية. فما لاحظته من معطيات الفكر الإسلامي ومنه الشيعي أن هناك تخلفاً مريعاً، لا صلة له بحياة ومتطلبات الناس. كذلك ليس للمشروع طموح في منافسة مركز النجف العلمي والديني، كما أعتقد بعض رجال الدين، من الذين يخشون من زحزحت مراكزهم. ولا يفوتنا من الكوفة مكانها الوسط القريب على كل الديار العراقية، قياساً بالمسافة مع غيرها من المدن الأخرى، وليس بالضرورة أن تكون بغداد مركز كل شيء.



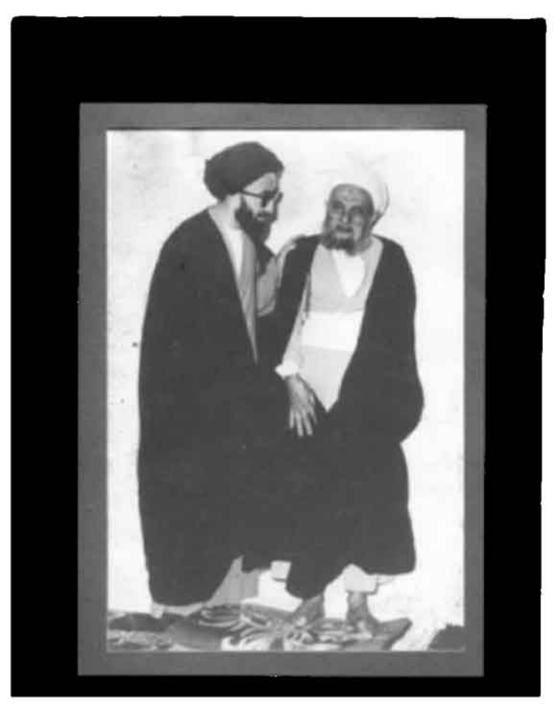
مع السيد محسن الحكيم

تأييد وتبرعات

مع كل ما أُثير، وقتذاك، من تساؤلات حول المشروع لكنه، كما لاحظنا ذلك، أنه نال تأييد الجميع، ماعدا النفر الذي لم يستطع التغلب على ظنونه وأوهامه. ومن الذين بكروا في التأييد رئيس المجمع العلمي العراقي الشيخ محمد رضا الشبيبي، مع إشارته إلى أن مدينة الحلة لها مواصفات الكوفة نفسها، فمن الأفضل أن تؤخذ مكانتها بنظر الاعتبار، لكنه أقتنع أن قيام جامعة بالكوفة لا يعني أن تنحصر مهامها بالكوفة فقط، فستنتشر في مجال جغرافي أكبر، عن طريق الفروع والمؤسسات.

مع السيد محسن الحكيم

بأثر ذلك رُتب لنا موعد لقاء مع السيد محسن الحكيم، عن طريق ولده السيد مهدي الحكيم، تم اللقاء وبارك الحكيم المشروع. ساعتها أشار إلى ولده محمد باقر الحكيم بالسكوت عندما أقترح أن تُعرض مناهج الجامعة الدراسية على حوزة والده. قال الحكيم لولده ما معناه: ما علاقتك بذلك! كذلك التقيتُ بالشيخ أغا بزرك الطهراني، وهو من رجال العلم المشهورين، في الحوزات الدينية الشيعية، وقد استقبلنا بترحاب ومودة، وأتذكره أنه صعد، بجسمه النحيل وما يحمل على كاهله من عقود طويلة، السلّم إلى رفوف مكتبته العامرة ليهدينا كتاباً من كتبه لعله «الذريعة إلى تصانيف الشيعة». وفي إحدى زياراتنا إلى النجف، أنا والدكتور علي الوردي، زرنا السيد أبا القاسم الخوئي، وجرى حوار معه حول مشروع الجامعة، وكان متواضعاً تواضع العلماء، وعمد إلى محاورة علي الوردي، في ما يكتبه في علم الإجتماع، وفي تلك الزيارة سمعنا من الخوئي تبريكاته للمشروع أيضاً.



الشيخ آغا بزرك الطهراني
(إلى اليمين)

كان حميد كبة من أوائل المتبرعين للمشروع، فقد تبرع بألفي دينار عراقي، أي ما يُعادل آنذاك أكثر من ستة آلاف دولار. وتبرع رجل الأعمال كاظم مكية بقطعة أرض كبيرة، مجاورة لجامعة بغداد بالجادرية، وقد رصد لها مبلغاً كبيراً، على أن تكون فرعاً للجامعة ببغداد. ومن الأخوة الكرد تبرع رشيد عارف بمبلغ أربعة آلاف دينار. لقد دلل تبرعه وغيره من العراقيين السنَّة على أن هوية المشروع عراقية لا تخص طائفة أو مذهب. كذلك هناك عدد من إخواننا المسيحيين باركوا المشروع بطيب خاطر ومودة، منهم الباحث في الآثار فؤاد سفر. ولكثرة ما وصل وما سيصل من تبرعات عينية بدأنا في التخطيط لإنشاء مخازن لخزنها، تُستعمل في ما بعد في شؤون الجامعة، وأخذ التبرعات على شكل عينات كان بطلب من المتبرعين، من الذين لا يحبذون التبرعات النقدية، فمنها ما كان قطعة أرض.

وفي محاولة جذب التأييد للمشروع من خارج العراق إتصل عضو الجمعية المؤسسة محمد الجصاني، وحمل منشورات الجامعة من نظامها الداخلي وأحداث أمسياتها إلى الكويت، ونُشر منها ما نُشر في الصحافة الكويتية، وقد أقترح أحد التجار الكويتيين أن يكون المشروع نحو جامعة عربية، حتى يحتضنها كل العرب، وقال: إنه على استعداد لإقناع الكويتيين في التبرع لهذا المشروع. وقد عرض الزميل الجصاني ما دار من أفكار بالكويت بشأن المشروع، بعد عودته إلى بغداد، على أعضاء الجمعية المؤسسة. ومن الذين التقاهم الجصاني، بمعرفة موظف السفارة الكويتية بالعراق عبد الصمد تركي، وكيل شركة (كَريفن) الذي رحب بالفكرة، ووعد أن يُرتب اجتماعاً مع مَنْ لديهم المقدرة المالية. فكان الاتفاق أن يسافر وفد من الهيئة الإدارية للجمعية المؤسسة إلى الكويت، من أجل اللقاء بالتجار وغيرهم، وحثهم على دعم المشروع، لكن ذلك لم يحدث، فهناك من أعضاء الجمعية مَنْ كان غاضباً من عدم نشر اسمه مع ما نُشر من أسماء أعضاء الهيئة الإدارية في الصحف الكويتية، إضافة إلى ضيق المجال



لم يقتصر التأييد على المؤسسات والشخصيات من داخل العراق، بل وصلتنا رسائل تأييد من جامعة شيكاغو، ومن الفيلسوف (برتراند راسل)، ومن البروفسور (أدمس) صاحب كتاب موضوعه حول حوض نهر ديالى، وكان رئيس مؤسسة المتاحف بنيويورك، ويصدر مجلة مهمة بأميركا. ومن أفكاره، التي وردت في رسالته، أن الإستشراق ظهر في مكانه المناسب، حيث حوض الفرات وسواد الكوفة، فمكانه ليس شيكاغو، أو أي مدينة أوروبية. ما نُلاحظه في هذه الأفكار أن جامعة الكوفة ستظهر في مجالها الجغرافي المناسب، وستوفر الفرص للعلماء أو ما يُعرف بالمستشرقين. ومن المؤسسات العالمية، التي حرصنا على مخاطبتها: مؤسسة التغذية الدولية، ومؤسسة إعمار الصحاري والأراضي القاحلة، والمؤسسة الأخيرة خصصت نسبة من إمكاناتها لإعمار عدد من المدن العراقية. إتصلنا بتلك المؤسسة عن طريق متصرف لواء كربلاء، على اعتبار أن الجمعية المؤسسة لمشروع جامعة الكوفة ليس لها صفة رسمية، يصعب عليها الاتصال مع أي جهة خارجية، لكن المتصرف المذكور كان يدعوني إلى حضور اجتماعاته معهم، وما أثار حزني أن المتصرف الطيب قد أُعدم في العهد البعثي، في ما بعد.

الشروع بالتخطيط

أجرينا مقابلات وحوارات عديدة مع شخصيات رسمية ومدنية فارتأينا البدء بتأسيس الجمعية المؤسسة، وبعدها نُقدم طلبنا بتسجيل الجمعية حتى تكون لها صفة قانونية، وقد أعطينا الأسباب الموجبة لها، وبعد السؤال والاستفسار وصلنا خطاب الموافقة، ووفقاً لذلك أعلنا عن قيام الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة. اتخذت الجمعية المؤسسة مقراً لها بكرادة مريم، منزل رقم (4/3/7)، هاتف رقم (36525)، وقد عقدنا فيه عدد من الندوات والمحاضرات، وأمسيات رمضانية لعبت دوراً مهماً في التعريف بالمشروع.

اعتقدنا في بداية الأمر إننا سنحتاج إلى سنتين لإعداد المناهج الدراسية، وتحضير ما يمكن تحضيره من مساعدات مالية ومادية أخرى، من الأرض إلى الأجهزة. ولهذا الغرض انبثقت لجان متخصصة من الجمعية العامة، منها اللجان العلمية والتعليمية والهندسية والمالية وغيرها. وقمنا بالتحضير لبرنامج مداه حتى العام ألفين، وما يترتب عليه من ضبط عدد الخريجين من مدارس الجامعة الابتدائية والمتوسطة والثانوية. كانت الفكرة أن لا تنحصر مهام الجامعة بمنح الشهادات، وإنما تأكيد الخبرة في المجالات المهنية، وأهمها الخبرة الصناعية والزراعية.

فما اعتاد عليه طالب المتوسطة والثانوية العراقي التوجه إلى التعليم النظري، للحصول على شهادة جامعية، تؤهله أن يكون موظفاً في مجال من مجالات الدولة، لكنها لا تؤهله إلى الخبرة العملية، ومع هذا التعلق بالوظيفة الحكومية، هناك أعداد كبيرة من مدن الجنوب

والأهوار تحاول الاحتفاظ بمهنة الآباء والأجداد، وبطبيعة الحال لا يتحقق لها ذلك إلا عبر التعليم المهني المناسب. فما وضعناه بالحسبان أن تكون هناك دراسة مسبقة، تساعد الكل في أن يكون بمستوى التفوق العلمي والمهني.

طبيعة القبول

تقرر القبول حسب نتيجة الامتحان الداخلي، ومن يتفوق في هذا الامتحان يُعد للدراسة بالكلية المناسبة، بعد امتحان قبول لا يعتمد الجانب النظري فقط، أو ما عرف به امتحان القبول التقليدي في كليات جامعة بغداد. وإذا لم يجتاز المتقدم هذا الامتحان فسيمنح فرصة أخرى في مجال آخر، بعد عبور السنة التحضيرية. ومَنْ يعجز عن ذلك فأمامه الدراسة المهنية في المجال الصناعي أو الزراعي. كان الأهم في الأمر، من الخيارات المتعددة، أن يكون الطالب بمستوى دراسي مناسب، يضاهي المستوى الجامعي، وما يحققه طلبة الجامعات العالمية.

تقرر تجاوز المستوى الحكومي المحدود إلى المستوى المعرفي الشامل، ففي مناهجنا نجمع بين الأدب والفن والعلم. على سبيل المثال كنت طالباً في المدرسة الثانوية ببغداد، في فرع الرياضيات، وكانت كل دراستي رياضيات، ولهذا ما زلت قاصراً في الكتابة والإنشاء، والسبب أن الدروس الأدبية كانت مهملة في فرع الرياضيات.

يحقق التعليم الشامل معارفَ معترف بها في المؤسسات التعليمية الجامعية. ولعلَّ ما قرأته في مجلة التخطيط العمراني، وأنا في جامعة ليفربول، عن المستوطنات الإسرائيلية بفلسطين بأن سكانها القادمين من أوروبا استطاعوا تحقيق استيطان زراعي، بسبب أن معظمهم كانوا خريجين، وحملة شهادات من مؤسسات أهلتهم لذلك، وهذا ما تفتقد له مؤسساتنا وجامعاتنا. وارتباطاً بتعليمنا القاصر ظلت مؤسسات الإصلاح الزراعي، والبنك الزراعي الصناعي مجرد ألفاظ، لم تحقق شيئاً جاداً. وما تحقق في منطقة أبي غريب لم يكن بمستوى مستوطنات قروية. لقلة معرفة، ودافع القهر السياسي خُربت طبيعة الأهوار الفردوسية، فانهارت الزراعة وتأثر الاقتصاد الطبيعي في منطقة هور الحمار. إن إصلاح الخراب لا يتحقق بالنيات الحسنة، والعواطف السياسية فحسب، وإنما يحتاج إلى مؤسسات علمية متخصصة، قد لا تُحققها أي سلطة سياسية دون المؤسسات المدنية الأهلية، وهذا ما كنا نفكر فيه عند الشروع بتأسيس الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة.

تأسيس مكتبة

من الأمور التي كانت تهم الجمعية كثيراً تأسيس مكتبة كبيرة، وقد بدأ الاستعداد لها بتخصيص غرفة من غرف مقرها، اعتمدنا على التبرعات في شراء المصادر والوثائق من أنحاء العالم، وكنا نُسجل تلك المصادر باسم المتبرعين. أما تنظيم وأرشفة المكتبة والإشراف على تأسيسها، بطريق علمية، فهي مهمة الدكتور حسين محفوظ، وهو من العلماء المختصين بالمخطوطات، وصاحب جريدة «البلاغ»، وكان محباً لفكرة المشروع، ومشاركاً فيه مشاركة فعالة.



حفاوة الجمعية بالجواهري في إحدى الأمسيات (1968)

كنت أزور السيد كاظم الكتبي بالنجف، لمتابعة مزاد الكتب هناك، فهو من أقدم الوراقين الأحياء بالعراق، واتفقتُ معه على شراء الكتب، فكان أحد المؤيدين المتحمسين للمشروع. علمت، في ما بعد، بما حصل للصديق الكتبي، وراق العراق الأول، أنه هُجر في حملات التهجير في الثمانينيات من القرن المنصرم. علمنا لكثرة التردد على أسواق الكتب، أن مكتبة الكونغرس الأميركية المشهورة تتزود بالكتب النادرة عن طريق جماعة تقوم بشرائها من المزادات، ثم تبعثها إلى هناك. كانت الفكرة أن يُتفق مع ممولي المكتبة المذكورة بتزويد مكتبتنا بنسخة مصورة من كل كتاب نادر، وبصورة لكل كتاب نُشر بالنجف من السنة 1909 من مزادات النجف.

قد يسأل سائل لماذا السنة 1909بالذات؟ الجواب: أن الحركة الفكرية والأدبية الحديثة بدأت بالنجف في مطلع القرن العشرين، أي في العقدين الأخيرين من ليل العثمانيين الطويل بالعراق، وعصر ذاك بدأت تظهر الجرائد والمجلات المعبرة عن تلك الحركة، وظهرت طباعة الكتاب، وحسب استشارة المختصين بتاريخ الكتاب أنه لم يصدر كتاب بالمعنى الحديث قبل ذلك التاريخ. ومع ذلك قد يكون هناك من الكتب التي نشرتها النجف قبل 1909، وهذا ما لا علم لنا به.

لفتت انتباهي مكتبة العلامة الكبير الشيخ آغا بزرك الطهراني العامرة، التي احتوت الآلاف المؤلفة من الكتب، فمن صفحات كُتبها ومخطوطاتها ألف موسوعتيه المعروفتين: «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، وكتاب «طبقات أعلام الشيعة». وقد سلف أن ذكرت تحمسه وانفعاله فرحاً بنا أن صعد السلم، رغم تقدمه بالسن ونحول بدنه إلى رفوف الكتب ليهدينا منها، مع أنه يعرف بأننا لم نكن من أهل الالتزام الديني، وبصفتنا علمانيين، لكن كان اللقاء والتفاهم والتعاطف بيننا وبينه حميماً. فما توافر من طيبة وحسن نيات وجدية في مشروع علمي يكفي أن نكون، بمفهوم هذا العالم الجليل، الأقرب إليه.

تخطيط المدينة الجامعية

حرصنا في تخطيط المدينة الجامعية أن تكون الجامعة جزءاً من مدينة الكوفة، وتتعامل معها بشكل حيوي. والفكرة أن تُخصص محاضرات أهلية، بحيث ينكسر الحاجز بين الحرم الجامعي والمدينة، وبذلك تتحول المدينة إلى جامعة كبرى. هكذا كانت العلاقة بين مدينة كامبردج وجامعتها، فلماذا لا يكون للكوفة مثل تلك العلاقة؟ بمعنى آخر أن تتحول الجامعة إلى مدينة، فبدل البوفية يكون هناك سوق، ومطاعم، ومصانع، وورشات حرفية وغيرها من المرافق والمؤسسات.

قررت الجمعية أن يكون تخطيط الجامعة على مراحل، بداية بالبوابة كمركز إداري، ثم البناء والمواقع الدراسية على مساحة أربعة كيلومترات مربعة ونصف الكيلو. لقد شجعتنا تبرعات الأراضي الواقعة على الفرات التفكير بالامتداد إلى الشاطئ النهري. أصبحت الأراضي المتبرع بها ملكاً للجامعة، ومنها بساتين صغيرة، وكان بالإمكان أن نشتري المزيد مما نحتاج إليه من تلك البساتين لتكون

محلاً موقتاً للدراسة التحضيرية. إن المليون نخلة، التي تبرعت بها إحدى المؤسسات، جعلتنا نفكر بجدية في تحويل المدينة الجامعية إلى غابة نخيل. وبعد التخطيط وتثبيت حدود الجامعة قمنا بحفر عدد من الآبار الارتوازية، لتوفير الماء بكميات كبيرة، فللجامعة حقولها الزراعية، وحدائقها الواسعة، وكانت الفكرة أن تمتد تلك الحقول باتجاه النجف.

التخطيط للتمويل

بدأنا شراء الأراضي الزراعية لزراعة الشلب (الرز) في حقول نموذجية، ستوفر لنا تلك الحقول موازنة جيدة تعتمد في تطوير مجالات الجامعة، وأن لا نعتمد على التبرعات التي قد تنقطع بعد حين، فالجامعة المرتقبة جامعة أهلية، لا تمدها الدولة بأي معونة. لذا لابد أن يكون هناك تفكير جدي في مصادر التموين المالي. ستغطي الحقول الزراعية، وعلى وجه الخصوص حقول الشلب، جانبين: جانب التمويل والاستثمار، والجانب الدراسي التطبيقي، وهذا ما يخص الدراسات الزراعية. إن التأكيد على زراعة الشلب سببه أن أطراف الكوفة، وما يجاورها من أراضي الفرات الأوسط، هي أراضٍ مشهورة بزراعة هذا المحصول، الذي يختص العراقيين في تسميته بالتمن. في هذا المجال يقول العارفون: إن كلمة التمن كلمة بابلية أصيلة، يختص فيها العراق دون غيره من البلدان، وأن العرب لم يتعرفوا إلى تلك المادة الغذائية إلا بعد دخول البصرة.

التخطيط الحضاري

كانت فكرة مشروع جامعة الكوفة خطوة في منهاج التخطيط الحضاري بالعراق بصورة عامة، فهي لا تخص الكوفة وما يحيطها من مدن. ما كنا نرجوه أن يحقق المشروع خطوة نحو اللامركزية، وتعزيز الحكم المحلي في الألوية العراقية، وذلك ما كنتُ أتوق إليه في زياراتي للمدن عبر مديرية البلديات العامة. فمبدأ اللامركزية يضمن للألوية ومدنها التعبير عن هويتها المميزة، تساعدها في ذلك خلفيتها التاريخية وبيئتها الجغرافية، بدل الهجرة الواسعة صوب بغداد، التي أصبحت مأساة حقيقية لبغداد وللنازحين إليها. ووفقاً لهذا تكون فكرة جامعة الكوفة قد فرضت نفسها، وإن لم تكن هي فلابد لمشروع حضاري أخر أن يتبلور من شدة الأزمة في كل المجالات، وبأي تخطيط سنواجه المستقبل وما فيه من احتمالات.

كان التعليم في معظم مؤسساته وفروعها حكومياً مركزياً، لاغياً دور المؤسسات الأهلية والمحلية. ومن هنا تأتي فكرة الجامعة دعوة إلى التوازن، وأبعادها ليست علمية فقط، إنما لها أبعادها الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية في مجال تطوير المؤسسات الحكومية، وخلق ليبرالية في العقل السياسي. كما أسلفنا، لم يتوقف طموح مشروع الجامعة على الجنوب أو الوسط العراقي، فإن أبعاد مثل هذا المشروع الحيوي تسري إلى كل مدن العراق، فلم تكن الموصل أو السليمانية وغيرها من البقاع الشمالية بمعزل عن تأثيرات الجامعة. ولعلَّ هذا المشروع خطوة أولى لمشاريع تنموية أخرى. للأسف ما حصل بدلاً من هذا المشروع الحضاري كان مصنع أحذية الكوفة.

أرجو لا يفهم من تعرضي لاسم هذا المصنع أني ضد فكرة مصنع أحذية يسد حاجات الناس، وربما يغلق باباً من أبواب الاستيراد، فيخفف الاعتماد على السلع والبضائع الأجنبية. لكن ما شأن مثل هذا المصنع بالكوفة، وهل تاريخ وريثة سومر وبابل والحيرة يكفيها مصنعاً للأحذية؟ ومع ذلك فيمكن أن يكون ضمن كيان أوسع ورشة كبيرة لصناعة الأحذية. فمدينة مثل الكوفة بحاجة إلى إعادة مجدها الحضاري، بإحياء الأرض من أعلاها إلى أسفلها، بحاجة أن تتعايش مع الفرات، لا يمر عليها دون أن يسري بأوصال مشاريع زراعية وصناعية. ما كنا نفكر فيه أن مشروع جامعة الكوفة سيسد فراغاً كبيراً، ولم يكن هو نهاية المطاف، فالطموحات أكبر من هذا بكثير، وفي مشروع إثر مشروع يتحقق للعراق العودة إلى وضعه الطبيعي، المناسب لهويته الحضارية. إن مشروعاً حضارياً وتنموياً مثل مشروع جامعة الكوفة، سيحقق الاحتفاظ بمعطياته البشرية، فبدل التوجه إلى بغداد يستقر الطبيب والمهندس والشاعر والباحث وغيرهم من أصحاب الكفايات في المدن والأرياف.

استقلال الجامعة

إن ميثاق التعليم الذي ستلتزم به جامعة الكوفة، بشخصيتها العلمية والاجتماعية، أن لا تفرض شخصيتها على المؤسسات الجامعية الأخرى، لكنها من المحتمل آن تكون مثالاً يُحتذى به. فالمنافسة في العلوم لا تحقق مصداقيتها في ظل نظام تعليمي بيروقراطي يسوده التحكم الإداري، وما أن يتغير وزير معارف أو رئيس جامعة إلا وأحدث المسؤول الجديد تغيرات يحاول من خلالها إثبات عهده في ذلك المنصب. فالليبرالية في النظام التعليمي تحقق مؤسسات تسير وفق منهاج علمي، بعيد عن الاجتهاد الشخصي. لذا من أهداف جامعة الكوفة، والذي لم ينل رضا السلطات أن يكون العمل فيها متحرراً من هيمنة الدولة المباشرة، كذلك متحرر من أي نعرة تعصبية سواء كانت نعرة قومية أو دينية أو مذهبية.

فعلى سبيل المثال كانت كلية الآباء اليسوعيين، ومع أن اسمها الكلية اليسوعية، لم تكن طائفية وإن أقترن أسمها بالفكر المسيحي. السبب في ذلك أنها تهتم بالعلوم والثقافة، وأولاد كثير من المسلمين قد درسوا فيها، ومنهم أولادي. كانت المدرسة اليسوعية من أحسن المدارس بالعراق بسبب كونها متحررة من الهيمنة والإشراف الحكومي المباشر، ولم تفرض على طلبتها من غير المسيحيين أن يتركوا ديانتهم، فهي لم تكن مدرسة تبشيرية. فالمدرسون من حملة الشهادات العالية، يمارسون مهنتهم وواجبهم المقدس بعيداً عن النعرات الطائفية، وبالتالي إن الخلفية الدينية والمذهبية لم تكن مخيفة بحال من الأحوال، إذا كان يسودها الانفتاح والتسامح.

الأولوية للزراعة

لم تكن آمالنا من تأسيس جامعة الكوفة خيالية، يصعب تحقيقها، فعندما فكرنا في المشروع كان أمامنا واقع يقبل التغيير. وإن كانت هناك طموحات رومانسية فإنها من باب احتمال التفوق، والتصورات الزاهية للمشروع. ما ينبغي قوله إن هناك تدرجاً في تحقيق المحتمل، لابد أن يؤخذ بنظر الاعتبار، فالأولوية للسهل التحقيق حتى تكتمل المهام، فنحن نتعامل مع تركة كبيرة من الهم الاقتصادي والاجتماعي، ومشروعنا أبعد من أن يكون مشروع جامعة على غرار الجامعة المستنصرية، بل هو مشروع معقد، من مهامه تأهيل المدن العراقية للاستيطان، وأعني في ذلك التخطيط الشامل للاقتصاد والتنمية الاجتماعية.

إن المناطق التي كانت تستفيد مباشرة من المشروع هي مناطق ثرية، كانت ثرية قبل ظهور النفط والاعتماد عليه في تنمية البلاد، وقبل منافسة البلدان الأخرى وما يستورده العراق منها لابد من تنظيم الاقتصاد داخلياً، وما في الأرض من خيرات نباتية تفوق خيراتها النفطية. كنا نميل إلى الاستفادة من مؤسسات دولية اعتمدت الزراعة طريقاً لتنميتها الاقتصادية، وتأهيلها اجتماعياً. فالدانمارك وهولندا من البلدان الصغيرة لكن اعتمادها على تأهيل أرضها للزراعة والمراعي جعلها في مقدمة البلدان في الاقتصاد الزراعي، برزت في كل المنتوجات التي تجود فيها الأرض، ومنها الورد.

إن الموجود في هذين البلدين الأوروبيين قليل جداً إذا ما قورن بمحتمل ما تجود فيه أرض العراق، حيث وفرت الماء وخصوبة الأرض وتنوع المناخ. ما يحتاجه العراق في المنافسة الدولية هو التنظيم والتخطيط، وهذا مطلب لا يتحقق دون تشريعات قانونية، تسمح للمؤسسات الأهلية أن تلعب دورها في تأهيل اقتصاد البلد. من ذلك المنطلق أعطت لوائح برنامج جامعة الكوفة الأهمية للتأهيل الزراعي والصناعي. لكن ذلك لا يعني إهمال الفروع الأخرى، فلكل فرع اختصاصه ودوره في عملية التأهيل. في زيارة لكلية الفقه لاحظت أن مناهجها الدراسية محدودة، وكأن الحياة علوم دينية ولغوية فقط، فماذا سيكون خريج تلك الكلية، وما موقفه من التطورات التي تحيط به، ولماذا لا يكون تعليمه اللغوية يؤهله إلى الإطلاع على علوم الآخرين، وهل أن الدين والفقه يتعارض مع تعلم لغات عالمية مثل الإنكليزية، وماذا عن الفن في مثل هذه الكلية، والكليات الرسمية الأخرى، وهل هناك حياة دون فن.

توصلنا في الجمعية المؤسسة أن تكون الأولوية لتأسيس المعاهد الزراعية والصناعية، والدراسة فيها سنتان للتأهيل ثم الدخول إلى الكليات المتخصصة، تجمع مناهج تلك المعاهد بين المواضيع العلمية والأدبية، وهذا التأهيل يجعل الطالب متمكناً من ثقافة علمية وأدبية. إن تأسيس المعاهد الزراعية والصناعية يؤهل الكادر، الذي نتمكن به من إحياء الأراضي القاحلة، تلك الأراضي الشاسعة التي تمتد من الكوفة والنجف إلى عمق البادية. لم تكن تلك الخطوة مفاجئة في قرارات الجمعية المؤسسة، فقد شاركت قبل طرح مثل تلك الأمور في مؤتمرات دولية، منها ما أختص بإحياء الأراضي القاحلة دولياً.

فكرة مركز البحوث

طرحت ببيروت، في مؤتمر من المؤتمرات التي حضرتها، فكرة إنشاء مركز للبحوث خاص بتأهيل الأراضي القاحلة، يموله المركز الدولي، في مثل تلك البحوث. وقد نجحتُ في اقتراح أن لا يكون مكان المركز بيروت، لأنها خالية من أراض قاحلة، وأن يكون في منطقة تجمع بين التمدن والبداوة (البادية)، كأن يكون بالكوفة مثلاً. كان يمكن في ذلك المقترح أن يأخذ العراق حقه في التأهيل الزراعي والصناعي، فالمهام متداخلة بين القطاعين. وفعلاً وصل إلى العراق الوفد الذي أنبثق من ذلك المؤتمر في زيارة عمل خاصة، وكان الوفد معجباً في مشروع جامعة الكوفة، وما ستحقق من مساهمة في المشروع الدولي لتأهيل الأراضي القاحلة. كانت مناسبة أن يطلع الوفد على تفاصيل مشروعنا، وأبدى الاستعداد للمساعدة.

الهيئات الدولية التي اجتمعتُ معها بتسهيل من متصرف كربلاء، واهتمت بمساعدتنا، هيئتين مختصتين بتوزيع الأغذية، هما: هيئة (أرزون)، وهيئة (فورد اوكنايسيشن). وبما أن العراق لم يأخذ حصته من الهيئتين اقترحوا تسليمها إلى مشروع جامعة الكوفة الناشئ، وعرضوا أيضاً مساعدتهم عند الشروع بتاهيل أراضي البادية، وذلك في حملة التشجير. والتشجير الذي نعنيه هو شجر النخيل، فهناك علاقة تاريخية بين سواد الكوفة وبين النخلة.

إن تصوري عن هذه الشجرة الكريمة إنها عمود إلهي مقدس، نظيفة ومفيدة طوال عمرها وبكل مفرداتها من الرطب إلى الخوص وظلها، لها معطيات عديدة لا يستغني عنها سُكان العراق، فهي للغذاء، ومنها النبيذ الطيب، والنسيج، والأفرشة، وللوقود، ولظلها هيبة على الأرض. ويمكن أن يتحقق لهذه الشجرة التطور في زراعتها، عن طريق المختبرات والمزارعين المختصين. فقد اقترحنا أن يكون يوم الشجرة خاصاً بالاحتفال بالنخلة، فإكراماً لهذا سمية بأخت آدم، كما سلف ذكر ذلك.

رخصة التأسيس

قدمنا أوراق طلب الرخصة، الخاصة بتأسيس المدينة الجامعية بتاريخ 18 تشرين الأول (أكتوبر) 1966، ومن الوهلة الأولى بدأت محاولات التعقيد والعرقلة. لكن تلك المحاولات لم تملك العذر في عدم منح الرخصة، وقد كانت المداولة مستمرة بين أعضاء الجمعية المؤسسة والشخصيات المؤيدة للمشروع. كان الخلاف بين أعضاء اللجنة الإدارية للجمعية المؤسسة حول الشروع بعملية التأسيس، فمن الأعضاء مَنْ أيد البدء بالتأسيس قبل صدور الرخصة، وهذا الرأي يعتمد على تأييد متصرف كربلاء، فقد أعطى الضوء الأخضر للمباشرة بالتأسيس. أما الرأي الآخر فقد أصرَ على البدء بالتأسيس بعد إصدار الرخصة الرسمية من قبل الدولة.

ما عرفناه من ظروف عرقلة الموافقة على الشروع ببناء المدينة الجامعية، إن وثائق طلب الرخصة حولت إلى وزارة الداخلية، رغم أن الأمر ليس من اختصاصها، وتبين أن الداخلية أصدرت موافقتها، لكن الأمر وصل إلى يد المهندس نعمان الجليلي في البلديات، فاعترض على تصميم بناء المدينة، فقد حاول دون أي مبرر إعاقة إصدار الأمر من وزارت البلديات. لقد عبر الجليلي عن قلقه من تأسيس المشروع، وطلب ضمانات لا دا ع لها.

بدأنا بتسييج المساحة المقررة لقيام المدينة الجامعية، على مساحة تزيد على أربعة كيلو مترات، من الأراضي الأميرية، التي منحها متصرف كربلاء لنا. وقد ذهبتُ إلى ورشة من ورشات الشيخ عمر ببغداد لتصميم شعار أو علامة جامعة الكوفة، وقد ثبتنا العلامة، التي قيل أنها ما زالت علامة فارقة بالمكان، وكادت الجامعة تكون، لولا مجيء البعثيين للسلطة السنة 1968.

قرار الإلغاء

على أثر لقائي، وعضو اللجنة الإدارية للجمعية المؤسسة، أحمد الشالجي مع وزير الداخلية صالح مهدي عماش سمعنا قرار الإلغاء، وانتهى كل شيء، وظل مشروع جامعة الكوفة حياً في أذهاننا، ينتظر زمن الخصب الربيعي للظهور، وما حدث لم أعده إلغاء بل تأجيل.

تذرع صالح مهدي عماش بذرائع واهية، منها: أن الجامعة ستكون محلاً لنشاط الشيوعيين. وما سمعته من المعترضين على المشروع، وجهاً لوجه، أن الدولة تخشى من لقاء العمائم والأفندية، ويعنون بذلك حوزة النجف الدينية وأساتذة جامعة الكوفة. كذلك أشار وزير

الداخلية المذكور إلى تعاون بعض مَنْ اعتقلوا بتهمة الجاسوسية، ومنهم عبد الحسين جيتا، أحد أغنياء البصرة، ومن حسناته أنه لم يخل مشروع خيري من مساهمته، وقد أُعدم الرجل في حمام الدم السنة 1969، ثم عُلقت جثته مع مَنْ صُلبوا في ساحة أم البروم بالبصرة. بيد إن أخاه مصطفى جيتا، المبتلي التهمة نفسه، استطاع الهروب بأعجوبة.



محمد مهدي الجواهري

في محاولة يائسة اتصلتُ تلفونياً بالشاعر محمد مهدي الجواهري، وكان عائداً إلى بغداد بدعوة من صالح مهدي عماش، كلفته أن يتحدث مع صديقه بشأن مشروع الجامعة، فالجواهري كان من المحتفى بهم في مقر الجمعية، ومن المؤيدين للمشروع، وقد أجابني إجابة اليائس، بأن هؤلاء لا ينفع شيء معهم، فماذا عساني أن أقول لهم؟ كذلك حاول وزير التخطيط صديقنا المشاط أن يقنع وزير الداخلية عماش بالبقاء على المشروع، لكنه نقل إلى مدير إدارة الجمعية أحمد الشالجي مما قاله عماش: «لا يمكن أن تكون جامعة غير حكومية، إضافة إلى أنه اعتبر المشروع مشروعاً طائفياً». هذه مخالطة، فالذين وافقوا على المشروع لم يكونوا شيعة، بمن فيهم وزير الداخلية ورئيس الوزراء طاهر يحيى قبل تموز 1968، فكيف وافق هؤلاء على مشروع طائفي؟

أكاذيب وافتراءات

على خلاف ما دار بيني وبين وزير الداخلية صالح مهدي عماش في بداية العام 1969، نشرت جريدة الثورة العراقية العدد 158، الناطقة بلسان حزب البعث، تحت عنوان «أسباب حلّ الهيئة المؤسسة» ما نصه: «كان السيد وكيل الوزارة يتحدث في مكتبه الرسمي يوم أمس (20 شباط 1969) إلى عدد من مندوبي الصحف المحلية، وأوضح خلال ذلك الأسباب التي دفعت الوزارة إلى حلّ الهيئة المؤسسة لجامعة الكوفة، التي تألفت بتاريخ 4/3/1967 فقال: إن الجمعية المذكورة عجزت خلال العام الفائت عن جمع المبالغ اللازمة لتأسيس الجامعة المقترحة، حيث منحت السلطات المسؤولة للقائمين على شؤونها رخصة الاكتتاب مبلغ 750 ألف دينار خلال عام واحد».

وخلاف الحقيقة أيضاً ورد في جريدة الثورة ما نصه: «وقد وجه السادة المؤسسون كتاباً إلى وزارة الداخلية، طلبوا فيه تمديد فترة الاكتتاب سنة أخرى، لغرض إتمام المبلغ المقرر، فدرست الجهات المعنية هذا الطلب، ورأت أن ما استطاعت الجمعية توفيره خلال عمرها

هو مبلغ ضئيل جداً، كما أن المبلغ الأصلي لا يُقيم كيان جامعة، بدليل إن ما رُصد لجامعة بغداد مثلاً بلغ 28 مليون ديناراً، وآن التفكير بمثل هذا العمل الضخم كجامعة الكوفة يبدو في رأي الثورة خارج نطاق وامكانات الأفراد».

كل ما ذُكر آنفاً لا أساس له من الصحة، وكان حديثاً كاذباً من ألفه إلى يائه، فلم تُبحث معنا الإمكانات المالية إطلاقاً، بل ما بُحث هو ضرورة حل الجمعية المؤسسة، وغلق مقرها حالاً. أما من ناحية قلق السلطة الكاذب عن عدم توفر الإمكانات المالية فقد توافر لدينا ما هو قادر على فتح الجامعة، وقد وضعت الدولة يدها على حساب الجمعية في بنك الرافدين، وعلى كافة وثائقها، بعد أن أغلقوا مقرها بالشمع الأحمر، وما يؤسف له إننا لم نحتفظ بأي خارطة من خرائط تصميم الجامعة، وما فعله أحد زملائي، أحمد الشالجي، أن وضع في جيبه قائمة أسماء المتبرعين خوفاً من اعتقالهم أو مسائلتهم.

بررت السلطة فعلتها في حجز أموال، وأملاك الجمعية المؤسسة للجامعة في تصريح ورد على لسان وكيل وزارة الداخلية أحمد الأمين جاء فيه: «قررت وزارة الداخلية في وقت سابق حل الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، وتقرر صرف أموالها لأغراض تعمير العتبات المقدسة في لواء كربلاء بالذات». بطبيعة الحال لم يحصل ذلك التعمير الذي وعدوا به، لكن التصريح المذكور، الذي ورد في جريدة الثورة، أراد لفت الأنظار إلى أن المشروع كان طائفياً، بينما لم يخطر على بال المتبرعين أن يُساهم في ترميم أو تعمير العتبات المقدسة، فهذا ليس من مهام الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، وليس في نيتها ذلك.

كذلك نشرت جريدة «الثورة» طلب الجمعية المقدم إلى وزارة الداخلية، بشأن التبرعات، بعد فبركته: «ذكر موقعو الطلب أن الأشخاص المتبرعين يرغبون باستثمار الأموال التي تبرعوا من أجله، وليس لأغراض أخرى، وتوجهوا بالرجاء إلى الجهات المختصة للإبقاء على فكرة جامعة الكوفة بدراسة حاجات البلد من الكليات التي تشتد الحاجة إليها، وإنشائها في هذه المنطقة بواسطة الأموال المتبرع بها».

كما صرح وكيل وزارة الداخلية بكذب وافتراء جريئين، حول ما دار بيننا وبين الوزير، ورد ذلك بقوله: «إننا قابلنا الدكتور محمد مكية والسيد أحمد الشالجي، وهما من مسؤولي الجمعية حيث اجتمعا بالسيد الوزير، واستوعبا الأسباب الموجبة لحل الجمعية، ورحبا بقرار السلطة بتبني إنشاء الكليتين المقترحتين، خصوصاً وأن هذا القرار جاء منسجماً مع المبررات التي انبثقت من أجلها الجمعية».

لم تؤسَّس هاتان الكليتان إلا لتمرير قرار إغلاق الجمعية، ومن ثم إلغاء فكرة مشروع جامعة الكوفة بالكامل، فقد كانت السلطة متخوفة من حدوث ما لا يكون بالحسبان، فالمتبرعون كانوا من مختلف طبقات المجتمع، وينتظرون بأمل فتح أبواب الجامعة، كمؤسسة جامعية وتنموية كبيرة، والدليل على ذلك أن السلطة هددت باعتقالي وتحميلي مسؤولية أي عمل يقوم به تجار الشورجة أو غيرهم ضد السلطة، من إضراب أو غيره، فهم يعرفون أن تُجار الشورجة من أكثر المتبرعين عدداً، ولعلَّ اجتماعهم في مكان السوق يؤدي إلى عمل جماعي قد يزعج السلطة.

رد الجمعية المؤسسة

تأكيداً للحقيقة، وكشف ما ورد من مغالطات فاضحة أورد أدناه رسالة الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة الموجه إلى وزير الداخلية صالح مهدي عماش، المؤرخة 15 /2/1969 بغداد.

السيد وزير الداخلية المحترم

تحية واحتراما

«إشارة إلى المداولة مع سيادتكم بتاريخ 9/2/1969 بشأن المهام التي تولتها الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة (المنحلة بموجب القرار رقم م/ج/213 والمؤرخ 30/1/1969، وعلى ضوء ما أبديتموه من رغبة في طلب المتابعة بخصوص المهام اللازمة في مراحل التعليم الجامعي في الكوفة، وعلى ما تفرضه المصلحة الوطنية لتوسيع الخدمات التعليمية، فإنه يسرني أن أُلخص بعض ما توصلت إليه دراسات اللجان العلمية مرفقاً ببعض ما توافر لي من هذه الدراسات والتقارير. ويمكن أن يُستنتج من مادة هذه الدراسات ضرورة التأكيد على المهمة الأساسية في تهيئة الإمكانات لتحقيق المستوى الجامعي، والتفوق في تهيئة الفرص، وخلق المجال للدراسات التكنولوجية والهندسية والزراعية.

ولقد استجاب الوسط الأهلي لفكرة مثل هذا التعليم في الكوفة، وجُمعت المبالغ والتبرعات في الاكتتاب العام لهذا الغرض، ولهذا الهدف الذي أوضحته الهيئة الإدارية، ولاقى التشجيع الذي لمسناه بين الأوساط كافة. ويلاحظ أن تخصيص هذه المبالغ كان لأغراض التكوين للوجود الجامعي، ولأجل تهيئة ما تطلبه المرحلة الأولى للصفوف والقاعات والمختبرات الدراسية وتكوين المكتبة..ألخ. وإن بعض هذه التخصيصات قد اشترطت وبموافقة الهيئة الإدارية لتشييد مثل هذه الحاجات للأبنية الجامعية التعليمية وللدراسات الهندسية. كما تجمع من تكوين المكتبة من هبات مجاميع الكتب والرسائل العلمية، والتي شارك فيها عدد كبير من الباحثين والأساتذة، وأسهمت مكتبات الجامعات العربية والمتاحف، كانت أمانة لغرض الكيان التعليمي للدراسات الجامعية في الكوفة.



وإن الثقة التي أودعت للهيئة الإدارية، من قبل المتبرعين والمساهمين، هو تحقيق هذا الغرض لا غيره، ولهذا فإن أموالها الحالية، ومكتبتها ودراساتها أمانة لغرض التأسيس العلمي والدراسي، مما يصعب تخصيصه لغير ما أُشير إليه، راجين أن يؤخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار. كما أن الجهود القيمة التي تبرع بها عدد كبير من الأساتذة والمختصين كانت بدافع الحس والوعي بوحي ما تتطلبه المصلحة الوطنية، والمهام العملية والعلمية، في مقومات تكويننا في سلامة النهضة الحديثة، وضرورة استيعابها التكنولوجي والمفهوم الحضاري، وهي بدورها مساهمة عملية أتمنى مؤمناً ومخلصاً أن تكون بذرة لسعي موفق نحو خدمة هذا البلد وطموحه العلمي.

ويطيب لي وبدافع الأمانة والمسؤولية كرئيس للجمعية، أن أنقل لسيادتكم تقريراً موجزاً لما أشرتُ إليه، وبخصوص ما توصلت إليه اللجان العلمية، وما أقرته الهيئة الإدارية، بصدد إمكانية وأهمية التعليم الجامعي في الكوفة، ومراحل تنميته».

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة (المنحلة)

الفكر الشيعي وجامعة الكوفة

أخبرني وزير الدولة السابق السيد عامر عبد الله، أثناء قيام ما سمي بالجبهة الوطنية بين حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعي العراقي، ذكر لي أنه تحدث مع رئيس الجمهورية آنذاك أحمد حسن البكر السنة 1974 حول إحياء مشروع الجامعة المذكورة، فهناك من التبرعات التي حصل عليها المشروع ما يكفي إنجازه، وسبب ذلك أن طلبات سمعها الوزير يوم كان بزيارة تفقدية للمنطقة نيابة عن رئيس الجمهورية. وكان جواب البكر لعامر عبد الله ما معناه: «أنت يبدو أصبحت شيعياً!» واتهام المشروع بأنه محتكر من قبل مذهب أو مؤسسة فهو بمنطقة شيعية، قريبة من النجف، وكان ذلك عقبة حديد بوجه المشروع، أدت إلى إلغائه السنة 1969، أي بعد ثلاث سنوات على انبثاقه. لذا وجب توضح أفكاري وعواطفي تجاه الانتماء الديني أو المذهبي.

أتحدث كشيعي بمفهوم الجزء في الكل، فلم أعني ذلك الانفصال والتقوقع الذي يقود إلى الطائفية، والتعصب لها، حتى نجعل من مشروع علمي وحضاري رهناً للحالة المذهبية. فقبل أن أشعر بإسلاميتي أشعر بإنسانيتي، وقبل أن اشعر بشيعيتي اشعر

بإسلاميتي، ولو كان والديَّ على مذهب أو دين آخر لكنت مثلهما.

تحول الفكر الشيعي من الفلسفة والعلم والاجتهاد إلى السياسة، بفعل الممارسة التاريخية ضد رموزه، فأخذ يعبر عن هويته بالمهرجان السنوي، وبطريقة لا ترقى إلى الاحتجاج على ذلك الظلم، وبما تتطلبه روح العصر. ولعلَّ ذلك المهرجان، وأعني به عاشوراء، حقق للفكر الشيعي وجوداً شعبياً، لذا ظل محبوساً في تقاليده الشعبية فقط، مع اختلاف التعبير عنها من بلاد إلى أخرى. وخلاف ذلك كان طموحي من تأسيس جامعة الكوفة أن يرتقي ذلك الفكر إلى مدار إيجابي يتفاعل مع روح العصر، لبناء مجتمع جديد يُعبر عن أصالته العراقية الوطنية، بما يحققه من تحديات علمية وفلسفية.

أفهم من البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» وضوح القصد والبداية، وهذه العبارة، في هيئتها المذكورة تعبر عن الإسلام، عبادة ومدلولاً اجتماعياً وفنياً، وهي نفسها كانت قبل الإسلام، ولكن بهيئة أخرى «بسمك اللهم». كذلك بالنسبة إلى الأديان الأخرى، تبدأ بالاسم المقدس قبل غيره من الأسماء، فهي واحدة في المعنى، متعددة في الهيئة أو الشكل. جاء الانتماء الديني والمذهبي من خلال العائلة ثم المحلة، محلة صبابيغ الآل. ففي أزقة تلك المحلة لم نشم رائحة التعصب لدين أو مذهب، رغم أن السائد من سكانها كان من الشيعة، فهناك منْ هب من المسلمين، من سكان المحلة، إلى الدفاع عن أبناء محلتهم من اليهود أيام الفرهود السنة 1941.

إن المذهب، بتصوري، قبل أن يكون عقيدة، وطريقة في التفكير والعبادة يمثل وجهة نظر خاصة في الإسلام، أي أنه أخلاق ومعاملة بين الناس، وأن لا يبخس حق الآخرين، بحجة الثوابت والأصول، التي يعتقد أنه يملكها دون غيره. وفي حالتي لعلّ هناك ما يُعزز العاطفة تجاه التشيع، فمولدي كان في يوم عشرة عاشوراء، والنذر الذي فرضته والدتي أن أديه في العزاء السنوي للمحلة، وهو أن أحمل الزنجيل مع منْ يحمله من الأطفال، إضافة إلى أجواء المحلة المملوءة بالعاطفة الشيعية.

غير أن الإسلام ككل، والعقيدة الشيعية جزء منه، يمثلان لديَّ حقيقة تاريخية بمقياس العلاقة بين النظرية والتطبيق، فالفكر النظري الإسلامي الشيعي ساعدني أن أفهم الإسلام كدين ورسالة لها صلة بخلفية العراق التاريخية، وتراثه الديني والفكري والفلسفي، تمتد تلك الخلفية إلى تشريعات سومرية وبابلية، ولا أجد التشريع الإسلامي بعيداً عن استيعاب شريعة الملك حامورابي، المدونة في مسلته التاريخية، والرابضة نسختها الأصلية بمتحف اللوفر بباريس.

حسب مفهومي وعلمي عن الإسلام أنه لا يبدأ بنبوة الرسول، ثم ينتهي ويقف عند وفاته، أي عندما يتوقف اتصال جبرائيل بالأرض. إن مفهوم الرسالة، أي رسالة حضارية، لابد أن تستمر ما زال هناك عقل يفكر، يمنح الحياة كل ما هو جديد من الاكتشافات والاختراعات. من وجهة نظري أن الفلسفة الشيعية تمتد إلى الجنوب السومري، أقول ذلك وأعلم مدى غرابة ما أقول بالنسبة إلى أذهان وتصورات الآخرين، وحجتي في ذلك أن الحضارة السومرية، حضارة الماء والطين، اعتمدت على الري والزراعة. لا أجد غرابة في ما أقول، بعد معرفة أن عمامة رجل الدين اليوم هي عمامة رجل المعبد السومري نفسه. ومن طريف ما حصل في المحاضرة التي قدمها السيد سامي البدري، وهو يعتمر العمامة السوداء، حول الألواح السومرية والبابلية أن أتينا بصورة كوديا، ووضعناها إلى جانبه، أمام الحاضرين حتى نؤكد صحة ما ذهب إليه من أن جذور عمامته، وزيه الديني هي جذور سومرية، وكذلك بالنسبة إلى زي النساء الشائع في الأهوار، أو جنوب العراق عموماً.

ما عرفته عن شخصية علي بن أبي طالب، من المحيط الاجتماعي، ثم ما قرأته في نهج البلاغة جعلني قريباً إلى مدرسة التشيع، بإطارها الفكري والفلسفي، فما رسخ في مخيلتي أن كلمات نهج البلاغة انطلقت من على منبر جامع الكوفة، وما لذلك من علاقة بجدارة هذه المدينة على الإنتاج الفكري، وما في ذلك من علاقة معنوية، بين الفكر الشيعي وجغرافية الوادي الخصيب. لا تتحدد العاطفة تجاه شخصية علي بن أبي طالب بمنظار الفردية، بقدر ما هو حامل رسالة حق، قُتل في سبيلها. من وجهة نظري كان على الإمام علي أن يرفض الخلافة، ويبقى المفكر والفيلسوف الذي يستظل به السياسيون وغيرهم، فمثله لا يصلح للسياسة، التي تحتاج إلى التنازل والتواطؤ، فهي كما توصف بفن الممكن.

إن تقديس الأئمة، وعلي بن أبي طالب في مقدمتهم، إلى هذا الحد يجعلهم في منأى عن ذاكرة الناس. في هذا الأمر أرى أن الانتهاء عند الإمام الثاني عشر المهدي، أن لا يُشير إلى التوقف عن مسايرة المستقبل، فماذا بعد المهدي؟ الفكرة السليمة عن المهدي أن يكون الأمل، وهذا شأن كل فلسفة وكل دين، لا أعتقد أن هناك ديناً ومذهباً ونظرية تخلو من شكل من أشكال النقد. فما أراه أن التصور الشيعي المؤسساتي عن فكرة المهدي غير مقبولة على الإطلاق، يحتاج ذلك التصور إلى التهذيب والتشذيب من الجموح في اللامعقول.

لم يكن الفكر الشيعي بالعراق فكراً طائفياً، وإنما تحركه عن طريق حوزته العلمية، أو مجالسه الحسينية لحماية نفسه، أي للدفاع فقط. ما ألاحظه ويهمني التصريح به بحدود انتمائي الشيعي إنه بعيد عن الطائفية، ومتسامحاً يتخذ من الفلسفة طريقاً له في تفسير ما حوله من ظواهر. فلم تعد النجف مركزاً دينياً فحسب، وإنما هي مدرسة فلسفية وفكرية ولغوية وأدبية، ففطاحل الشعراء والمفكرين ظهروا من أروقة تلك المدرسة.

أرى إن الوقت قد حان لإعادة قراءة التاريخ، سواء كان تاريخنا الشيعي أو تاريخنا بشكل عام، وأن يتحقق ذلك خارج مفاهيم السياسة وتأثيراتها. ثم كيف نتعامل مع الأحداث، وما هي نقاط الاختلاف والالتقاء مع الغير. ما نقرأه في التاريخ مبالغة كبيرة في الأحداث، لم يتحقق في ظلها أي تسامح اجتماعي، الكل ينشدون القدسية لآرائهم، لكنهم لم ينظروا إلى مدى اتفاقها واختلافها مع مصالح الناس، وما هي درجة صلاحيتها للحاضر والمستقبل. بلا شك، إن ذلك لا يتحقق دون احترام وجهات نظر المذاهب الأخرى، والاعتراف بالتنوع بأنه جوهر الحياة.

كنا نزور العتبات المقدسة باحتفالات وأفراح، رغم أن المناسبات تتطلب الحزن، ننشغل في المناسبات عن الروتين اليومي، وكانت بالنسبة إلى والدتي وغيرها من النساء عيد من الأعياد. لم أر من اختلاف جوهري بين تلك القباب وبين زقورات سومر وبابل، وهذا يوحي بعمق الهوية الحضارية بوادي الرافدين. لقد فرضت تلك المعابد صفة التواضع على الحكام، فعند زيارتها يتساوى الناس ليس هناك حاكم ومحكوم، لأن الكل يبتهل ويخشع.

في الفكر الشيعي تجاه التاريخ السياسي هناك معطيات كثيرة تبدو صحيحة، منها أن قدسية الدين وشراكة الحاكم والمحكوم، في ظل الإسلام، تؤكد رفض الشيعة إلى شخصية مثل شخصية يزيد بن معاوية، أو الحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم من الخلفاء والأمراء، فمن الصعب أن نجد لمثل هذين الشخصين مبررات تحاول غسل جرائمهم، وأن تُتبع أسماؤهم بعبارات التكريم، على طريق أن سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين، إذاً أين الفارق بين الحق والباطل، وأين الفارق بين الضحية والقاتل؟!

قد تكون هناك من ممارسات شيعية خاطئة، ولكن من المفروض أن لا نعزلها عن تاريخ الصراعات، فكما قلنا أن الشيعة على مدى التاريخ كانوا في حالة دفاع، فما أصبح شرعاً عندهم في الآذان كقولهم «أشهد أن علياً ولي الله» لا ينفصل عن محاولتهم في تأكيد جبهة دفاعهم، ففي بعض العصور كانوا يواجهون الانحسار وبالتالي الانقراض. ومن الأفضل أن لا يتوقف الشيعة كثيراً في الإصرار على ما جعلوه من الثوابت في عصر ما، فلعله كان ضرورياً في وقته، فأصبح التنازل عنه ليس بتلك الأهمية.

ما أتذكره جيداً أن السلوك الشيعي الاجتماعي، في العشرينيات وما بعدها، كان منفتحاً على الآخرين من المذاهب الإسلامية، وحتى الأديان الأخرى. ففي حياة السوق كان يتعامل الشيعي مع المسلم السنّي، واليهودي، والمسيحي، والصابئي، ولعلّ كثيراً من العائلات الشيعية لم تسأل عن الجار هل سنياً كان أم شيعياً، أم على ديانة أخرى. كانت المعاشرة بالمحلة والطرف تتم بعقد اجتماعي عفوي، لم تدخل السلطة فيه إطلاقاً، بل على العكس أن انحياز السلطة إلى مذهب ما، أو دين ما يقع بلية على الآخرين، فهي تعمل من أجل التعصب إلى ذلك المذهب، أو الدين لأغراضها السياسية الخاصة.

هناك أمثلة لا حصر لها، نتذكر منها انحياز العثمانيين للمذهب الحنفي، خارج تعاليم وفلسفة الإمام أبي حنيفة النعمان الكوفي الأصل. فما فعله أبو حنيفة، مستفيداً من أجواء الكوفة وتاريخها العريق، تشييد مذهبه الفقهي الذي عُرف بمذهب أهل الرأي. وهل هناك جغرافية سمحاء كجغرافية سواد العراق تولد مثل هذا الصرح العلمي، الذي يؤمن بحرية الإنسان وتفوقه في الكون؟

قرأتُ في كتاب اهتم بتاريخ الفكر العقلي، قصة عن أبي حنيفة. أتذكر منها أنه دافع أمام والي الكوفة عن جاره مرقع الأحذية، الذي كان يشرب حتى الثمالة في كل ليلة، وكان أبو حنيفة يستأنس بصوت جاره، وهو يقول الشعر أو يُغني في بعض الأحيان، وعندما افتقده ذهب ليسأل عنه الوالي، رغم أنه معتكف في بيته. فعلاقة هذا الإمام بالسلطة ليست على ما يُرام، وفعلاً سمعه الوالي وأطلق سراح جاره. السؤال هل يتحمل فقهاء اليوم مثل تلك المسؤولية؟ وهل يرتقون إلى ذلك الفقه وذلك التسامح؟ ما يتطلبه الدين اليوم والمذاهب كافة أن ينظروا في مثل ذلك التصرف، وأن لا يجعلوا أنفسهم وكلاء الله على الأرض، يدخلون منْ يشاؤون الجنة ويخرجون منها مَنْ يشاؤون. إن التعصب لا يولد غير العزلة، والتسامح يولد المعاشرة الطيبة في الدار الواحدة، أو الوطن الواحد.

ما أراه في المفهوم الديني اليوم، أن هناك فهماً خاطئاً عن الله. لا أجد الله يتدخل هذا التدخل التفصيلي بحياة الناس، فلو حدث هذا مثلما يتصور فقهاء اليوم لتعطل العقل تماماً. فما يتشدد فيه المسلمون، اليوم، وينسبونه إلى الله عز وجل يبدو خارج المعقول. لا أدري،

كيف نفهم الذات الإلهية بعليائها وقدرتها اللامحدودة أن تتدخل بالأكل والشرب، وتحريم مصافحة النساء، أو مخالطة مَنْ يحتسي النبيذ على سبيل المثال لا الحصر. تبدو مثل تلك المهام أقل شأناً من تدخل الذات الإلهية، وما يفعله الإنسان، ويحاول أن يفرضه على الآخرين ينسبه إلى فعل الله. لا أرى حرجاً من القول إننا ما زلنا دون الفهم الصحيح لخالقنا المتسامي، وما نحرمه ونحلله هو من فعل ضيق الذات البشرية، وما تتفق عليه وما تختلف بشأنه.

وجدت في تصرف والدتي تجاه الأديان الأخرى قمة التسامح الشيعي، فقد كانت ببساطة متناهية تأمرني بمساعدة جيراننا اليهود في إشعال فانوسهم عند الغروب، كانت أحياناً تأمرني بفعل ذلك وهي متوجه لصلاة الغروب وأمامها التربة، التي تعتقد أنها معجونة بدم الحسين. كذلك تعلمت منها أن نشارك اليهود والمسيحيين أعيادهم، وكانت تحتفل إلى جانب الآخرين بما يُسمى بخضر الياس. وكان أكثر زبائن خالي عبود الذراع من العائلات المسيحية، لكن أذكر بحرج أن علاقتنا كشيعة كانت أقرب إلى اليهود والمسيحيين من الأسر السنِّية، ذكرت ذلك لأني لا أريد أن أكذب على نفسي وأجامل مجاملة المؤرخين أو الباحثين، الذين يبتعدون عن ذكر ما يحرج. فكما قلت سلفاً لستُ بمؤرخ ولا أدعي البحث التاريخي، وإنما أروي خواطري، ومن الواجب أن تكون حقيقة.

عاش اليهود والمسيحيون معنا في المحلات نفسها، بينما كانت بغداد تقسم إلى محلات شيعية وأخرى سنية. ما رأيته من أثناء وجودي في مدرسة المأمونية أنا الشيعي الوحيد بين مئات التلاميذ من السنَّة أنه لا مشكلة لي معهم، ما عدا الأيام الأولى التي أحسستُ بها بالغربة، ولعلَّ ذلك له علاقة بالتباعد السكني، إضافة إلى ما يحصل هناك وهناك من تصرفات طائفية يرتكبها المسؤول الفلاني، كانت تتصاعد في العقود الأولى من الحكم الملكي، رغم أن الملك فيصل الأول كان أباً للجميع، قولاً وفعلاً.

من التجاور التاريخي، غير المفهوم من قبل العديد من المهتمين بشأن العراق من غير العراقيين أنه كيف يعيش ويموت ويدفن أئمة الشيعة، علي الهادي والحسن العسكري، في مكان أغلبية سكانه إذا لم يكن كافتهم من السنَّة مثل سامراء. وكيف أصبح ذلك المكان مركزاً للحوزة العلمية الشيعية في فترة من الزمن القريب. لم أكن على بينة من الأمر وأنا أرافق والدتي إلى زيارة ضريحي الإمامين بسامراء، وكانت من أجمل الرحالات بالنسبة إلي. كنا نستأجر بيتاً مجاوراً للضريحين، ونزورهما أكثر من مرتين في اليوم الواحد.

ما عرفته إن كل ما يتعلق بخدمة الضريحين يقوم فيها بالتوارث عائلات سامرائية من أهل السنَّة، أي يمكن التعايش بعواطف نبيلة. فليس هناك مشكلة بين المذهبين من ناحية احترام وإجلال الأئمة من أهل البيت وتقديس آثارهم. كذلك من المفارقات التي لا نجد بداً من ذكرها أن المهدي المنتظر، المتفق المسلمون على اسمه والمختلفون بتشخيصه أنه عاش وغاب بسامراء.

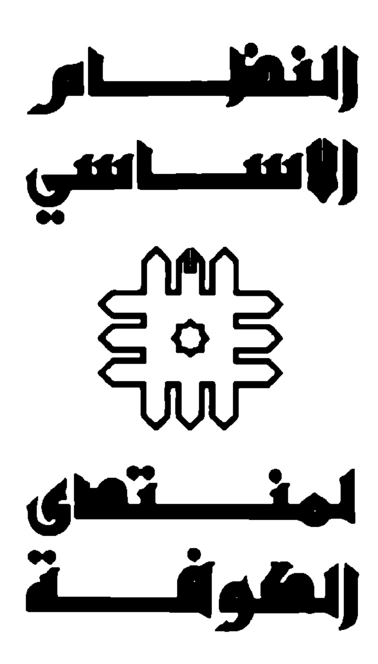
كذلك تأسست بسامراء مدرسة حوزوية هي مدرسة الشيرازي، والتي تعتبر من معالم سامراء الدينية والثقافية، ولعلها المدرسة الشيعية الأولى التي تُقام بتلك المدينة، مع العلم أن العتبات المقدسة الأخرى محاطة بعدد كبير من المدارس، والأمر يتعلق بانحدار السكان المذهبي. كانت آخر زيارة لي إلى سامراء العام 1980، وقتها كانوا قد قطعوا من المدرسة المذكورة مساحة من أجل شق شارع، وقد نظر إلي العاملون فيها بتخوف، فقد كان يرافقني المصور، وعندها قلتُ لهم لا تخافوا منه فهو مسيحي، أي لا غرض عنده من الإساءة للمدرسة. قدمت ذلك ليكون مقدمة للحديث عن مشروع جامعة الكوفة، وما أتهمنا فيه من انحياز طائفي، وكيف كان التخوف من جامعة تبنى قريباً من النجف، مع أن المشروع والقائمين عليه لم يفكروا بمنظور مذهبي.

الغريب بالأمر، إن اسم الكوفة أصبح مخيفاً، وكأنها ما زالت مركزاً للمعارضة، كما كان دورها أيام العهدين الأموي والعباسي. حقيقة لم يكن ببالي وأنا أنوي تأسيس الجامعة المذكورة بأني شيعي، ولكن ما واجهته من تعصب وتعنت ضد مذهبي ما جعلني أتذكر بأنني شيعي، ولعلَّ ذلك دفع بي نحو ما لا أقره في شخصية الفرد العراقي. فالطائفية تغدو مخيفة عندما تظهر من رجال الدولة والسياسة، بينما ما نلاحظه في المجتمع العراقي التطلع إلى التسامح، وتحول الضغوط الطائفية إلى نُكات تسخر منها.

محاولات ليست بديلة

ارتباطاً بمشروع الجامعة، حاولت مع جماعة من العراقيين المهتمين في قيام متحف إسلامي بلندن، وكان من بين المشجعين، على تحقيق مثل هذا المشروع، علماء آثار بريطانيين، منهم البروفسور (ديفيد أون)، وبعض مديري المتاحف البريطانية. وكانت الفكرة أن يكون المكان في مبنى ريجنت بارك بوسط لندن بدار (فورد كولج)، التي كانت معروضة للبيع آنذاك، بيد أن الطموح كان أكثر من هذا،

في أن يكون قرب جسر لندن، بمكان كان مصنعاً للعملة. وفكرة المتحف لم تكن لعرض الآثار فقط، وإنما يكون هناك مشغل ومرسم يحتوي على ستوديوهات للتصوير، وأن يكون نموذجاً جديد للمتاحف.



شعار ديوان الكوفة

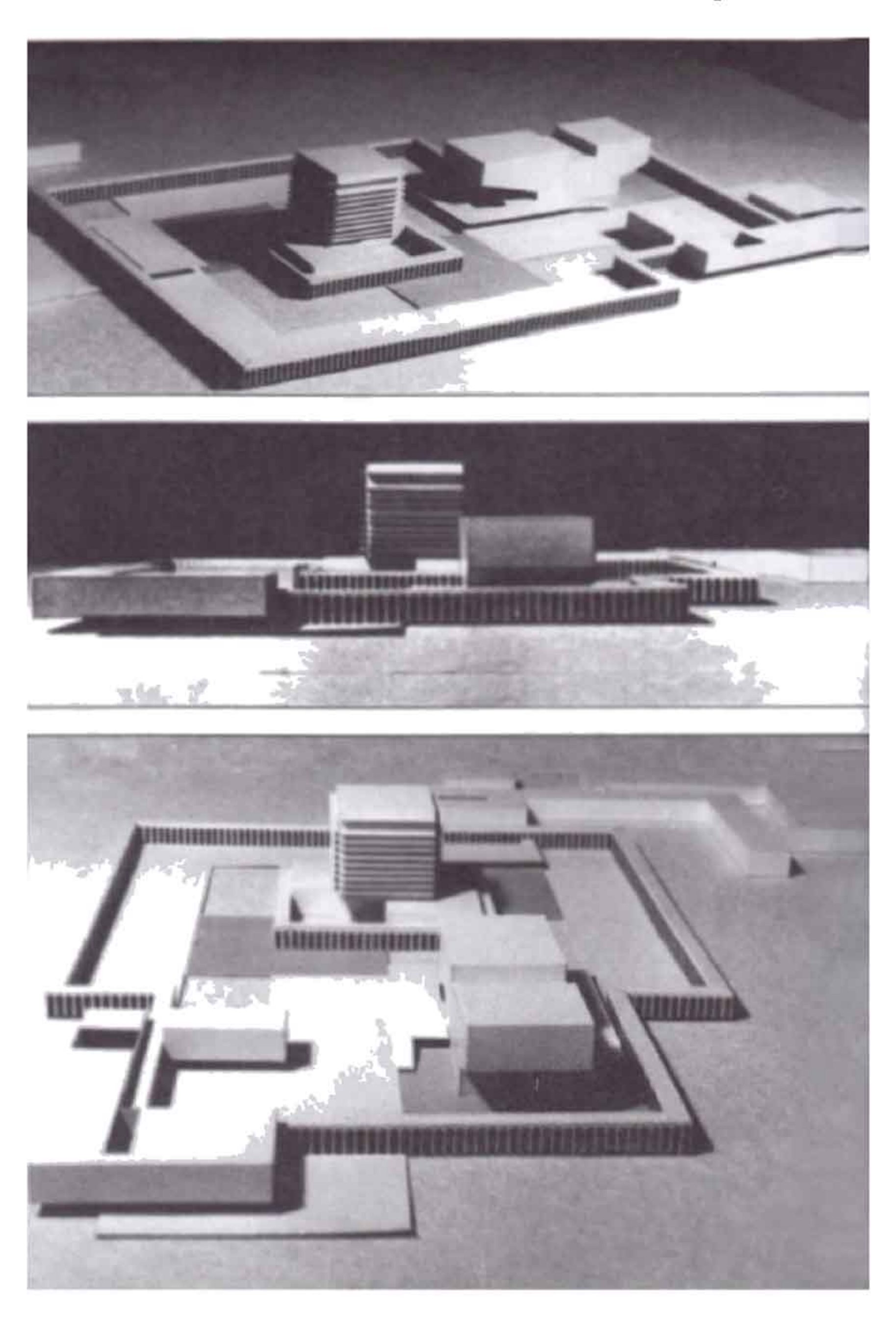
كانت المساعدة مقتصرة على الخبرات، وعرض الآثار، أما المساعدة المالية فلم يتقدم بها أحد. ولم يتحقق ما طمحنا إليه في مشاركة الدول الإسلامية والعربية، فقد نوهت سفارة المملكة العربية السعودية بلندن إلى المساعدة المشروطة، في أن يكون المشروع منتسباً لبلادها. كذلك كان الحصول على تأييد الأمير جارلس مجرد إدعاء من قبل أحد المشاركين بالفكرة.

كان من القلائل الذين استجابوا للفكرة سلطان بروناي، لكن عدم جدية البعض في تحمل المسؤولية، والتخلص من المصالح الضيقة أبعدت تأييد السلطان فتحول دعمه المالي بعد ذلك إلى جامعة لندن، معهد الدراسات الشرقية SOAS ، فتبنى مشروع قيام المبنى المقابل للمعهد المذكور. ففي غمرة التحرك دب الخلاف بين أثنين من المشاركين لدرجة مزعجة لا تدعو إلى التفائل. بعد ذلك بدأ الانسحاب من لجنة المشروع، ولم يبق منه شيء حالياً.

بعدها تبلورت فكرة منتدى الكوفة وبعد اجتماعات طويلة لم تسفر عن شيء فصرفت النظر عن الفكرة للتبلور تدريجاً فكرة ديوان الكوفة، وهو مشروع ثقافي وحضاري أموله شخصياً بعد شراء العمارة التي تحتضن قاعته، وكانت من قبل قاعة مشهورة باسم (ويست بورن كروف هول)، وكانت ملكة بريطانية قد زارتها في الخمسينيات. إرتبط تأسيس الديوان في البداية بمكتبي المعماري بلندن. كانت البداية العام 1986، بجلسات حوار ومناقشة بين موظفي المكتب، الذين يصل عددهم إلى الأربعين أنذاك، تخص العمارة وموضوعات أخرى، وتدريجاً ظهر كيان الديوان، كمؤسسة ثقافية وفنية ذات مستوى وطموح. جاءت فكرة تخصيص مساء الأربعاء لنشاط الديوان تيمناً بمجلس الشخصية البغدادية المعروفة جعفر أبي التمن، في محلة صبابيغ الآل ببغداد، وهاهو يطفئ الديوان خمسة عشر عاماً، متمنياً له أن يتحول إلى مؤسسة جامعية، تفتح كوة من الأمل في إعادة مشروع جامعة الكوفة بالعراق.

إضافة إلى المعارض الفنية، التشكيلية وغيرها، يستضيف الديوان الندوات والمحاضرات الثقافية والأدبية والعلمية والأمسيات الشعرية، والأمسيات الموسيقية. ويحاول تحقيق مهامه في التعريف والتعرف بين الحضارة الأوروبية والحضارة الإسلامية. يتضمن دليل الديوان، المعد للنشر، الأمسيات الأربعائية كافة، بداية من افتتاحه بمعرض أعمالي «أربعون عاماً في التصميم والتخطيط» ومعارض وندوات ثقافية وتكريمية. ومن أبرز المكرمين الراحلين، في ندوات الديوان: الفنان جواد سليم، بمشاركة زوجته لورنا سليم، مع معرض لأبرز الفنانين العراقيين، والمحامي المحقق عبود الشالجي، والباحث علي الوردي، والأديب نجيب المانع، والشاعر محمد مهدي الجواهري، والشاعر بلند الحيدري، والأديب جبران خليل جبران، والمؤرخ حنا بطاطو، والأديب علي جواد الطاهر، والأديب سمير نقاش وغيرهم. ومن المدن التي أهتم الديوان في تاريخها وتراثها: مدينة القدس، ومدن العتبات المقدسة بالعراق، وبغداد، ومدينتي البصرة والكوفة، كما كان لأهوار جنوب العراق أكثر من مناسبة. لا زال الديوان مفتوحاً، ضاقت مكتبته بالكتب التي استطعت إخراجها من مكتبي ببغداد، واللوحات الفنية. أصبح الديوان مركزاً هامة من المراكز الحضارية بلندن، يلبي دعوة التعارف بين الشرق والغرب، عبر استضافات دولية مختلفة، وهو يحاول أن يكون المركز العراقي الثقافي بما سيتبوأه العراق بعد التغيير الكبير من حضور دولي.

أختم خواطر هذا المشروع بسؤال أحد الصحفيين، من المهتمين في الموضوع: هل ما زلت تطمح في قيام جامعة الكوفة؟ كان الجواب: نعم أعيش تفاصيله كل لحظة، ولعلَّ الأماني مجتمعة فيه، ومنه تتفرع.







أعضاء الجمعية التأسيسية لمشروع جامعة الكوفة في استقبال الشاعر محمد مهدي الجوهري بعد عودته إلى العراق (1968)



الجواهري في أمسية شعرية بدعوة من
الجمعية التأسيسية لمشروع جامعة الكوفة
(1968)



أثناء الكلمة الترجيبية بالشاعر محمد مهدي الجواهري
(1968)

النظام
الأساسي

لمنتدى
الكوفة

غلاف النظام
الأساسي لمنتدى
الكوفة بلندن الذي لم
يظهر للوجود



جانب من أمسيات الجمعية التأسيسية لجامعة الكوفة في مقرها
بغداد (1968)





لقاءات الجمعية المؤسسة



مع الشيخ محمد حسن آل ياسين ومدير المكتب أحمد الشالجي (1968)



في أحد اللقاءات







مجموعة اللقاءات مع الشيخ آغا بزرك الطهراني
بالنجف في حملة التبرعات للمشروع





مجموعة لقاءات مع الشيخ آغا بزرك الطهراني بالنجف في حملة التبرعات للمشروع

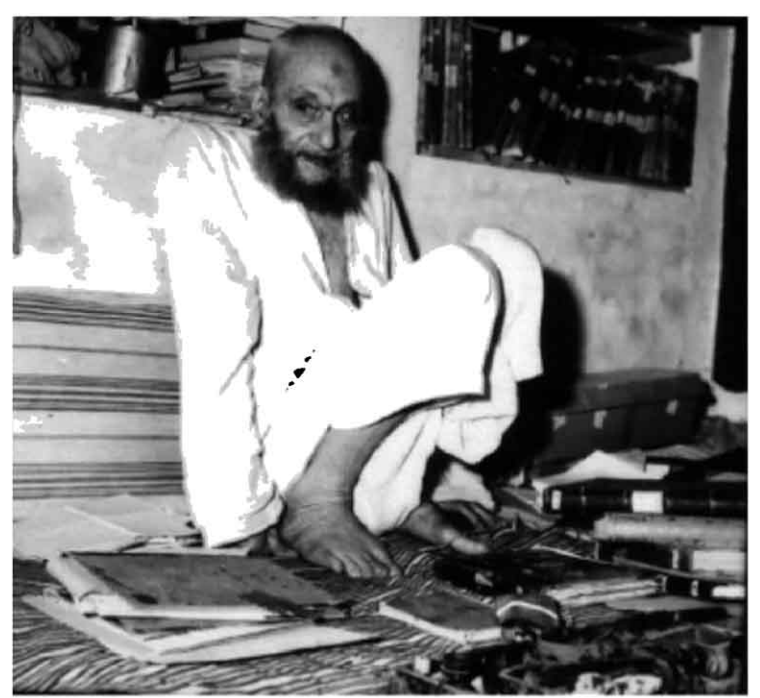




لقاء مع الشيخ آغا بزرك الطهراني في
مكتبته بالنجف



الشيخ آغا بزرك الطهراني في آخر حياته



الشيخ آغا بزرك الطهراني بين كتبه



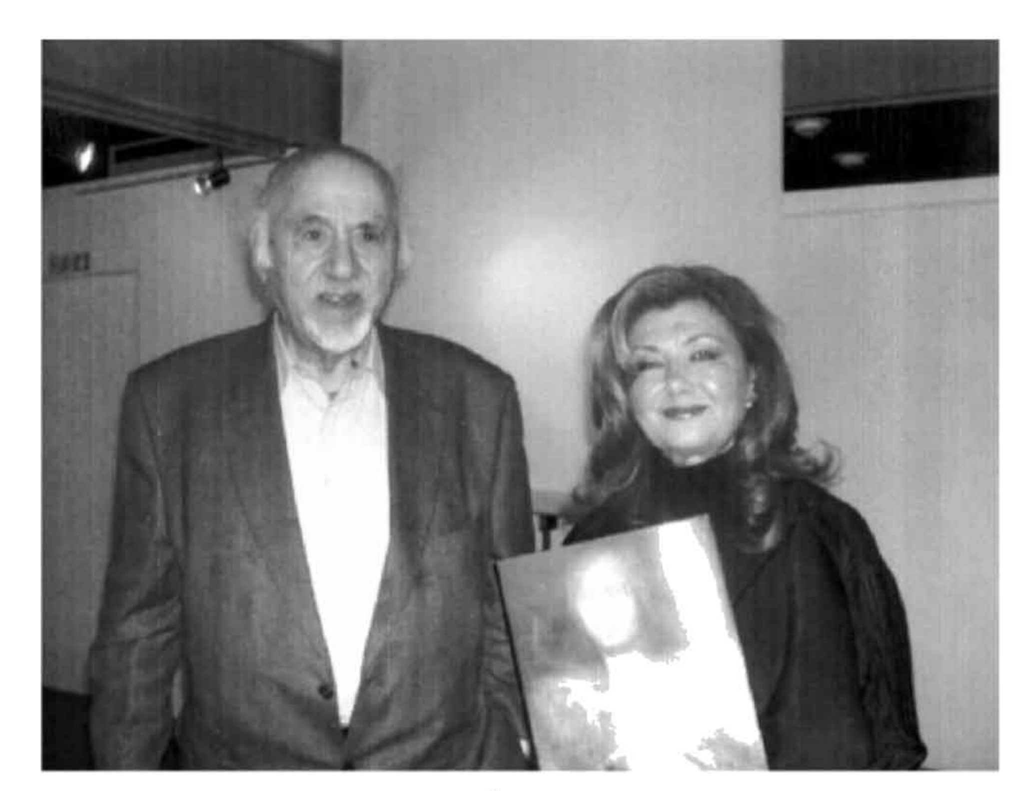
واجهة ديوان الكوفة بلندن



قاعة ديوان الكوفة بلندن من
الداخل



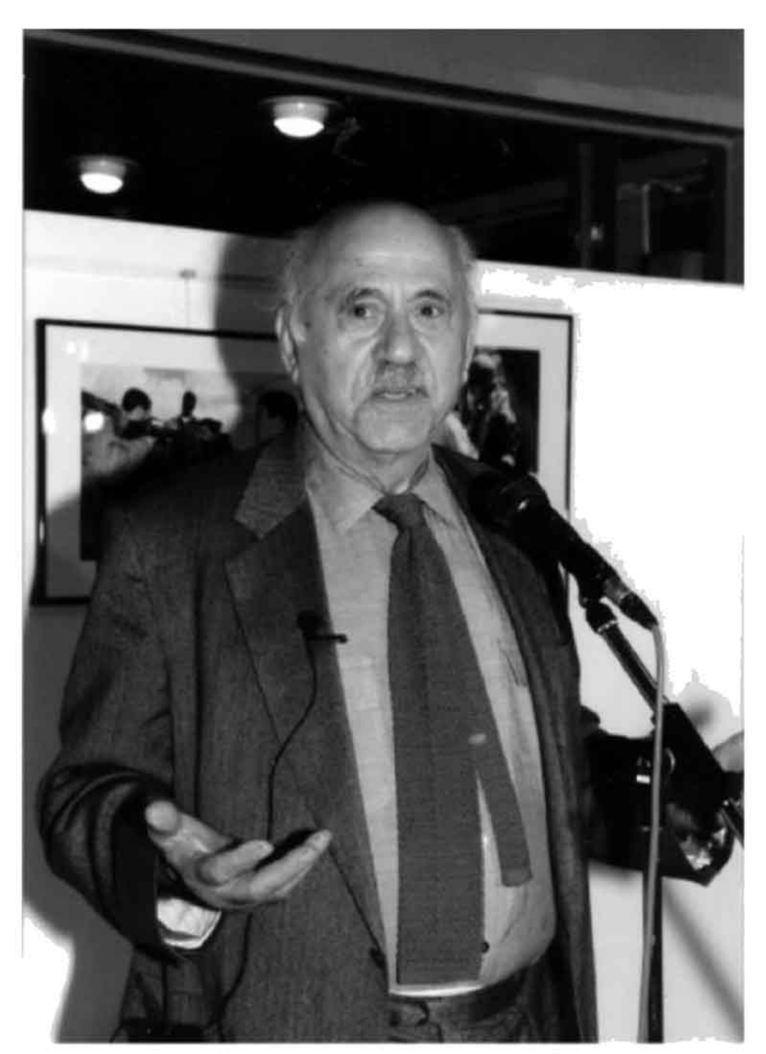
في المكتب (2002)



مع الفنانة سعاد المطار في أمسية لها بديوان الكوفة
(2004)د



في مكتبة الديوان بلندن



حديث في قاعة ديوان الكوفة (2001)

الفصل الخامس: جامعة الكوفة: دليل وثائقي1

مُقَدِّمَة

لا شك في أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، تلك الفريضة التي توضح حقيقة عملية يسعى الإسلام ديناً وعقيدة إلى تحقيقها، فليس من فضيلة أسمى من فضيلة العلم، تلك الفضيلة التي أكدها النبي (ص) والصحابة والمؤمنون في أكثر من مناسبة. وطلب العلم كان قد نشأ ونما وازدهر في بيوت الله. فالكتاتيب وهي المنطلق الذي تطور إلى دور علم كبيرة تدرس فيها شتى المعارف لنفسها، ليست جديرة بالبقاء، العلم الذي يتسم بروحه الإنسانية وتطلعاته نحو الأفضل وبناء مجتمع تسود رحابه العدالة والاخاء والمساواة. وعندما فكرت الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة في تأسيس جامعة انما كانت تنظر دائماً إلى خلق بيئة جامعية بمعناها الواسع أي بعبارة أخرى أنها صممت على تأسيس دار للعلم في تربة غنية بماضيها الحضاري وتراثها العربي الإسلامي تلك هي الكوفة، وكان ذلك التصميم مدعاة للتقدير والاعتزاز ودار العلم التي تأمل الجمعية أن تكون بذرة نامية لمستقبل مشرف لعراقنا الحبيب، انما تسعى حثيثاً إلى خلق مواطن جامعي قابل للانسجام في الكيان الاجتماعي العام، مدرك تمام الادراك لمسؤولياته العلمية من جهة ومسؤولياته الاجتماعية من جهة اخرى.

وايماناً بحق العلم والفضيلة، وانطلاقاً نحو هدف سام نبيل، وادراكاً لحاجة بلدنا إلى جامعة أهلية تتظافر فيها جهود المخلصين من أبنائه انطلقت فكرة تأسيس جامعة الكوفة. ورب سائل يسأل لم اختيرت الكوفة مكاناً لهذه الجامعة الوليدة؟ والجواب يتلخص في أن الكوفة كانت قبل ظهور الإسلام تتمتع بمكانة ثقافية يوم كانت الحيرة ملتقى الطبقة المثقفة من العرب في ذلك العصر، وعندما بزغ فجر الإسلام ومصرت الكوفة أصبحت حاضرة علمية تبوأت مركزاً ثقافياً تستحق عليه الثناء والتقدير. واختيار الإمام علي (عليه السلام) لها عاصمة للخلافة الإسلامية انما هو تجسيد رائع لأهمية هذه المدينة التاريخية العريقة حيث ازدهرت فيها علوم الشريعة والمعارف المختلفة الأخرى، الأدبية واللغوية، وكان لمناخها وموقعها الجغرافي أثر فعال في ديمومتها وبقائها رمزاً للحضارة العربية الإسلامية، لذلك فإن جامعة الكوفة في الواقع تخليد لهذه الحضارة وتوجيه للمعرفة في المستقبل.

لاشك أيها القارئ الكريم ان تأسيس جامعة من الناحية النظرية والتطبيقية عمل يحتاج إلى جهد جهيد وتظافر المساعي الحميدة ذات النية الحسنة في سبيل الوصول به إلى المستوى الرفيع حسب الأهداف النبيلة المرسومة له. فالكلمة الطيبة المشجعة من أسمى غايات الجود والكرم العلمي وهي تخليد للإنسان الذي يرغب في ترك أثر نبيل في نفوس أصحابه وأبنائه. فالعلم أعظم عصمة، وفضيلة يجب أن يتحلى بها المواطن الصالح.

وجامعة الكوفة انما هي صورة ـ كما نتمنى لها أن تكون ـ رائعة لهذه الفضيلة العلمية التي سيجد فيها المواطن العراقي تراثاً غنياً، شاركت في خلقه وتخليده عقول ونفوس جاهدت في سبيل الحق وإعلاء راية المعرفة خفاقة فوق ربوع هذا الوطن الحبيب.

تمهيد

الجامعة فلسفة إنسانية تستمد قوتها من اصالة نظرتها إلى الحياة، وما يحتاجه المجتمع من رصيد علمي وتقني وثقافي يعتمد عليه في بناء كيانه الحضاري. ولما كانت حاجات المجتمع ومتطلباته متطورة متزايدة نظراً للتقدم العلمي السريع الذي تمر به البشرية، أصبحت النظرة إلى الجامعة وفلسفتها نوعاً من الطموح الاجتماعي الذي يمتاز بالروح الخلاقة والفكر الشمولي المعطاء، منتهجاً الأسلوب العلمي. إن أية فلسفة جامعية في العالم لا تستطيع أن تبني لها وجوداً أكاديمياً أو صرحاً حضارياً الا اذا اعتمدت البحث عن الحقيقة كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، ذلك البحث الذي يرى في الاستقصاء والتحري الشامل الذي ينبع من الوجود غير المتكلف البعيد كل البعد عن الاصطناع والزخرفة، مبدأ تشرع في ضوئه الأهداف العامة والغايات البعيدة، اذا ما عرفت الجامعة نفسها فانها قد أدركت سر وجودها، ومعرفة النفس حقيقة واقعية تحتاج إلى كثير من الاستقراء والاستقصاء المغموسين بروح الصبر والمثابرة

وإذا استطاعت الجامعة تحقيق هذه النتيجة الايجابية فانها جديرة بأن تحمل شخصية علمية بناءة معتمدة في تقويمها على ما تكتسبه تجربتها الحضارية الإنسانية، من كشف وتطور، وبلورتها في كيان مواطنها الجامعي الذي سيسمو حتماً بها إلى عالم النور والبناء.

فالمواطن الجامعي إذن شخصية تستوحي سر نجاحها وتقدمها من فلسفة وهدف الجامعة التي ينتمي اليها. فالجامعة ليست مجرد معاهد وكليات تضم عدداً من الطلاب، يدخلونها ثم يتخرجون منها بعد حقبة زمنية معينة تؤهلهم فيها إلى تسنم مهام الوظيفة فحسب بل هي عملية خلق شخصية جامعية، يعرف كيف يحدد مكانه وابعاد وجوده في هذا الكوكب، ويعرف انه مشعل نور وحقيقة لمجتمعه والإنسانية التي ينتمي اليها. فإذا أدرك هذا الموقف وعاش تجربة الواقع بآماله وآلامه وتحسس قيمة المعرفة، عرف بأنه طاقة ثقافية وعلمية تستطيع تزويد وتطعيم المجتمع بكل ما هو صالح ونافع، مدركاً تمام الادراك أن الفكر الخلاق أعظم عصمة وأسمى طموحاً وأرفع مكاناً يهتدي بواسطته إلى معرفة تجربته الزمنية التي يعيش أبعادها في كل حين، فيعرف كيف يستوحي من الماضي الدرس والعبرة كي يشيد حاضراً صلب البنيان، يظل نبراساً للحقيقة ومتراساً لمستقبل مشرق، وهكذا تتجدد الأزمنة في حياة المواطن الجامعي الذي سيكون شخصية قابلة للانسجام في الكيان الاجتماعي الكبير حيث يولد منها التقليد الجامعي والعرف الاكاديمي الذي تمتاز به جامعات العالم المتمدن.

من هذه الظاهرة الحضارية بدأ التعليم الجامعي الأهلي يشق طريقه الطويل الرحب بتظافر جهود أبنائه المخلصين، دعاة الفكر والمعرفة بانشاء دور العلم فاتحة صدرها الرحب لاستقبال طلابه من كل صوب وحدب، آخذة بعين الاعتبار نوعية الطالب الجامعي والمعيشة والمكانة اللائقة التي سيتبوآها في واقع الحياة العملية، خالقة منه مواطناً صالحاً يعرف كيف يفكر، وكيف يتحسس وكيف يستجيب، وكيف يستخدم ذلك الفكر والاحساس وتلك الاستجابة في حياته اليومية الخاصة والعامة.

وقد قوبلت هذه الفكرة بالتشجيع والتأييد والإسناد مادة ومعنى وبدأت الجامعات الأهلية تنمو وتزدهر وتتطور نحو الأفضل، حيث أصبح تقدم أي مجتمع إنساني مقترناً بوجودها، ذلك الوجود العلمي الذي يخلق الزعامة ويرعى الموهبة ويكشف عن سر العبقرية ويرسم للمجتمعات فلسفتها الرصينة ويخطط لمستقبلها حسب متطلبات حاجاتها الحضارية بروح موضوعية واقعية، وادراكاً لهذه الحقيقة وايماناً بالواجب الوطني والإنساني والتاريخي نحو عراقنا الحبيب مهد الحضارات وموطن النور منذ أقدم العصور، واحساساً نحو خلق جيل قادر على النفع والانتفاع بالعلم والمعرفة، واهتداءً بتجارب الأمم المتقدمة في ميادين التعليم الجامعي، انطلقت فكرة تأسيس (جامعة الكوفة) واختيرت الكوفة مكاناً لهذه الجامعة الوليدة، وفق اعتبارات تاريخية وحضارية عريقة كانت قد تمتعت بها هذه البيئة الجغرافية عبر قرون طويلة من التاريخ الإنساني. فقد كانت منطقة الكوفة مهداً في العراق القديم لاولى الحضارات الإنسانية حتى اذا مصرت الكوفة في الإسلام أضحت عاصمة فكرية وحاضرة لشتى المعارف والثقافات وملتقى لرجال العلم ورواد الفكر الذين صهروا فيها كل تجاربهم وسكبوا في تربتها عواطفهم ومشاعرهم وأفكارهم التي تبلورت كلمة خير طيبة وتراثاً عربياً إسلامياً حياً شارك في نسج بساط الحضارة، ووهبه طاقته المتمثلة في تسامحه وإنسانيته السامية على البشر أجمعين.

ولو عدنا إلى التاريخ القديم مستوحين منه واقع هذه المدينة الخالدة لعرفنا بأنه كانت قبل الإسلام موطن دولة المناذرة في بقاع الحيرة يوم كانت مركزاً ثقافياً وتجارياً زاد من أهميتها التاريخية والجغرافية، فأصبحت ثغراً لها انتقلت عن طريقه ثقافات مختلفة وتفاعلت في تربتها تجارب حضارية، منها الفني الرائع الذي جاءها من جنوب الجزيرة العربية، ومنها الإداري والتنظيمي الذي تسرب اليها نتيجة تأثرها بنظام الحكم الساساني، ومنها الفلسفي والديني الذي انتقل اليها يوم كان النزاع والمنافسة على أشدهما بين الامبراطوريتين الطموحتين وقتئذ، الساسانية في العراق والبيزنطية في الشام. في هذه البيئة بدأ بلاط الحيرة يتبوأ مكانته الثقافية المعروفة في تاريخنا العربي القديم. اذ انه مكان ملتقى الشعراء الجاهليين من مختلف القبائل وأطراف شبه الجزيرة العربية، وفي هذه البيئة بدأت القصيدة العربية ـ وهي المثل الأعلى للثقافة العربية في العصر الجاهلي ـ تعيش تجربة التكامل والبناء والنضج الفني. تلك هي الحيرة التي وصفها المستشرق الفرنسي بلاشير بأنها «عاصمة فكرية» نظراً لما كانت تتمتع به من المزايا الثقافية المعروفة. وما أن طل فجر الإسلام بدعوته الجديدة ومثله الإنسانية الرفيعة حتى مُصرت الكوفة فأضحت مركزاً مهماً لحدث اجتماعي عظيم وعاصمة لتأسيس الحضارة الإسلامية العربية التي بقيت تمد النفس الإنسانية وتغذيها بمعارفها وفنونها حيث بدأت العلوم والمعارف تنمو في أفيائها وتعيش في ربوعها، فظهرت مدرسة الكوفة في اللغة والنحو وانطلقت القريحة الشعرية العربية تبدع ما شاء لها الإبداع، حتى لقد وصفت آداب اللغة العربية بأنها (ميراث الكوفة) الذي يسمو بعدالته الاجتماعية وتسامحه الإنساني.

أما أهمية الكوفة من الناحية القانونية فتكفي الاشارة إلى أنها كانت موطن الاجتهاد ومهد الفقهاء والمشرعين الأقدمين، والمركز الأول للتدوين. فتاريخ دور العلم فيها يعود إلى ما قبل الإسلام يوم انتقلت اليها دراسات وتأملات حكماء اليونان وفلاسفتهم في مدرسة عاقولا، أو المدرسة السريانية التي بقيت إلى عهد الرومان، ولما اندرست عاقولا، نهضت الحيرة وانتقل ما في الحيرة إلى الكوفة. وان اختيار الإمام علي (ع) الكوفة عاصمة للخلافة الإسلامية فيه أكثر من دليل على أهمية هذه التربة التي «تحبنا ونحبها» على حد قوله عليه السلام «فالكوفة (قبة) الإسلام» (وكنز الايمان). وقد قيل فيها بأنها «دار هجرة المؤمنين ومحل انتظارهم» وهكذا تظهر أهمية مدينة الكوفة في ماضيها الحضاري القديم الذي جمع بين الاصالة والإبداع في مختلف ميادين الفكر والمعرفة ورعي التراث العربي الإسلامي خير رعاية وبين حاضرها الذي ستكون الجامعة رائد خيره ومشعل تقدمه ونبراس فضيلته، ونقطة انطلاقه العلمي نحو كيان جامعي عراقي فاضل تسمو فيه الفكرة منطلقة في رحابه الواسعة الفسيحة.

انبثاق الجمعية المؤسسة

في 18-10-1966 قدم الأعضاء المؤسسون طلباً إلى وزارة الداخلية لاستحصال موافقتها على تأسيس جمعية باسم (الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة).

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد وزير الداخلية المحترم

تحية كريمة

وبعد، إدراكاً وأداء منا للرسالة العلمية والإنسانية التي نتحملها.. فقد عزمنا بعد الاتكال على الله تعالى على تأسيس جمعية تدعى (الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة).

راجين التفضل بالنظر في منحنا إجازة انشائها، مع العلم اننا قد ألحقنا بهذا الطلب نص نظام الجمعية مشفوعاً بمذكرة ايضاحية تكفلت بيان أهدافها والأسباب الباعثة على قيامها.

ولكم بالغ شكرنا وتقديرنا.

الدكتور محمد مكية

عن اعضاء الهيئة المؤسسة

وأجابت وزارة الداخلية على هذا الطلب بكتابها المرقم 2382 والمؤرخ في 14-11-1966، وطلبت فيه اجراء بعض التعديلات في النظام الداخلي المقترح، ثم أعقبت كتابها الآنف الذكر بكتاب لاحق برقم 2582 في 10-12-1966 استوضحت فيه عن بعض الأمور الأخرى المتعلقة بقيام الجامعة.

وبعد أن درست الهيئة المؤسسة ما ورد بالكتابين المذكورين تقدمت بمذكرة ايضاحية مؤرخة في 30-11-1966 ومرفقة بكتاب مؤرخ في 12-12-1966 وموقع من قبل السيد الدكتور محمد مكية عن الهيئة المؤسسة، هذا نصه:

إلى: وزارة الداخلية (الجمعيات)

تحية

اشارة إلى كتابكم المرقم /2582 والمؤرخ في 10-12-1966. اطلع السادة طالبو اجازة الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة على كتابكم المشار اليه وقد بينوا بشأنه الملاحظات التالية:

1 ـ ان الطلب المقدم لوزارتكم والنظام المرفق به ينصان على اجازة جمعية دون اجازة كلية أو جامعة في الوقت الحاضر.

2 ـ لقد سبق أن أعدتم النظام الذي وضع للجمعية المذكورة مشفوعاً بتعديلات مقترحة من جانبكم بكتابكم المرقم م.ج/2382 والمؤرخ في 14-11-1966 وقد أخذنا بالتعديلات الواردة فيه جميعها وأعدناه اليكم بكتابنا المؤرخ في 30-11-1966 مؤملين الحصول على الاجازة القانونية في حدود اختصاص وزارتكم وفي حدود الطلب المذكور وهو تأسيس جمعية.

3 ـ من المقرر قانوناً ان الجهة التي توجه إليها المناهج وما يتصل بها من إعداد هيئات تدريسية عند الشروع بافتتاح الكليات والمعاهد العلمية هي وزارة التربية وجامعة بغداد كل فيما يخصه من حيث المستوى العلمي.

وانه لمن الواضح ان ما أشرتم اليه من استعدادات علمية ومالية لا يتيسر إعداده الا بعد اجازة الجمعية لتكتسب الصفة القانونية التي تمكنها من الشروع والإعداد المطلوب. لهذا نعود ونؤكد بأن طلبنا في الوقت الحاضر يقتصر على تأسيس جمعية واجازتها ليتسنى لها عندئذ اعداد ما يلزم لتحقيق أغراضها كما هو واضح ومحدد في نظامها. ولما تقدم نرجو اجازة الجمعية بالسرعة المستطاعة ولكم الشكر والاحترام.

بغداد في 12-12-1966

الدكتور محمد مكية

عن الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

ثم طلبت وزارة الداخلية إجراء تعديل ثالث بكتابها المرقم م.ج/61 والمؤرخ في 10-1-1967. وأخيراً أجابت الجمعية بكتابها المؤرخ في 2-2-1967 عن التعديل وطلبت اجازتها. وفيما يأتي نص الكتاب:

وزارة الداخلية (الجمعيات)

اشارة إلى كتابكم المرقم م.ج/61 والمؤرخ في 10-1-1967 فقد أجرينا التعديلات التي رغبتم في اجرائها في نظام الجمعية. راجين التفضل بإجازة الجمعية لممارسة أعمالها.

ولكم الشكر.

الدكتور كاظم شبر

عن الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

1-2-1967

وقد أذنت وزارة الداخلية بموجب كتابها المرقم م.ج/451 والمؤرخ في 5-3-1967 بقيام الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة بشكلها القانوني اعتباراً من 7-3-1967 وفيما يأتي نص الكتاب:

إلى الأعضاء المؤسسين للجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة ـ بغداد الدكتور محمد مكية ورفقاه

الموضوع ـ تأسيس جمعية

بالاشارة إلى طلبكم المسجل لدينا في 18-10-1966 وجوابكم الاخير على طلب التصحيح المسجل لدينا في 4-2-1967.

بالنظر لتوفر الشروط القانونية في نظام الجمعية بشكله المصحح فانها تعتبر منشأة بعد انقضاء المدة القانونية المنصوص عليها في المادة الخامسة من قانون الجمعيات رقم (1) لسنة 1965 والتي تصادف في 7-3-1967، فنرجو مراعاة حكم القانون المذكور ونظام الجمعية.

وزير الداخلية

مذكرة ايضاحية لمشروع جامعة الكوفة

يعتبر التعليم الجامعي مرحلة من مراحل الطموح العلمي الذي تسعى إلى تحقيقه البلدان المتقدمة والمتطورة على السواء اذ تفيد منه الاولى في فتح آفاق جديدة لميادين حضارتها المختلفة، وتفيد منها الاخرى في رسم شخصيتها العلمية تمهيداً لأخذ مكانتها في تجربة الحضارة الإنسانية نافعة اياها ومنتفعة بها في آن واحد. ولسنا هنا في صدد التفصيل بأهمية هذه المرحلة من مراحل التعليم أو التدليل على منافعها فذلك أمر أضحى من الوضوح والبداهة بحيث لا يدعو إلى اعادة القول فيه بعد أن فرغت من تجربة المجتمعات الإنسانية المتحضرة، والذي نريد الاشارة اليه هو هذا التخلف الذي مني به العراق في حقل التعليم الجامعي وحصر الاشراف على ما انشئ من مؤسسات جامعية فيه بجهاز الدولة، ولعل التعليم الجامعي في بلدنا لم يكن ليرافقه هذا التباطؤ، سواء في قيامه أو في سيره لو اتيحت الفرصة للجهات الأهلية بمبادرة منها أو تشجيع حكومي لها لتتولى أمر قيامه ورعايته فتنصرف الدولة بما توفره من جهود إلى واجبات اخرى لا تنهض بها الجهات الاهلية. ولتمضي هذه الجهات في تنافس علمي يسعى إلى تحقيق أفضل النتائج.

ويكفينا دليلاً على سلامة التجربة ما سارت عليه الاغلبية الساحقة من دول العالم حين عهدت بالتعليم الجامعي إلى الجهات الاهلية، وهي دول لا ترمي بقصر في الرأي أو قلة في الخبرة أو تقصير بحق ثقافتها العالية، وهي بالتالي لم تكن لتعتمد هذا النهج لو لم تثق

من سلامة نتائجه، كما لن يضعف الدليل، المحاولات التي قامت مؤخراً بهذا الميدان في العراق وما رافقها من تعثر وارتباك، فأسباب ذلك معروفة للمعنيين بحقول الدراسات الجامعية. فنجاح عمل كهذا رهين في أوله وأخره بسلامة القصد منه وسمو رسالته، وما يعد له من دراسات مستفيضة قبل الشروع بانشائه، ويوفر له من امكانات علمية ومادية تفي بمتطلباته وما يوقف عليه من رعاية دؤوبة حريصة على نجاحه وحسن اطراد سيره. وادراكاً منا لواجب وطني وإنساني وتاريخي نحو بلادنا العريقة بالحضارات ونحو أجيالنا القادمة القادرة على النفع والانتفاع بالعلم واستدراكاً لما فاتنا بالامس فقعد بنا اليوم من مواكبة التقدم العلمي العالمي، وجرياً على ما أخذت به الامم المتقدمة في ميادين التعليم الجامعي وانتفاعاً بتجاربها الناجحة، عقدنا العزم بعد الاتكال على الله تعالى على تكوين جمعية تتولى تأسيس جامعة أهلية تدعى جامعة الكوفة. ونظراً لعظم المهمة وضخامة المشروع وضرورة اقامته على اسس علمية متينة وفي ضوء بحوث ودراسات تتناول جوانبه العلمية والفنية والمادية فقد استقر الرأي على أن تتولى الجمعية المشار اليها مهمة العمل التمهيدي وأن يطلق عليها اسم الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة.

كما روعيت جملة اعتبارات في اختيار الكوفة مكاناً للجامعة واقتران اسم المدينة بأسمها ومن هذه الاعتبارات:

1 ـ ان منطقة الكوفة كانت مهداً في العراق القديم لاولى الحضارات الإنسانية حتى اذا مُصرت الكوفة في الإسلام أضحت حاضرة لأزهى المعارف والثقافات، وموئلاً لرجال الفكر على اختلاف أوجه انتاجه. والمنطقة إلى اليوم ماثلة في معالمها العربية والإسلامية سواء في آثارها المادية المتمثلة في مساجدها التاريخية وبقايا قصورها الأثرية، أو في هذه الحركة الفكرية المتمثلة في دراسات الفقه والتشريع والتاريخ والأدب. فقيام جامعة تحمل اسم الكوفة محاولة علمية سامية تصل بين حضارة الماضي على اختلاف مراحله وحضارة العصر الحديث على امتداد أعوامه وعلومه. وهو إلى ذلك عمل مخلص جاد في احياء التراث العربي الإسلامي بإحياء هذه البيئة ومد الحياة العلمية اليها من جديد.

2 ـ ومما ساعد على هذا الاختيار موقع الكوفة الجغرافي، فمرور الفرات بجانبها يهيئ مصدراً مائياً لما سيقام فيه من حقول تجريبية ومؤسسات، كما انها وسط بين ألوية متقاربة كثيفة السكان. ووسط بين مدن العراق شمالاً وجنوباً، يضاف إلى ذلك وفرة الأرض اللازمة لمنشآتها ورخص أسعارها، الامر الذي سيوفر للجامعة مبالغ كثيرة تحتاج إلى توفيرها مؤسسة ناشئة.

3 ـ تتميز هذه المنطقة بأنواع خاصة من الانتاج الزراعي كزراعة النخيل والرز والحمضيات، وتستطيع الجامعة بمختبراتها ودراستها النظرية والتجريبية أن تقدم لهذه الموارد الاقتصادية خيراتها العلمية، ويمكنها بالتالي أن تطور وتنهض بهذا الجانب من ثروة البلاد.

4 ـ إن قيام الجامعة سيحتاج بطبيعة الحال إلى صنوف من العمال والمستخدمين، وأهل الحرف المختلفة وهي بهذا تستطيع أن توفر العمل لكثير من أبناء هذه المنطقة وتسهم في تخفيف حدة الهجرة إلى المدن الكبرى.

وكي تكتسب الجمعية شكلها القانوني وتتمكن من المباشرة بأعمالها، رأت أن تحدد أغراضها وواجباتها بالنظام التالي.

النظام الداخلي للجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

اسم الجمعية

المادة الاولى ـ تنشأ بمقتضى هذا النظام جمعية باسم (الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة) يكون مركزها في بغداد، ويجوز أن تفتح لها فروعاً في كل أنحاء العراق حسب ما يتطلبه تحقيق أغراضها وفقاً لما تقضي به المادة (13) من قانون الجمعيات.

الاغراض

المادة الثانية ـ أغراض الجمعية ثقافية وعلمية تهدف إلى نشر المعرفة والثقافة الجامعية الاصيلة واحياء التراث العربي والإسلامي والإسهام في النهضة العلمية العالية المعاصرة وذلك عن طريق تأسيس جامعة في الكوفة، بعد الحصول على موافقة الجهات المختصة وفقاً للقوانين المرعية.

الوسائل

المادة الثالثة ـ تعمل الجمعية لتحقيق أغراضها بالوسائل التالية:

1 ـ وضع النظام الأساسي للجامعة.

2 ـ تعيين الكليات والمعاهد التي يمكن أن تبدأ بها الجامعة عملها.

3 ـ تهيئة ملاك للجامعة بالمستوى اللائق بها، مع مراعاة الشروط التي تعينها الجهات المختصة.

4 ـ وضع الانظمة اللازمة للمناهج والقبول والامتحانات وغير ذلك من الانظمة الخاصة بكليات الجامعة وفعالياتها، مع مراعاة الشروط التي تعينها الجهات المختصة.

5 ـ تأسيس مدينة جامعية في الكوفة.

6 ـ توفير ما يلزم من امكانيات علمية ومالية وفنية والعمل بالوسائل المشروعة التي من شأنها الإسهام في تأسيس الجامعة على الوجه الأمثل.

7 ـ تأليف لجان فرعية من بين أعضاء الجمعية، أو من غيرهم، ممن لهم الخبرة في إنشاء الجامعات. ولا تعتبر قرارات هذه اللجان نافذة الا بعد مصادقة الهيئة الإدارية عليها.

كيان الجمعية

المادة الرابعة ـ للجمعية كيان قانوني تتمتع بمقتضاه بالشخصية المعنوية.

المادة الخامسة ـ للجمعية أن تمتلك الأموال المنقولة وغير المنقولة، وأن تتعاقد مع الغير ولها على العموم القيام بكل التصرفات اللازمة لتحقيق أغراضها، وفقاً للقانون ونظامها الداخلي، مع التقيد بما ورد في المادة الثامنة من قانون الجمعيات فيما يتعلق بتملك العقارات.

القبول في الجمعية

المادة السادسة ـ أ ـ يشترط للقبول في الجمعية توفر الشروط التالية:ـ

1 ـ تمام الأهلية.

2 ـ عدم سبق الادانة بجريمة مخلة بالشرف.

3 ـ التمتع بالحقوق المدنية.

4 ـ القدرة على المساهمة في أغراض الجمعية.

5 ـ قبول نظامها كتابة.

ب ـ على طالب الانتماء تقديم طلب للجمعية مرفق بتزكية من عضوين من أعضائها مع الوثائق المثبتة للشروط المذكورة في الفقرة السابقة.

ج ـ على الهيئة الإدارية للجمعية أن تنظر في طلب الانتماء في خلال ثلاثين يوماً من تقديمه، وعند عدم صدور قرار فيه يعتبر مقبولاً. ولمن رفض طلبه الاعتراض لدى الهيئة العامة في أول اجتماع لها وقرار الهيئة العامة نهائي وقطعي.

المادة السابعة ـ يجوز منح العضوية الفخرية في الجمعية لمن يسدي إليها خدمات ذات شأن في تحقيق أغراضها.

فقدان العضوية في الجمعية

المادة الثامنة ـ أ ـ يفقد العضو صفة العضوية في حالة الوفاة أو الاستقالة أو انتفاء أحد شروط العضوية عنده، أو فصله حسب نظام الجمعية وفي حالة حل الجمعية.

ب ـ إذا ثبت للهيئة الإدارية ان أحد أعضاء الجمعية قد خالف أهداف الجمعية أو نظامها أو تلاعب بأموالها فلها أن تقرر اسقاط عضويته في الجمعية بالفصل، ولمن تقرر فصله الاعتراض على قرار الفصل لدى الهيئة العامة في أول اجتماع لها، ويكون قرارها في هذا الشأن نهائياً.

هيئات الجمعية

المادة التاسعة ـ تتكون الجمعية من هيئة عامة وهيئة إدارية.

الهيئة العامة واختصاصاتها

المادة العاشرة ـ تتكون الهيئة العامة من الأعضاء الذين تتوفر فيهم الشروط المنصوص عليها في هذا النظام، ووفوا بالالتزامات المفروضة عليهم في هذا النظام بعد دعوتهم جميعاً اليها.

المادة الحادية عشرة ـ تختص الهيئة العامة بما يلي:

1 ـ دراسة التخطيط العام لعمل الجمعية.

2 ـ مناقشة تقارير الهيئة الإدارية وأعمالها والوسائل التي تتعلق بأعمال الجمعية.

3 ـ اعتماد ميزانية الجمعية.

4 ـ انتخاب الهيئة الإدارية وقبول استقالة أعضائها وعزلهم.

5 ـ تعديل نظام الجمعية.

6 ـ حل الجمعية حلاً اختيارياً.

التصويت في الهيئة العامة

المادة الثانية عشرة:

1 ـ يتساوى أعضاء الهيئة العامة في حق التصويت وقوته.

2 ـ يعتبر النصاب حاصلاً بحضور أكثرية الأعضاء في الدعوة الأولى.

3 ـ تتخذ القرارات بالأغلبية النسبية للاعضاء الحاضرين، عدا القرارات التي تتعلق بتعديل نظام الجمعية وحلها حلاً اختيارياً حيث يجب أن تصدر بأغلبية ثلثي الأعضاء الحاضرين.

اجتماع الهيئة العامة

المادة الثالثة عشرة ـ تدعى الهيئة العامة لاجتماع اعتيادي في النصف الثاني من شهر حزيران من كل سنة بمدة لا تقل عن شهر من تاريخ الانعقاد وذلك في صحيفتين محليتين واعلان في مقر الجمعية، ويجوز دعوتها لاجتماع غير اعتيادي في الحالات الطارئة بقرار من الهيئة الإدارية أو بطلب تحريري من ثلث أعضاء الجمعية.

الهيئة الإدارية واختصاصاتها

المادة الرابعة عشرة ـ تتكون الهيئة الإدارية من أحد عشر عضواً من أعضاء الجمعية تنتخبهم الهيئة العامة لمدة سنة قابلة للتجديد وتصدر قراراتها بأغلبية ثلثي مجموع الاعضاء.

المادة الخامسة عشرة ـ تتولي الهيئة الإدارية إدارة شؤون الجمعية العامة وتنفيذ قرارات الهيئة العامة والقيام بالأعمال التي تسير بالجمعية نحو تحقيق أهدافها.

المادة السادسة عشرة ـ تنتخب الهيئة الإدارية من بين أعضائها رئيساً ونائباً للرئيس وسكرتيرا ًوأميناً للصندوق، وتكون اختصاصاتهم كما يلي:

1 ـ يرأس الرئيس الجلسات ويمثل الجمعية أمام الجهات الرسمية وشبه الرسمية والمصالح والمؤسسات غير الرسمية، ويوقع مع أمين الصندوق على الوثائق والاوراق الخاصة بمعاملات الصرف والقبض وفي حالة غيابه ينوب عنه نائبه.

2 ـ يقوم السكرتير بتنظيم الاجتماعات والمخابرات وتوجيه الدعوات للاعضاء لحضور الاجتماعات، وبكل الاعمال الإدارية.

3 ـ يتولى أمين الصندوق الاشراف على المخابرات والدفاتر الحسابية المطلوبة وسائر الأمور المالية للجمعية، ويوقع على مستندات الصرف والصكوك إلى جانب توقيع الرئيس.

سد الشواغر في الهيئة الإدارية

المادة السابعة عشرة ـ تنتخب الهيئة العامة من بين أعضائها أعضاء احتياط بقدر أعضاء الهيئة الإدارية لسد الشواغر في الهيئة الإدارية وذلك بحسب عدد الاصوات التي حصل عليها كل منهم.

المادة الثامنة عشرة ـ في حالة استقالة أعضاء الهيئة الإدارية أو عزلها تنتخب الهيئة العامة هيئة إدارية جديدة.

المادة التاسعة عشرة ـ أ ـ اذا ثبت للهيئة العامة وقوع مخالفات جسيمة من عضو من أعضاء الهيئة الإدارية لواجباته فللهيئة العامة عزله.

ب ـ وللهيئة العامة عزل الهيئة الإدارية بجميع أعضائها في الحالات الآتية:

1 ـ خروج الهيئة الإدارية عن أهداف الجمعية.

2 ـ وجود خلاف بين أعضائها يحول دون اتخاذ القرارات اللازمة لتسيير شؤون الجمعية.

وفي حالة العزل للهيئة العامة أن تنتخب هيئة إدارية جديدة بنفس الشروط الخاصة بانتخاب الهيئة الإدارية.

مالية الجمعية

المادة العشرون ـ تتكون مالية الجمعية من بدلات الانتماء والاشتراكات والمنح والمساعدات والهبات، وكذلك الأموال الموصى لها بها والاموال الموقوفة عليها، ومن الاكتتابات بعد أن يتقرر اعتبارها من المنافع العامة، ومن ريع ما تقوم به من استثمارات لأموالها.

المادة الحادية والعشرون ـ يدفع طالب الانتماء عند قبوله بدل انتماء وقدره (خمسة وعشرون ديناراً) كما يدفع بدل اشتراك سنوي وقدره (عشرة دنانير) في شهر كانون الثاني من كل سنة. ولا يحق له الاشتراك في اجتماعات الهيئة العامة ما لم يسدد ما عليه من بدلات اشتراك.

سجلات الجمعية

المادة الثانية والعشرون ـ تمسك الجمعية السجلات التالية:

1 ـ سجل الاعضاء، وتدون فيه أسماء أعضاء الجمعية وفروعها وعناوينهم وجنسياتهم وأعمارهم ومهنهم وتاريخ انتمائهم.

2 ـ سجل القرارات، وتدون فيه قرارات كل هيئة من الهيئات وقرارات الهيئة العامة موقعاً عليها من هيئة الإدارة.

3 ـ سجل الحسابات، وتدون فيه المدخولات والمصروفات، ويكون مصدقاً من الكاتب العدل.

4 ـ سجل الاموال والأثاث، ويدون فيه ما يعود للجمعية من أثاث وأموال منقولة وغير منقولة.

5 ـ سجل المراسلات الصادرة والواردة.

واجبات الأعضاء المؤسسين

المادة الثالثة والعشرون ـ 1 ـ يدعو الاعضاء المؤسسون للجمعية في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من تاريخ تأسيسها الهيئة العامة لبحث الشؤون العامة للجمعية وانتخاب هيئتها الإدارية. ويبلغ قرار الانتخاب إلى وزير الداخلية في خلال اسبوع واحد.

2 ـ يقوم الاعضاء المؤسسون بوظائف وواجبات الهيئة الإدارية في الفترة المذكورة في الفقرة السابقة والى أن تتم تشكيلات الجمعية.

3 ـ ينتخب الأعضاء المؤسسون رئيساً للجمعية وسكرتيراً وأميناً للصندوق للفترة المذكورة في الفقرة الأولى من هذه المادة.

أموال الجمعية بعد حلها

المادة الرابعة والعشرون: تؤول أموال الجمعية وممتلكاتها وما ينجم عن ذلك من حقوق والتزامات بعد اجراء التصفية حسب أحكام القانون إلى الجهة التي تعينها الهيئة العامة عند حل الجمعية بصورة اختيارية. أما اذا كان الحل قضائياً فيراعى بهذا الشأن أحكام المادتين 28 و29 من قانون الجمعيات.

أعضاء الجمعية المؤسسة

الاسم	الجنسية	العمر	المهنة
الدكتور محمد مكية	عراقي	52	استاذ في كلية الهندسة
السيد محمد الحيدري	عراقي	61	عالم دين
الدكتور حسين الجلبي	عراقي	42	استاذ في كلية الحقوق
الدكتور محمد علي البصام	عراقي	43	استاذ في كلية العلوم
الدكتور محمد علي آل ياسين	عراقي	46	عميد كلية التجارة
الدكتور باقر عبد الغني	عراقي	45	عميد معهد اللغات
السيد صادق كمونة	عراقي	54	محامي
الدكتور محمد يعقوب السعيدي	عراقي	46	وزير التخطيط
الدكتور فيصل الوائلي	عراقي	43	مدير الآثار العام
محمود مظفر	عراقي	34	محامي
الدكتور عبد المجيد الحكيم	عراقي	41	استاذ في كلية الحقوق
عباس كاشف الغطاء	عراقي	55	مدير بنك سابق
صبيح الشبيبي	عراقي	40	تاجر
حسن علي الهادي	عراقي	55	تاجر
الدكتور حسن الهداوي	عراقي	38	استاذ في كلية الحقوق
صادق القاموسي	عراقي	42	تاجر
حسين الشاكري	عراقي	45	تاجر
الدكتور علي المياح	عراقي	40	استاذ في كلية التربية
محمد الجصاني	عراقي	40	محامي
الدكتور علي الوردي	عراقي	53	استاذ في كلية الأداب
الدكتور جميل الملائكة	عراقي	44	استاذ في كلية الهندسة
الدكتور هادي السباك	عراقي	43	استاذ في كلية الطب
الدكتور كاظم شبر	عراقي	51	جراح اخصائي
عباس عبد اللطيف	عراقي	50	استاذ في كلية الهندسة
علي حسين الربيعي	عراقي	43	مهندس مدني
ناجي جواد الساعاتي	عراقي	50	تاجر

اللجنة الإدارية الموقتة

وبعد انبثاق الجمعية قام الاعضاء المؤسسون بتاريخ 13-3-1967 بانتخاب لجنة إدارية موقتة لتمشية أمور الجمعية. وقد أعلمت وزارة الداخلية بهذا الانتخاب وذلك بكتاب الجمعية المرقم 1/67 والمؤرخ في 19-3-1967 وهذا نصه:

إلى: وزارة الداخلية ـ الجمعيات

لقد اجتمع أعضاء الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة في الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الاثنين المصادف 13-3-1967 في دار الدكتور كاظم شبر حسبما جاء في المادة الثالثة والعشرين فقرة (3) من النظام الداخلي. انتخب الاعضاء المؤسسون للجمعية السادة التالية اسماؤهم:

الدكتور محمد مكية ـ رئيساً.

الدكتور باقر عبد الغني ـ أميناً للجمعية.

الدكتور كاظم شبر ـ أميناً للصندوق.

وقد اتخذت الجمعية مقراً لها في الدار المرقمة 5/3/7 الواقعة في كرادة مريم شارع الشيخ شكر.

اعتبار الجمعية من الجمعيات ذات النفع العام

قدمت الجمعية طلباً إلى وزارة الداخلية لاعتبارها من الجمعيات ذات النفع العام وذلك بموجب كتابها المرقم 7/67 والمؤرخ 9-4-1967 هذا نصه:-

لما كانت جمعيتنا جمعية ذات أغراض علمية وثقافية القصد منها تحقيق مصلحة عامة وذلك عن تأسيس جامعة في الكوفة. نرجو التفضل بالموافقة على شمولها بمنطوق الفقرة الخامسة عشرة من قانون الجمعيات رقم (1) لسنة 1960 واعتبارها جمعية ذات نفع عام.

مع الشكر والتقدير

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

وكان جواب وزارة الداخلية بكتابها المرقم م.ج/777 والمؤرخ في 24-4-1967 كما يلي:

الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة - بغداد

م/ طلب الجمعية اعتبارها من المنافع العامة

كتابكم 7/67 في 9-4-1967.

اشترطت المادة الخامسة عشرة من قانون الجمعيات رقم 1 لسنة 1960 لمنح صفة النفع العام لأية جمعية هو أن يقصد فيها تحقيق مصلحة عامة وأن تقوم الجمعية بالفعاليات اللازمة لتحقيق تلك الاغراض وبما أنه لم تمض المدة الكافية على جمعيتكم لاظهار فعالياتها لحداثة تأسيسها فانه سينظر في طلبكم المشار إليه بعد مضي مدة كافية على مباشرة الجمعية لفعالياتها.

وزير الداخلية

وقد عاودت الجمعية الطلب إلى وزارة الداخلية لاعتبارها من الجمعيات ذات النفع العام وذلك بموجب طلبها المرقم 72 والمؤرخ في 26-6-1967 وهذا نصه:

وزارة الداخلية - الجمعيات

م/ طلب اعتبار جمعيتنا من ذوات النفع العام

نشير إلى كتابكم المرقم م.ج/777 والمؤرخ في 24-4-1967 ونود أن نذكر ان جمعيتنا قد مضى على اجازتها ما يقرب من أربعة أشهر، وقد قامت بما في وسعه بمباشرة العمل من أجل تحقيق أهدافها العلمية، فقد استأجرت مقراً لها، وعينت ما يكفي من الموظفين والمستخدمين، وزودته بما يلزم لتصريف أمورها، وانتمى إليها كثير من المعنيين بالشؤون الثقافية والعلمية، وأجرت انتخاب هيئتها الإدارية المطلوب قانونا، وألفت عدة لجان لتتولى شؤون العمل فيها، ولا يخفى ان اعتبارها من الجمعيات ذات النفع العام أمر ضروري لها لكي يتهيأ لها المضي في عملها كما هو مرسوم في نظامها، ولكي تتمكن بالتالي من اداء خدمتها للبلاد عن طريق المهمة العلمية التي تنهض بها.

ولا نشك في أن وزارتكم الجليلة تدرك وتقدر هذه المهمة، ولن تدخر وسعاً في مد يد المعونة اليها وذلك عن طريق اعتبارها من الجمعيات ذات النفع العام، الامر الذي سيسهل مهمتها، ويساعدها على النهوض بمسؤوليتها.

نرجو التفضل بدراسة الطلب مع فائق شكرنا وتقديرنا.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية

كتاب وزارة الداخلية

إلى الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة - بغداد

الموضوع/طلب اعتبار الجمعية من ذوات النفع العام

كتابكم 72 في 26-6-1967.

ان المادة الخامسة عشرة من قانون الجمعيات رقم (1) لسنة 1960 اشترطت لاعتبار الجمعية من المنافع العامة أن يقصد بها تحقيق مصلحة عامة على أن يصدر بذلك قرار من مجلس الوزراء بناء على اقتراح من وزير الداخلية يعتمد نظامها الذي يراد به كما ورد في

المذكرة الايضاحية للقانون المذكور أن يتم التحقق عن مختلف أوجه نشاط الجمعية والمشاريع التي قامت بها أو تقوم بها لتنفيذ ما ورد في نظامها وعدد أعضائها، ومنطقة نشاطها وارداتها ومصروفاتها السنوية. وحيث أنه لم تظهر فعاليات جمعيتكم لتحقيق أغراضها لحد الآن بالنظر لحداثة تأسيسها، فاننا نرجو مفاتحتنا بشأن الطلب موضوع البحث عند توفر ذلك للنظر في تقديم الاقتراح اللازم إلى مجلس الوزراء.

و. وزير الداخلية

وفي ضوء ما تقدم أجابت الجمعية بكتابها المرقم 83 والمؤرخ في 30-7-1967 على الملاحظات التي بينتها وزارة الداخلية بكتابها آنف الذكر، وفيما يلي نص كتاب الجمعية:

السيد وزير الداخية المحترم

م/طلب اعتبار الجمعية من ذوات النفع العام

كتابكم م.ج/5131 في 15-7-1967.

نود أن نحيطكم علماً بأن الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة بالرغم من حداثة تأسيسها فقد قامت ببعض الفعاليات المهمة تطبيقاً لمناهجها ومحاولة في تحقيق رسالتها وهدفها الكبير في انشاء جامعة في حاضرة الكوفة التاريخية، ومن أبرز هذه الفعاليات:

1 ـ تخصيص ثلاث زمالات للطلاب المتفوقين من خريجي الدراسة الاعدادية لاكمال دراساتهم الجامعية في جامعات العراق كما سبق أن أخبرناكم بكتابنا المرقم 77 والمؤرخ 27-7-1967.

2 ـ انشاء مكتبة عامة، وقد وفر لها فعلاً بعض متطلباتها اللازمة.

3 ـ الشروع بفتح متحف للتراث العربي الكوفي.

4 ـ تأليف لجان مختلفة وهي: لجنة التخطيط العلمي، ولجنة المكتبة، ولجنة التمويل، وقد شرعت فعلاً هذه اللجان بمهمتها في سبيل تحقيق الهدف المنشود.

هذا ونظراً لما تنطوي عليه هذه الفعاليات من تحقيق للمصلحة العامة تطبيقاً للمادة الخامسة عشرة من قانون الجمعيات رقم (1) لسنة 1960، نرجو التفضل بموافقتكم على اعتبار الجمعية من الجمعيات ذوات النفع العام لتستطيع بذلك المضي في انجاز مهمتها العلمية الكبيرة، هذا مع العلم بأن الجمعية لا تستطيع ابراز طاقاتها وفعالياتها اللازمة ما لم تتوفر لديها الامكانات المالية، وهذه لا يمكن توفرها الا بعد اعتبار الجمعية من الجمعيات ذوات النفع العام.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية

وقد أيدت رئاسة جامعة بغداد بكتابها المرقم 32034 والمؤرخ في 24-8-1967 الموجه إلى وزارة الداخلية كون الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة من الجمعيات ذات النفع العام.

وهذا نص الكتاب:

إلى: وزارة الداخلية ـ الجمعيات

اشارة إلى كتابكم المرقم م.ج/1856 والمؤرخ في 10-8-1967.

لا مانع لدينا بقدر تعلق الامر بنا من اعتبار الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة من المنافع العامة. مع التقدير.

الدكتور علي الزبيدي

مساعد الرئيس لشؤون العلاقات الثقافية

هذا ـ وقد وافقت وزارة الداخلية أخيراً على اعتبار الجمعية من الجمعيات ذات النفع العام، وذلك بموجب كتابها المرقم م.ج/2511 والمؤرخ في 1-11-1967 استناداً إلى قرار مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة بتاريخ 17-10-1967.

وفيما يلي ندرج نص كتاب وزارة الداخلية وصورة من قرار مجلس الوزراء:

إلى/الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

م/طلب اعتبار الجمعية من المنافع العامة

كتابكم 83 في 30-7-1967.

أدناه صورة كتاب رئاسة ديوان مجلس الوزراء 8824 في 23-10-1967

حول موافقة مجلس الوزراء على اعتبار جمعيتكم من الجمعيات ذات النفع العام، وفق أحكام المادة الخامسة عشرة من قانون الجمعيات رقم (1) لسنة 1960 فنرجو ملاحظة ذلك.

و. وزير الداخلية

صورة كتاب ديوان مجلس الوزراء المرقم 8824

المؤرخ في 23-10-1967

م/طلب اعتبار الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة من المنافع العامة كتابكم المرقم م.ج/2358 والمؤرخ في 15-10-1967 الباحث عن الطلب الذي تقدمت به الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة لاعتبارها من الجمعيات ذات النفع العام، والمقترح فيه استحصال موافقة مجلس الوزراء على الطلب حيث أن اغراض الجمعية المنصوص عليها في نظامها وفعالياتها لتحقيق تلك الاغراض تساعد على ذلك.

وبعد المداولة حصلت الموافقة على الاقتراح المذكور استناداً إلى أحكام المادة الخامسة عشرة من قانون الجمعيات رقم 1 لسنة 1960.

لقد صدر هذا القرار وفقاً لأحكام المادة (44) من الدستور الموقت.

مهدي الدولعي

رئيس ديوان مجلس الوزراء

انتخاب الهيئة الإدارية

بعد انبثاق الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة بتاريخ 7-3-1966 وانتخاب اللجنة الإدارية المؤقتة في حينه والتي تولت المسؤولية حتى يوم 2-6-1966 كما مر بنا، كتبت الجمعية إلى حاكم بداءة الكرخ بشأن دعوة الهيئة العامة للجمعية للاجتماع يوم 2-6-1967 وفيما يأتي نص الكتاب:

السيد حاكم بداءة الكرخ المحترم

بعد التحية

تنفيذاً لحكم المادة العاشرة (فقرة ـ 1) لسنة 1960 فقد دعيت الهيئة العامة للجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة في مقر الجمعية الكائن في كرادة مريم لانتخاب الهيئة الإدارية وفقاً للمادة الثالثة والعشرين (فقرة ـ 1) من النظام الداخلي للجمعية، وذلك في الساعة السادسة ن مساء يوم الجمعة المصادف 2-6-1967 وعند عدم حصول النصاب فقد عينت الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة المصادف 9-6-1967 موعداً للاجتماع حيث يعتبر النصاب حاصلاً بمن حضر من أعضاء الهيئة العامة. ان الفقرة 3 من المادة 10 تلزمنا باشعاركم لضمان سير الانتخاب، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

كما وجهت الدعوة من قبل الجمعية إلى أعضاء الهيئة العامة لحضور الاجتماع بتاريخ 2-6-1967 لانتخاب أعضاء الهيئة الإدارية. وفيما يأتي نص الاعلان:

استناداً لحكم الفقرة (1) من المادة العاشرة من قانون الجمعيات رقم (1) لسنة 1960 والفقرة (1) من المادة الثالثة والعشرين من النظام الداخلي للجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة واستناداً للقرار المتخذ من قبل الهيئة المؤسسة في اجتمعها المنعقد بتاريخ 8-5-1967. فقد تقرر دعوة الهيئة العامة لانتخاب الهيئة الإدارية وذلك في الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة المصادف 2-6-1967 في مقر الجمعية في كرادة مريم. يرجى من السادة الاعضاء التفضل بالحضور مع الشكر والتقدير.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية

وكانت متصرفية لواء بغداد قد وافقت بكتابها المرقم 15568، والمؤرخ في 18-5-1967 على انتخاب الهيئة الإدارية، وهذا نص الكتاب:

الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة ـ بغداد كرادة مريم

م/انتخاب الهيئة الإدارية

كتابكم المؤرخ في 15-5-1967 الوارد الينا يوم 23-5-1967.

نوافق على اجراء انتخاب الهيئة الإدارية مساء يوم 2-6-1967 وعند عدم حصول النصاب تأجيله ليوم 9-6-1967 بمقر الجمعية.

تقي الفزويني

متصرف لواء بغداد

وفي الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة الموافق 2-6-1967 حضر أعضاء الهيئة العامة وقبل المباشرة بالانتخاب ألقى الدكتور محمد مكية رئيس الجمعية الكلمة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الافاضل الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نجتمع اليوم ـ بعون الله وبركته ـ لأول اجتماع للهيئة العامة للجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة.

ولا شك في أنها مناسبة هامة وتاريخية ستسجلها أحداث الوعي الثقافي والسعي الخير للاهداف النيرة التي يساهم الوسط الأهلي في خدمة هذا البلد عن طريق العلم والمعرفة الهادفة نحو الارتقاء إلى المنزلة والمكانة التي يرجوها عالم الإنسان المتحضر.

إن لقاءنا هذا استمرار لبداية فكرة ورابطة أفراد، تحققت باتصالات، ومتابعات قبل الموافقة على تكوين هذه الجمعية وبعدها لفترة الأسابيع الماضية. كما أن اجتماعنا هذا يمكن أن يعتبر بداية لاستمرارية جديدة واندفاع أكثر شمولاً ليتولى بطاقاته وامكاناته أخذ الزمام للسير على خط تهيئة المراحل للتصميم والتخطيط والتنفيذ لما يتطلبه اخراج الفصول الجديدة التي ستلي مهام تكوين الكيان الجامعي في مدينة الكوفة.

إن ما تحقق لحد هذا اليوم من إنجازات أولية، يعود فضلها الأول والأخير لمدى التجاوب والاحساس الاصيلين اللذين لمسناهما وتجليا واضحين في الروحية العالية والهمة السامية.

ولاشك، أن هذا التجاوب العميق وتلك الروحية العالية هي التي أوحت وستوحي دائماً إلى أمانة تحمل مسؤولية هذا المشروع الأهلي وشرف العمل الجدي الأمين له.

إن هذه الأمنية تهدف إلى تعزيز الكيان الثقافي والحضاري وتساهم مساهمة فعلية في خدمة هذا البلد العزيز وهذا الموقع العريق. انها مساهمة واعية وجدية في تخطيطنا القومي ومستقبل التخطيط التربوي والجامعي الذي يتمناه كل مخلص وغيور. إن سعينا ينصب على تهيئة الكيان والمناسيب والأجواء الملائمة لدور العلم والمعرفة التي تحقق الغرض المنشود للتهذيب والتدريب في العلوم الإنسانية والمعرفة العلمية والتطبيقية. وانها لمن المتطلبات الأكيدة التي يحتاجها عالمنا الجديد أن يسهم الوسط الاهلي في القيام بمهام التنمية والتخطيط المنهاجي في تكوين الديار الجامعية التي تستوعب المفاهيم الحضارية والإنسانية، والتي ترتكز على الايمان والمثل الاخلاقية الرفيعة.

ان دور الجامعة ورسالتها في هذه المفاهيم أصبحت واقعية حتمية قد فرغ منها، اذ ستحمل المزيد من المسؤولية في تكوين هذه الشخصية التي نحن بصددها وذلك بحكم طبيعة التطور الحديث وما تملكه اجواؤها وأروقتها وصفوفها ومختبراتها من وسائل التهذيب والمعرفة لأجيالنا الطالعة.

وأرجو الآن أن انتقل بكم للحظات معدودة لاستعراض بعض المهام من التمهيد والفعاليات والانجازات الاولية لجمعيتكم والتي سيتطلب من الهيئة الجديدة تنظيم متابعتها ووضع مناهجها.

1 ـ لقد أعد المقر الحالي الذي نجتمع فيه اليوم وهو المقر المؤقت الذي سيساعدنا في المرحلة الاولية على القيام بمهام التحضير والاجتماعات واللقاءات، التي تهدف اليها تكوين الجمعية، وعلى اظهار النشاط الثقافي اللائق مستوياته المتعددة، وقد تحقق بفضل المساعي والتعاون المثمر هذا الوجود في خلال هذه الفترة الوجيزة، وأملين أن يكون اجتماعنا للعام القابل ـ بعونه تعالى ـ في رحاب مقر الجمعية الدائم وفي قاعاته الرتيبة. إن أثر تقويم هذه البداية والتبرع السخي لتكوين هذا المقر يمكن أن يشار اليه كعمل تأسيسي ستسجله لوحات هذه الجمعية مع غيره من التبرعات التي هي كلها محط الأمل والاعتزاز ومنار التقدير والاعجاب.

2 ـ من المهام الاساسية التي تجب الاشارة اليها: هي مرحلة الاعداد والتنسيق العلمي وتعيين هيئاته المعنية وهذا يتطلب دراسات اعدادية واختصاصية واحصائيات يعتمد عليها في رسم المنهاج المرحلي لتكوين الجامعة ونمو أدوارها من تكوين الاقسام والكليات التي سيباشر بها وبأمثالها.

3 ـ بالنسبة لمهام التخطيط المالي والاقتصادي وتعيين اللجان والهيئات الخاصة بتهيئة الدراسات وإعداد المقترحات التي تضمن للمشروع الكفاية في متسع التخطيط الذي تسجله ومراحل تنفيذه. فسيكون لهذه اللجان الدور الرئيس في تقويم هذا المشروع على أسس سليمة للمدى القريب والبعيد، وفي امكانية استثمار المنافع التي تضمن استمراره.

وان لجنة التمويل التي بدأت نشاطها وفعالياتها محاولة حققت مساعي موفقة وهي في باكورة بدء أن نشير إلى ضرورة متابعة الطلب في الجهات الرسمية باعتبار الجمعية من الجمعيات ذات المنافع العامة، اذ آن طبيعة وجود هذه الجمعية وعملها، وما سوف تحققه من خدمات ثقافية عامة لهذا البلد يؤكد ـ ولاشك ـ أن تكون في طليعة الجمعيات ذات المنافع العامة.

4 ـ إن الحصول على الأراضي والمقاطعات والمساحات التي تكفل ما تتطلبه منشآت الجامعة وحقولها واختصاصاتها وما بدأت به من اعداد واتصالات ودراسات تمهيداً لذلك، يؤمل أن يحقق ـ قريباً ـ بداية طيبة متميزة.

5 ـ من مهام لجان الاعلام والنشر أن تظهر للجمعية وجهها الثقافي المشرق ورسالتها الجامعية الهادفة إلى فسح المجالات المناسبة عن طريق القاء المحاضرات والنشرات والندوات... وما شابه وشاكل.

كما أن إعداد نشرة ومجلة علمية سيكون من مهام احدى هذه اللجان التي نأمل أن تسجل في عددها الأول الأخبار والأحداث التي تتناول نشأة الجمعية، ومراحل تطورها، ويومياتها منذ تأسيسها ومساهمة الأفراد والأعضاء كافة في شتى الميادين المادية والمعنوية. وسيكون هذا بمثابة سجل تاريخي لتكوين الجمعية والجامعة وبمثابة إرث فكري وحضاري لاجيالنا الصاعدة.

6 ـ إن الاستعداد لتكوين الجامعة وفي مراحلها الأولى يتطلب ـ أيضاً ـ التهيؤ لتحقيق نواة لوجود مكتبة تنمو تدريجياً. لتأخذ مكانتها في الحيز الجامعي وتختص لحد كبير ببعض المراجع والمصادر، كما نأمل أن يتطاول برج الكتاب ويسمو في هذا الوسط الجامعي، ونكون بذلك قد أظهرنا إعتزازنا بالكتاب وأهله وأنصاره الذين يسخون بكل ما ملكت أيمانهم في سبيله.

إن مثل هذه الاختصاصات في المصادر والمراجع ستجعل من أجوائها ما يسعدها على أن تكون مزاراً جامعياً دولياً للبحوث العلمية التي تؤلف الدراسات الجامعية الاختصاصية.

إن علينا ـ أيها الافاضل ـ بوصفنا أعضاء عاملين حريصين مندفعين نحو تحمل هذه الامانة.. أن نذلل الصعاب ونتخذ السلوك والالتزام اللذين يحققان من مثل هذه الاعمال الايجابية البناءة، فلا ندع للمزاج الفردي والعاطفة المؤقتة أن تحتل حيزاً كبيراً في أذهاننا على حساب مصلحة خطوات تنفيذ المشروع، ان طبيعة تكوين هذه الجمعية تتطلب التنسيق والتنظيم وجميع المؤهلات الفعالة الاخرى، لإظهار الوجه الصحيح الذي يمثل الطاقات العلمية ورعي الرصيد الاهلي واستعداداته الحية البناءة على اسس سليمة مصيبة.

أكررها انها مسؤولية تاريخية يمكن أن تسجل لحدث كبير وترابط أكيد في سبيل التضحية والتفرغ لما تستوجبه هذه المشاريع الحيوية..

وختاماً نرجو أن نتوجه بالشكر والامتنان والتقدير لكافة الزملاء والاخوان الذين عاشوا فكرة المشروع، وإلى كافة الأعضاء المؤسسين الأوائل، ومن تبعهم باحسان بما أبدوه من حماس وسعي مشكورين... حيث أدى ذلك كله كعمل جماعي لا ينفرد به أحد إلى اظهار هذه الفكرة وابرازها إلى حيز الوجود.

أملين وراجين ـ الله ـ سبحانه ـ أن تكون عجلة السير مندفعة للامام بطاقاتكم الجديدة وداعين المولى أن يوفقنا لخير المقاصد في خدمة إنسانية أجيالنا.

بعدها اجريت الانتخابات وفاز السادة المدرجة اسماؤهم أدناه بعضوية الهيئة الإدارية:

1 ـ الدكتور محمد مكية ـ استاذ في كلية الهندسة بجامعة بغداد ورئيس قسم الدراسات المعمارية.

2 ـ الدكتور محمد علي آل ياسين ـ عميد كلية التجارة، واستاذ مساعد في كلية الحقوق.

3 ـ الدكتور كاظم شبر ـ جراح اختصاصي، ومدير مستشفى ابن سيناء.

4 ـ الدكتور باقر عبد الغني ـ عميد كلية اللغات في جامعة بغداد.

5 ـ الدكتور حسن الجلبي ـ استاذ في كلية الحقوق.

6 ـ السيد صادق كمونة ـ محام.

7 ـ السيد عباس كاشف الغطاء ـ مدير بنك سابق.

8 ـ السيد كاظم مكية ـ تاجر.

9 ـ السيد عبد الحميد كبة ـ نائب رئيس محكمة تمييز العراق.

10 ـ السيد محمد الجصاني ـ محام.

11 ـ السيد محمود المظفر ـ محام.

لقد اجتمعت الهيئة الإدارية بتاريخ 6-6-1967 وانتخبت بالإجماع:

1 ـ الدكتور محمد مكية ـ رئيساً.

2 ـ الدكتور محمد علي آل ياسين ـ نائباً للرئيس.

3 ـ الدكتور كاظم شبر ـ أميناً للصندوق.

4 ـ الدكتور باقر عبد الغني ـ سكرتيراً.

هذا وقد أبلغت الجمعية وزارة الداخلية بهذا الانتخاب بموجب كتابها المرقم 53 والمؤرخ في 6-6-1967.

المجالس والهيئات واللجان

بعد انبثاق الهيئة الإدارية، وتوزيع المناصب الإدارية، قامت الهيئة بانجاز الكثير من المهام. وكان أكثرها تركيزاً، تأليف مختلف اللجان، وخاصة اللجان العلمية التي عهد اليها وضع أهم الأسس والدراسات المنهجية لكليات الجامعة في المستقبل. وهي وفق ما يأتي:

ويمكن توضيح اللجان التي تم تأليفها بهذا الرسم التخطيطي:

مجلس التخطيط العلمي

لقد قررت الهيئة الإدارية في اجتماعها المنعقد يوم الاثنين الموافق 3-7-1967 تشكيل مجلس التخطيط العلمي من السادة المدونة اسماؤهم أدناه:

1 ـ الدكتور حسن الجلبي ـ رئيساً.

2 ـ الدكتور عبد المجيد الحكيم ـ مقرراً.

3 ـ الدكتور محمد مكية.

4 ـ الدكتور كاظم شبر.

5 ـ الدكتور باقر عبد الغني.

6 ـ الدكتور محمد علي آل ياسين.

7 ـ الدكتور فيصل الوائلي.

8 ـ الدكتورحسن الهداوي. 9 ـ الدكتور جميل الملائكة.

10 ـ الدكتور علي المياح.

11 ـ الدكتور عبد الامير علاوي.

12 ـ الدكتور محمد علي البصام.

13 ـ الدكتور جابر الشكري.

14 ـ الدكتور صادق الهلالي.

15 ـ الدكتور طالب الاسترابادي.

16 ـ الدكتور مثنى كبة.

إن مهمة المجلس تحديد رسالة الجامعة وإعداد الدراسات اللازمة لقيام كلياتها، وتسمية الكليات والمؤسسات الاخرى التي يمكن الشروع بانشائها وغير ذلك من الشؤون العلمية المتصلة لمهمته.

هيئة كلية الطب

لقد عهد مجلس التخطيط العلمي إلى هذه الهيئة دراسة موضوع تأسيس كلية للطب، والنظر في ما يحتاجه ذلك من معدات، ومستلزمات، وبنايات، ومستشفيات، وهيئات تدريسية. كما انيط بهذه اللجنة دراسة المناهج واقتراح أساليب الدراسة الطبية المناسبة للكلية المقترحة وإعداد تقرير بذلك.

وقد عهدت الهيئة دراسة مواضيع العلوم الاساسية إلى لجنة خاصة كما عهدت دراسة موضوع العلوم السريرية إلى لجنة ثانية.

وانبثقت عن هيئتي الدراسة الطبية والدراسة الهندسية لجنة ثالثة دعيت بلجنة الدراسة التحضيرية لإعداد مناهج ودراسة احتياجات الدراسة التحضيرية التي تهيئ الطلبة المتقدمين إلى الدراسات الجامعية المختلفة.

وتتألف من السادة المدرجة اسماؤهم أدناه:

1 ـ الدكتور كاظم شبر.

2 ـ الدكتور عبد الامير علاوي.

3 ـ الدكتور فرحان باقر.

4 ـ الدكتور طالب الاسترابادي.

5 ـ الدكتور عبد الجبار العماري.

6 ـ الدكتور علي غالب ياسين.

7 ـ الدكتور عبد الغني زلزلة.

8 ـ الدكتور صادق الهلالي.

9 ـ الدكتور حسين رمزي.

10 ـ الدكتور جلال الاسترابادي. 11 ـ الدكتور محمود ثامر.

12 ـ الدكتور مهدي فوزي.

13 ـ الدكتور صاحب زيني.

14 ـ الدكتور ضياء النواب.

15 ـ الدكتور حسن الربيعي.

16 ـ الدكتور كامل الجواهري.

17 ـ الدكتور محمود كمونة.

18 ـ الدكتور فهد علي.

19 ـ الدكتور علوان الوائلي.

هيئة كلية الهندسة

مهمتها تهيئة الفرص للنمو العلمي وتطوير الاحساس الفني، واستيعاب الاحتياجات ومتطلبات تقويم المجتمع والبيئة الانسانية في التمدن واظهار الخصائص، والقيم الحضارية التي تنعكس في الدراسات التنظيمية والتخطيطية، من أجل تنمية الطالب خلال سني الدراسة ليتولى المسؤولية بادراك متسع ومساعدته ليتبوأ المكانة والقابلية والانجازات الخلاقة التي تؤهله لبدء المهنة التنظيمية وروحية الاستمرار على المنافسة التي تتطلبها طبيعة موضوع اختصاصه. ومن أجل هذا فالدراسة المعمارية تتسع للمعرفة في حقول العلوم الطبيعية وعلوم الاختصاص والإنسانيات من جهة، ومن جهة اخرى الاعداد خلال سني الدراسة في برامج التصميم والاعمال التطبيقية في المواسم والحقول العملية في جو المنافسة والنقد الفني.

ويتطلب المنهج دراسة التراث الحضاري الإسلامي للعمارة والفنون التطبيقية وتحقيق المجال لنمو الدراسات الاختصاصية والبحوث للفنون الإسلامية باعتبارها حقلاً خاصاً تهتم به جامعة الكوفة بالنسبة للمنطقة بصورة خاصة.

المعاهد

ارتأت اللجان المختصة أن تولي جامعة الكوفة الاهتمام الخاص بتنمية معاهد للهندسة والفنون التطبيقية يكون هدفها فسح المجال للاعداد الكافية من الحرفيين والمهرة والمشرفين في حقول التنمية الصناعية والاستيطان الزراعي وذلك بإعداد دراسات تطبيقية في مختبرات ومعامل وتدريب مهني.

وأقترح أن تكون الدراسة بمراحل اعدادية من بعد المتوسطة. وتخدم هذه المعاهد ايضاً الكيان التكنولوجي للعلوم الهندسية والنظرية، كما ان الدراسة الأكاديمية ستساعد في الاشراف العام لتنمية هذه المعاهد.

وألفت هيئة من السادة المدرجة اسماؤهم أدناه لوضع الدراسات والتوصيات اللازمة لذلك:

1 ـ الدكتور محمد مكية.

2 ـ الدكتور محمد علي البصام.

3 ـ الدكتور جميل الملائكة.

4 ـ الدكتور احسان شيرزاد.

5 ـ المهندس حكمت شعبان.

6 ـ الاستاذ عبد الحسين البياتي.

7 ـ الاستاذ عبد الحسين شلاش.

8 ـ الاستاذ محمد حبة. 9 ـ الاستاذ مثنى كبة.

10 ـ الاستاذ محمود كنونة.

11 ـ الاستاذ فهد علي.

12 ـ الاستاذ كوكب الاسدي.

13 ـ الاستاذ ناصر الاسدي.

14 ـ الاستاذ جعفر علاوي.

15 ـ الاستاذ عباس عبد اللطيف.

16 ـ الاستاذ الدكتور هاشم حمزاوي.

لجنة العلوم الطبية الأساسية

أنيط بهذه اللجنة دراسة كافة حاجات دراسة العلوم الاساسية للدراسة الطبية. وقد بحثت هذه اللجنة مناهج هذه المرحلة الدراسية ودرست متطلباتها، ومناهجها، وما تحتاجه من مختبرات، ومعدات، وهيئات تدريسية، وتكاليف مالية سواء لغرض البناء، أو لإدامة الدراسة.

وتتألف من السادة المدرجة اسماؤهم أدناه:

1 ـ الدكتور صادق الهلالي ـ مقرراً للجنة.
2 ـ الدكتور علي غالب ياسين.
3 ـ الدكتور طالب الاستربادي.
4 ـ الدكتور كامل الجواهري.
5 ـ الدكتور مهدي فوزي.
6 ـ الدكتور عبد الصاحب الموسوي.
7 ـ الدكتور يوسف عقراوي.

لجنة العلوم الطبية السريرية

وهذه اللجنة مكلفة بدراسة ما تحتاجه مرحلة الدراسات السريرية الطبية، من مستشفيات، وعيادات، ومعاهد، وآلات وأدوات. وأنيط بها ـ أيضاً ـ دراسة موضوع المستشفى التعليمي الملحق بالجامعة، وتخمين سعته، وكلفته ودراسة ما يحتاجه من هيئات وكيفية تدبير ذلك سواء من الاخصائيين لأعمال المستشفى أو للتدريس السريري في الكلية.
وتتألف اللجنة من السادة المدرجة اسماؤهم أدناه:
1 ـ الدكتور عبد الغني زلزلة ـ مقرراً للجنة.
2 ـ الدكتور عبد الامير علاوي.
3 ـ الدكتور جلال الاسترابادي.
4 ـ الدكتور فرحان باقر.
5 ـ الدكتور ضياء النواب.
6 ـ الدكتور شوكت الدهان.
7 ـ الدكتور كاظم شبر.
8 ـ الدكتور محمود ثامر.
9 ـ الدكتور حسين طالب.
10 ـ الدكتور قيس كبة.
11 ـ الدكتور علي كمال.
12 ـ الدكتور أحمد عزت القيسي.
13 ـ الدكتور خالد القصاب.
14 ـ الدكتور عبد الجبار العماري.
15 ـ الدكتور مهدي فوزي.

لجنة الدراسات المعمارية

مهمتها تهيئة المناهج الدراسية لتأمين الحصول على مستوى معماري عال، مع ما يتطلب من رعاية للفنون التشكيلية الحالية والتاريخية، وكذلك الصناعات الفنية العريقة التي توارثها الأبناء عن الاجداد.
وتتألف من عشرة أعضاء وهم السادة:
1 ـ الدكتور محمد مكية.
2 ـ المهندس ناصر الاسدي ـ مقرراً.
3 ـ المهندس رفعت الجادرجي.
4 ـ المهندس مهدي الحسني.

5 ـ المهندس جعفر علاوي.
6 ـ الدكتور جميل الملائكة.
7 ـ المهندس احسان شيرزاد.
8 ـ المهندس قحطان المدفعي.
9 ـ المهندس فؤاد عثمان.
10 ـ المهندس ابراهيم علاوي.

لجنة الهندسة الزراعية

تقوم بوضع دراسات شاملة بشأن ايجاد مهندسين زراعيين نظراً لحاجة البلاد اليهم في الوقت الحاضر اضافة إلى المهندسين المدنيين والميكانيكيين. وتعمل اللجنة على تقديم توصيات حول الحقول التجريبية من أجل الانهاض بالمستوي الزراعي.
وتتألف اللجنة من عشرة أعضاء، هم السادة:
1 ـ الدكتور مثنى كبة ـ مقرراً.
2 ـ الدكتور وفقي الشماع.
3 ـ الدكتور ناجي عبد القادر.
4 ـ الدكتور باقر كاشف الغطاء.
5 ـ المهندس محمد عبد الحسين البياتي.
6 ـ المهندس عباس عبد اللطيف.
7 ـ المهندس حكمت شعبان.
8 ـ الاستاذ عبد الامير السوز.
9 ـ المهندس حسن مسحل الراوي.
10 ـ المهندس فوزي الخالصي.

لجنة الدراسة التحضيرية

انبثقت هذه اللجنة عن هيئتي الدراسة الطبية والدراسة الهندسية، لما وجد من ضرورة تهيئة خريجي الدراسة الاعدادية، وإعدادهم إعداداً مناسباً للدراسة الجامعية. فعهدت إلى هذه اللجنة إعداد المناهج المناسبة لهذه الدراسة والنظر في احتياجاتها المختلفة من بنايات، ومختبرات، ومعاهد، وهيئات تدريسية، وتقرير مدة هذه الدراسة. وتتألف هذه اللجنة من السادة المدرجة اسماؤهم أدناه:
1 ـ الدكتور محمد مكية.
2 ـ الدكتور صادق الهلالي.
3 ـ الدكتور طالب الاسترابادي.
4 ـ الدكتور باقر عبد الغني.
5 ـ الدكتور علي الوردي.
6 ـ الدكتور هاتف حمودي الجليل.
7 ـ الدكتور عباس طه النجم.
8 ـ الدكتور علوان الوائلي.
9 ـ الدكتور محمود كمونة.
10 ـ الدكتور عبد الامير علاوي.
11 ـ الدكتور محمد علي البصام.

12 ـ الدكتور جميل الملائكة.
13 ـ الدكتور احسان شيرزاد.
14 ـ الدكتور وفقي الشماع.
15 ـ الدكتور فوزي الخالصي.
16 ـ الدكتور عبد الحسين شلاش.
17 ـ الدكتور هاشم الحمزاوي.

اللجنة المالية الدائمة

وتعمل هذه اللجنة على تأمين تمويل الجمعية في الوقت الحاضر، والجامعة في المستقبل، بالاموال اللازمة لمساعدتها في تأدية رسالتها وتحقيق أهدافها. وتتألف هذه اللجنة من ثلاثة عشر عضواً، وهم السادة:

1 ـ الدكتور كاظم شبر ـ رئيساً.
2 ـ المهندس حكمت شعبان ـ سكرتيراً.
3 ـ السيد محمد كاظم مكية ـ عضواً.
4 ـ الحاج عبد الحميد كبة ـ عضواً.
5 ـ الدكتور فيصل الوائلي ـ عضواً.
6 ـ السيد عباس كاشف الغطاء ـ عضواً.
7 ـ الحاج صبيح كبة ـ عضواً.
8 ـ السيد صبيح الشبيبي ـ عضواً.
9 ـ الحاج حسين الشاكري ـ عضواً.
10 ـ الحاج عبد الله الصراف ـ عضواً.
11 ـ السيد عبد الرزاق الربيعي ـ عضواً.
12 ـ السيد مهدي الهاشمي ـ عضواً.
13 ـ السيد علاء الأعرجي ـ مساعداً للسكرتير.

لجنة الاكتتاب

لقد تألفت هذه اللجنة بموجب الفقرة (ب) من المادة الثانية من محضر اجتماع الهيئة الإدارية المنعقد بتاريخ 2-11-1967 وتضم السادة:

1 ـ عبد الرزاق مرجان.
2 ـ صالح كبة.
3 ـ عبد الرسول علي.
4 ـ محمد كاظم مكية.
5 ـ الدكتور كاظم شبر.
6 ـ عباس كاشف الغطاء.
7 ـ محمد علي الطحان.
8 ـ ابراهيم بشقة.

والجمعية بدورها قد أعلمت وزارة الداخلية بكتابها المرقم 303 والمؤرخ في 18 ـ 11 ـ 1967 بتأليف هذه اللجنة لغرض جمع مبلغ (000.750) سبعمئة وخمسين ألف دينار خلال سنة واحد بما يتناسب ومتطلبات المرحلة التمهيدية لتكوين جامعة الكوفة. واستناداً إلى

هذا الطلب فقد أذنت وزارة الداخية بموجب بيانها المرقم (525) المبلغ إلى الجمعية بكتابها المرقم م.ج/2713 والمؤرخ في 28-11-1967 بجمع المبلغ المذكور بواسطة لجنة الاكتتاب كما مر آنفاً.

وفي ما يلي نص كتاب وزارة الداخلية:

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان رقم (525)

استناداً إلى الصلاحية المخولة لنا بموجب المادة الثامنة من قانون اليانصيبات والاكتتابات الرقم (2) لسنة 1962 نأذن بهذا للجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة ببغداد باجراء اكتتاب لجمع مبلغ قدره (000.750) سبعمئة وخمسون ألف دينار عن طريق التبرعات الاختيارية في جميع أنحاء العراق لغرض تحقيق فكرة تأسيس جامعة الكوفة خلال مدة سنة واحدة اعتباراً من تاريخ صدور هذا البيان تحت اشراف اللجنة المدونة أسماء أعضائها أدناه على أن تقوم بما يلي تطبيقاً لأحكام المادة الحادية عشرة من القانون المذكور.

1 ـ تقديم الوصولات التي تستعمل في الاكتتاب الينا لختمها قبل المباشرة بعملية الاكتتاب.

2 ـ اشعارنا باسم المصرف الذي ستودع فيه المبالغ المتجمعة.

3 ـ تقديم جدول بعد الانتهاء من عملية الاكتتاب يتضمن أسماء المكتتبين ومقدار المبلغ الذي اكتتب به كل منهم مع الاشارة إلى رقم الوصل وتاريخه.

4 ـ اعادة الوصولات غير المستعملة.

5 ـ تقديم الحساب النهائي للمبالغ المتجمعة مع المستندات التي تؤيد صرفها على الغرض الذي صدر من أجله البيان.

أسماء أعضاء اللجنة

السيد عبد الرزاق مرجان.

السيد عبد الرسول علي.

السيد صالح كبة.

السيد محمد كاظم مكية.

الدكتور كاظم شبر.

السيد عباس كاشف الغطاء.

السيد محمد علي الطحان.

السيد ابراهيم بشقة.

و. وزير الداخلية

الدكتور شامل السامرائي

واستناداً لما تقدم فقد انتخبت اللجنة السيد عباس كاشف الغطاء رئيساً للجنة والدكتور السيد كاظم شبر أميناً للصندوق.

اللجان المالية الفرعية

لقد انبثقت من اللجنة المالية الدائمية ثلاث لحان فرعية تتولى مسؤولية جمع التبرعات كلا ضمن مجال عمله.. واللجان هي:

1 ـ لجنة بغداد: وتضم الاعضاء التالية اسماؤهم:

1 ـ السيد محمد كاظم مكية.

2 ـ الحاج عبد الرسول علي.

3 ـ السيد عباس كاشف الغطاء.

4 ـ الحاج حسين الشاكري.

5 ـ السيد صبيح الشبيبي.

6 ـ السيد مهدي الهاشمي.

7 ـ السيد سليم حمزة.

8 ـ السيد جعفر حمندي.

9 ـ الدكتور محمد خليل الطويل.

10 ـ الحاج صبيح كبة.

11 ـ السيد عبد الرزاق الربيعي.

12 ـ السيد علاء الاعرجي ـ سكرتير اللجنة.

2 ـ لجنة الالوية: وتضم الاعضاء التالية اسماؤهم:

1 ـ الدكتور كاظم شبر.

2 ـ السيد عبود الشالجي.

3 ـ السيد عبد الصاحب جعفر.

4 ـ السيد أنور الجوهر.

5 ـ السيد عبد الجليل مرجان.

6 ـ السيد عبد الله الصراف.

7 ـ السيد عبد الحسين كمونة.

8 ـ الحاج صبيح كبة.

3 ـ اللجنة الخارجية (خارج العراق) : وتضم الأعضاء التالية اسماؤهم:

1 ـ الدكتور محمد مكية.

2 ـ الدكتور كاظم شبر.

3 ـ الدكتور فيصل الوائلي.

4 ـ السيد محمد كاظم مكية. 5 ـ السيد عباس كاشف الغطاء.

6 ـ الحاج حسين الشاكري.

7 ـ السيد جواد الجلبي.

8 ـ المهندس حكمت شعبان.

لجنة المكتبة

لقد تألفت هذه اللجنة استناداً إلى الفقرة (6) من قرار الهيئة الإدارية المرقم 4 والمؤرخ 3-7-1967، ومهمة هذه اللجنة تقوم على بناء نواة لمكتبة الجامعة عن طريق شراء الكتب أو الاهداء أو التبادل، وتقديراً من الجمعية لاهمية وفائدة المكتبة للجامعة فقد خصصت مبلغ (500) دينار لشراء الكتب خلال هذا العام. وتتألف لجنة المكتبة من سبعة أعضاء، هم السادة:

1 ـ فؤاد عباس ـ رئيساً.

2 ـ محمود المظفر ـ مقرراً.

3 ـ الدكتور فيصل الوائلي ـ عضواً.

4 ـ صادق كمونة ـ عضواً.

5 ـ الدكتور حسين علي محفو ـ عضواً.

6 ـ جعفر الخليلي ـ عضواً.

7 ـ صادق القاموسي ـ عضواً.

ومن الجدير بالذكر ان مجموع المجلدات التي تحويها مكتبة الجامعة في الوقت الحاضر قد بلغ (3000) مجلد.

لجنة النشر العلمي

استناداً إلى قرار الهيئة الإدارية بجلستها المنعقدة بتارسخ 2-11-1967 فقد تألفت لجنة النشر العلمي ومهمتها، اصدار النشرات العلمية المتعلقة بالجامعة وكذلك اصدار مجلة علمية ذات مستوى عال للبحوث الاكاديمية في مختلف العلوم والفنون والآداب.

وتتألف هذه اللجنة من السادة:

1 ـ الشيخ محمد حسن آل ياسين.

2 ـ الدكتور صادق الهلالي.

3 ـ الدكتور حسين علي محفو.

4 ـ الدكتور حسين أمين.

5 ـ الدكتور عناد غزوان.

6 ـ الدكتور نافع القصاب.

7 ـ السيد صادق الحسني ـ مقرراً للجنة.

لجنة الاعلام والنشر

بناء على ما أقترحته الهيئة الإدارية بجلستها المنعقدة بتاريخ 2-11-1967 فقد تألفت لجنة الاعلام والنشر لتتولى مهمة نشر نشاطات وفعاليات وأخبار الجمعية عن طريق الصحف والمجلات.

وتتألف اللجنة من السادة:

1 ـ محمود المظفر.

2 ـ الدكتور جواد أحمد علوش.

3 ـ عبد الصاحب الهر.

أراضي الجامعة في الكوفة

تعمل الجمعية بكل طاقاتها لتوفير الأراضي اللازمة في الكوفة لأغراض الجامعة ومنشآتها، وتحقيقاً لذلك فقد طلبت إلى متصرفية لواء كربلاء تخصيص الأراضي الاميرية الواقعة من بعد حدود نهر (كري سعد) والى الغرب منه بمسافة كيلومتر على طول امتداد الشارع العام (كوفة ـ نجف) وكذلك بمسافة (4.5) كيلومتراً عمقاً باتجاه الشمال لهذا الغرض.

وفيما يأتي نص كتاب الجمعية المؤرخ في 3-9-1967:

متصرفية لواء كربلاء

م/طلب تخصيص قطع من الأراضي لجامعة الكوفة

بالنظر لما يتطلبه مشروع انشاء كيان جامعي في مدينة الكوفة من وجود أراض واسعة ومناسبة، ومن أجل تهيئة التخطيطات الضرورية الاولى للقيام بمهام هذا المشروع بما يتلاءم ومراكز النجف والكوفة العلمية والدينية.

لذا نرجو التفضل بتخصيص أراض مناسبة في الحي الثقافي بين النجف والكوفة بواجهة تمتد بطول ألفي متر من بعد حدود (كري سعد) اذ ان مثل هذه الواجهة ستحقق من النواحي التخطيطية والتصميمية مستقبلاً علمياً وحضارياً واسعاً للمنطقة كلها بما سينشأ عليها من الاحياء الجامعية والطلابية الواسعة كما سيتحقق ضمن تلك المساحات فتح الشوارع والساحات والحدائق وطرق السيارات والممرات مكونة بذلك مدينة جامعية تمتد من الشريان الرئيس لشارع (الكوفة ـ النجف) وتتصل بالساحل النهري، راجين التفضل بتخصيص الواجهة المطلوبة بأقرب وقت، خاصة وان المدة المعنية أوشكت على الانتهاء.

وتفضلوا بقبول فائق الشكر والتقدير.

الدكتور محمد مكية

رئيس الهيئة الإدارية للجمعية

المؤسسة لجامعة الكوفة

وقد استجابت متصرفية لواء كربلاء لهذا الطلب، وأوعزت إلى مساح لواء كربلاء بكتابها المرقم 13292 والمؤرخ في 16-9-1967 لإجراء الكشف الموقعي على الارض المراد تخصيصها للجامعة.

وهذا نص الكتاب:

مساح لواء كربلاء

الموضوع/طلب تخصيص قطع من الأراضي لجامعة الكوفة

بناء على الطلب الواقع من الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة بكتابها المؤرخ في 3-9-1967 المتضمن تخصيص أرض مناسبة في الحي الثقافي بين النجف والكوفة بواجهة تمتد بطول ألفي متر من بعد حدود (كري سعد) عليه يرجى اجراء الكشف الموقعي على الارض المذكورة وتزويدنا بمخطط يوضح ذلك واعلامنا.

جابر حسن الحداد

متصرف لواء كربلاء

واستناداً لكتاب المتصرفية، فقد قام مساح اللواء بتحديد أراضي الجامعة ورفع تقريراً بذلك إلى قائمقامية قضاء النجف، وقد أعلمت القائمقامية بدورها المتصرفية بنتيجة تحديد الارض، ومقدار مساحتها، وأرقام قطعها ومقاطعاتها، مع صور قيودها مشفوعة بمخطط توضيحي كما جاء تفصيله بكتابها المرقم 5512 والمؤرخ في 31-10-1967.

وفيما يأتي نصه:

إلى/متصرفية لواء كربلاء ـ الأملاك

م/تخصيص أراض لجامعة الكوفة

اشارة لكتابكم المرقم 13292 في 16-9-1967.

نقدم طياً صورة قيد وخرائط القطع المرقمة (3) من المقاطعة (4) النجف و740/13 و1/19 والمتروكة 322 من المقاطعة 18 الكوفة مع مخطط للمساحة المطلوب تخصيصها لجامعة الكوفة والتي تتبلغ 4000 دونم من القطعة (3) مقاطعة/4 نجف و307 دونم من القطعتين 740/13 و1/19 والمتروكة 22 من المقاطعة/18 كوفة علماً بأن الأراضي التي تتقع ضمن منطقة قضائنا اميرية صرفة وأراضيها غير صالحة للزراعة وخالية من الشواغل وليس للغير علاقة فيها وعدم الاحتياج لها للأغراض الرسمية وسنرسل اليكم صورة قيد وخرائط المتروكات التي تتخلل القطعة (3) حال ورودها من التسوية العامة. للتفضل بالاطلاع والامر بما يلزم واعلامنا.

احسان محمد رؤوف

قائمقام قضاء النجف

المرفقات

صور قيد (4)

خرائط طابو (4)

مخطط (1)

كما ان قائمقامية قضاء الكوفة قد أبدت رأيها في تخصيص أراضي الجامعة الواقعة ضمن منطقتها إلى متصرفية لواء كربلاء وذلك بكتابها المرقم 5641 والمؤرخ في 6-11-1967.

وهذا نص الكتاب:

إلى/متصرفية لواء كربلاء ـ الاملاك

الموضوع/تخصيص أراض لجامعة الكوفة

بالاشارة إلى كتاب قائمقامية قضاء النجف (المالية) المرقم 5512 في 31-10-1967. نؤيد لسيادتكم بأن القطع المرقمة 740/13 و1/19 والمتروكة 22 من المقاطعة (18) الكائنة في الكوفة خالية من الشواغل وأراض غير صالحة للزراعة وليس للغير علاقة فيها وعدم الاحتياج لها للاغراض الرسمية.

للتفضل بالعلم رجاء.

عبد الصاحب الغرباوي

قائمقامية قضاء الكوفة

وفي ضوء ما تقدم، فقد قامت متصرفية لواء كربلاء بالكتابة إلى وزارة المالية تشعرها بطلب الجمعية لتخصيص أراض لجامعة الكوفة وقد أوضحت لها امكانية تخصيص مساحة قدرها (4307) دونمات من الأراضي الاميرية الصرفة الخالية من الشواغل والتي ليس للغير علاقة بها وعدم الاحتياج اليها للاغراض الرسمية.

وفيما يأتي نص كتاب متصرفية لواء كربلاء المرقم 16542 والمؤرخ في 19-11-1967:

وزارة المالية/التخصيص

الموضوع/تخصيص أراض لجامعة الكوفة

طلبت الينا الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة حول تخصيص مساحة لغرض جامعة الكوفة المقترح انشاؤها وبعد اجراء الكشوفات اللازمة وقع الاختيار على مساحة قدرها (4307) دونمات من القطع الاميرية المرقمة (3) والمتروكات 21 و22 و23 من المقاطعة (4) النجف و740/13 و1/19 والمتروكة (22) من المقاطعة (18) الكوفة مع العلم بأن الأراضي المذكورة اميرية صرفة وخالية من الشواغل وليس للغير علاقة بها وعدم الاحتياج اليها للأغراض الرسمية. هذا وحيث ان المشروع ثقافي يخدم البلد ويرفع مستوى أبنائه وانه من المشاريع الحيوية بالاضافة إلى ذلك يشمل هذا المشروع انشاء الحدائق والمنتزهات والابنية الدراسية وأقساماً داخلية وطرقاً معبدة وأقساماً زراعية وكافة متطلبات المشروع وملحقاته نرجو التفضل بأخذ هذه الناحية بنظر الاعتبار والموافقة على تخصيص المساحة المذكورة خدمة للمصلحة العامة ورفع مكانة المدينة من الناحية العمرانية واعلامنا رجاء.

جابر حسن الحداد

متصرف لواء كربلاء

المرفقات

صور قيد (7)

خرائط طابو (7)

مخطط توضيحي (1)

ولما كان من أهداف الجامعة تأسيس حقول تجريبية، ولما كانت الأراضي الزراعية الممتدة على طول كتف النهر، والمجاورة لأراضي الجامعة مكاناً مناسباً لذلك فقد تقدمت الجمعية بطلب استملاك هذه البساتين، حيث استطاعت استملاك الوجبة الاولى وعددها تسع قطع تبلغ مساحاتها (21) دونماً بمبلغ (1712) ديناراً من صاحبها السيد عاشور الحاج محمود ثنوان. وان معاملات الاستملاك للبساتين المجاورة مستمرة وهي في طريقها إلى الانجاز.

حفر ثلاث آبار ارتوازية

نظراً لحصول الموافقة المبدئية بشأن تخصيص الأراضي لجامعة الكوفة رأت الجمعية أن الضرورة تستدعي تشجير المنطقة الجامعية، وعمل حزام أخضر لها مما يتطلب حفر آبار ارتوازية لتسهيل هذه المهمة. ولذا، فقد كتبت إلى مديرية المشاريع العامة بوزارة البلديات والاشغال لحفر ثلاث آبار ارتوازية في أراضي الجامعة. وفيما يأتي نص الكتاب:

وزارة البلديات والاشغال

(مديرية المشاريع العامة)

الموضوع/حفر آبار ارتوازية

سبق لهذه الجمعية أن رجت متصرفية لواء كربلاء بكتابها المرقم 364 والمؤرخ في 20-11-1967 حفر ثلاث آبار ارتوازية في الأراضي المخصصة لجامعة الكوفة في مدينة الكوفة لغرض المباشرة بمهام التشجير في المرحلة التمهيدية لتخطيط المدينة الجامعية، وقد أجابتنا متصرفية لواء كربلاء بكتابها المرقم 16858 والمؤرخ في 25-11-1967 ونسخة منه اليكم بأنه يتعذر عليها حفر تلك الآبار بسبب انهاء منهاجها السنوي المقرر لحفر الآبار الارتوزية وقد أحلتنا الى مديريتكم المحترمة لمعاونة هذه الجمعية في حفر الآبار المذكورة. وبالنظر

لأهمية الموضوع بالنسبة إلى الاعمال التمهيدية المزمع القيام بها من حيث التشجير والتخطيط الجامعي، نرجو تفضلكم بالايعاز إلى الجهات المختصة بحفر ثلاثة آبار ارتوازية في المواضع الملائمة، تشجيعاً منكم للعلم والثقافة وخدمة للصالح العام.

وتفضلو بقبول وافر الاحترام.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية

وتنفيذاً لهذا الطلب، فقد أوعزت مديرية المشاريع العامة بكتابها المرقم 33253 والمؤرخ في 26-12-1967 إلى م. المهندس السيد ابراهيم الحبيب ـ رئيس قسم الحفر بحفر ثلاث آبار ارتوازية.

وفيما يأتي نص الكتاب:

م. المهندس السيد ابراهيم الحبيب ـ رئيس قسم الحفر

الموضوع/حفر آبار

نرسل اليكم بطيه نسختين من كل من استمارات موقع جامعة الكوفة رقم 1، 2، 3 راجين اتخاذ ما يلزم للإيعاز بحفر الآبار المطلوبة في المواقع المذكورة بموجب تلك الاستمارات واعلامنا.

محمد الشماع

مدير المشاريع العام

المرفقات

ست استمارات

وصفوة القول فإن الأراضي الجامعية في الكوفة قد تم تخصيصها وصدرت بشأنها الموافقة المبدئية من السلطات المسؤولة.

تقوم الجمعية بإعداد تخطيط للمشاتل، والتشجير العام للحدائق العامة، والمنتزهات الجامعية، والحقول الزراعية التجريبية، وحدائق متحف التاريخ الطبيعي، وحديقة الحيوانات، ومرافق متطلبات المدينة الجامعية، والملاعب الرياضية. ويشمل التخطيط برنامج مراحل التنفيذ ليساير ويسبق الاعمال البنائية في إعمار المنطقة زراعياً، لتكون الأراضي الجامعية بشكل حزام أخضر في أطراف مدينة الكوفة ويعزز كيانها المدني وارتباطها بمدينة النجف الاشرف.

ونحن جديرون بالاشارة إلى ان الجمعية قد ثمنت الجهود الطيبة التي بذلتها متصرفية لواء كربلاء بصدد انجاز معاملات الأراضي الجامعية في الكوفة، بكتابها المرقم 8 والمؤرخ في 7-1-1968 وهذا نصه:

السيد متصرف لواء كربلاء المحترم

تسلمنا صورة من كتابكم المرقم 7757 والمؤرخ في 24-12-1967.

وأرجو أن انتهز هذه الفرصة لأعبر عن شكرنا وتقديرنا لمساعدتكم وتسهيل مهام خطوات تحقيق الكيان الجامعي في الكوفة بمقاييسه الملائمة وما يتسم لهذه البقاع الكريمة بمنزلة تاريخية وعلمية، تتطلب منا احياء هذا التراث. وان دوركم الخير في تحقيق البقاع الخضر الجديدة لأفق المدينة الجامعية ومستقبل تطورها لسني المستقبل ستكون في سجل احداث صنع يوميات تاريخنا الحديث وفقكم الله.

مع أطيب التحيات.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية

كما ان المتصرفية قد أجابت على كتاب الجمعية بكتابها المرقم 550 والمؤرخ في 17-1-1968، والتي عبرت فيه عن صدق تعاونها في هذا المجال العلمي والإنساني.

وفيما يأتي نص الكتاب:

إلى/الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة

الموضوع/جامعة الكوفة

كتابكم المرقم 8 والمؤرخ في 7-1-1968.

في الوقت الذي نشكر لم فيه جميل مشاعركم نحونا لا يفوتنا أن ننوه بأن ما قمنا به لم يخرج عن نطاق الواجب ولا شكر على واجب للعلم ونرجو لكم التوفيق للسير قدماً في تحقيق مشروعكم العلمي الكبير

جابر حسن الحداد

متصرف لواء كربلاء

دعم المَشرُوع

من دواعي الفخر والاعتزاز أن يدعم مشروع تكوين جامعة الكوفة سماحة آية الله العظمى المرجع الأعلى الإمام السيد محسن الحكيم الطباطبائي حفظه الله وأدامه ذخراً لهذه الأمة، التي هي أحوج ما تكون في الوقت الحاضر إلى رعايته وتوجيهاته إلى ما فيه خيرها وازدهارها وعزها.

ولقد زاره في بيته بالنجف الاشرف جماعة من الاعضاء فأكبر جهود الجمعية، وأعرب عن آماله في مشاريعها وتفضل مشكوراً فأهدى موسوعته الفقهية الكبرى (مستمسك العروة الوثقى) إلى مكتبة جامعة الكوفة ووعد بتزويدها بكل ما يقدم إلى فروع مكتبته في الألوية من كتب ومطبوعات.

وقد رفعت الجمعية كتاب شكر لسماحته في هذه المساهمة الكريمة.

تبرعات لجامعة الكوفة

المحسن الوجيه السيد محمد كاظم مكية يساند مشروع تأسيس جامعة الكوفة

في احدى الليالي اجتمع رئيس الجمعية بالسيد محمد كاظم مكية وتباحث معه بشأن جامعة الكوفة فوجد منه تجاوباً واندفاعاً نحو هذا المشروع الإنساني الجليل. وعلى أثر ذلك تلقت الجمعية من السيد محمد كاظم مكية هذا الكتاب:

بغداد في 5 نيسان 1967

عزيزي الدكتور محمد مكية ـ رئيس جمعية جامعة الكوفة المحترم

تحية مباركة

وبعد، فانني ما زلت أتذكر ذلك الاجتماع وهاتيك الاحاديث التي دارت بيننا في تلك الليلة حول مشروع جامعة الكوفة. والحقيقة ان ذلك الحديث قد اتصف بسمو القصد ونبل الهدف، فقد وجدت فيكم من التحسس والاندفاع ما جعلني أشعر بأنكم عازمون عزماً أكيداً على انجاز هذا المشروع الإنساني وانكم منصرفون إلى تحقيقه مهما كلفكم الامر. وهذا المشروع جدير بأن يتحسس ويندفع اليه كل مسلم مؤمن يشعر بواجبه ويريد الخير والرقي لأبناء وطنه وأمته وللمسلمين جميعاً.

لقد كان حديثنا في تلك الليلة نابعاً من قرارة النفس وعمق الضمير وكان التجاوب الروحي والإنساني طاغياً على شعور كل منا. انني لا أغالي اذا قلت بأن الفكرة التي عرضتموها علينا في تلك الليلة كانت موضع اهتمامي وتأييدي مع اجلالي واكباري لها، ولهذا فقد وجدت نفسي مندفعاً اليها بشوق وحماس لأنني قد شعرت وتحسست بأن مشروع جامعة الكوفة عمل جليل لا يوازيه أي عمل آخر. واستجابة لهذه الفكرة وللشعور الذي قد تملكني وعملاً بالواجب فقد قررت المساهمة بهذا المشروع الإنساني. وان مساهمتي المادية فيه مهما بلغت فإنها لا تساوي شيئاً تجاه الشعور والاندفاع الذي أحمله ويحمله كل مواطن مخلص يعز عليه هذا البلد الوثاب المتحفز للخير والعمل والمفتقر إلى المزيد من العلم والثقافة والخلق الكريم.

انني لم أجد عملاً أبر وأنفع وأثمن من أن يجود الإنسان بماله للمؤسسات العلمية، مثل انشاء جامعة الكوفة، التي لا شك سيكون لها شأن كبير وانها ستساهم بحضارة هذا البلد ورفع مكانته العلمية وستكون هذه الجامعة احدى القواعد العلمية الشامخة، التي ستغذي الاجيال الصاعدة بفيض زاخر من صنوف العلم والمعرفة المرتكزة على قواعد الدين الحنيف وهذا ما سيساعد على اعداد نشئ متعاقب صالح يستطيع بعمله وثقافته واخلاصه وتمسكه بدينه أن يقدم لهذا الوطن العزيز وللامة العربية وللشعوب الإسلامية أفضل الخدمات وأصدق الاعمال المثمرة المعززة بالدراية والحكمة. وها انني أتقدم بتواضع واعتزاز وفخر لا مزيد عليه فأقدم لجامعة الكوفة قطعتي أرض مساحتهما حوالى (2500) متراً في موقع هام مع مبلغ خمسين ألف دينار.

ولما كانت لي بعض المقترحات فقد وددت تقديمها في هذه الرسالة راجياً عرضها على جمعيتكم المحترمة آملاً أن تحظى بالموافقة والتأييد:

1 ـ تشييد بناية على القطعتين لتكون المقر العام لجمعية جامعة الكوفة مع انشاء قاعة كبرى، يصرف مبلغ الخمسين ألف دينار على تشييدها.

2 ـ اسم القاعة تختاره الجمعية بحيث يلائم الغاية والهدف.

3 ـ تعد القاعة لأغراض الجمعية ولاجتماعاتها العامة ولإلقاء المحاضرات العلمية والثقافية وتعد للاجتماعات واللقاءات التي تتم بين الأقطار الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي وإظهار مآثره وتعد كذلك للإرشادات الدينية وللحفلات التأبينية والخيرية والتمثيلية وللاجتماعات الطلابية التي لا تتعارض مع أهداف الجمعية وتكون معدة ايضاً للحفلات الاهلية الخاصة المشرفة مثل عقود الزواج وإقامة الافراح وما شابه ذلك.

4 ـ لا تستوفى أي اجور عن اقامة تلك الحفلات الا ما تجود به أكف المحسنين من تبرعات تكون ريعاً للقاعة.

5 ـ اذا رغبت الجمعية في أن تجعل للقاعة موارد ثابتة كانشاء محلات تجارية فانها تنشأ على الارض نفسها لأن موقعها يساعد على ذلك.

6 ـ يخصص في القاعة جناح خاص لالسيدات تماشياً مع التطور والظروف. وان الاحتفالات التي تشارك فيها كرام السيدات يكون لها وقع ونفع وانسجام.

7 ـ تشكل لجنة لإدارة شؤون القاعة يكون آحد آعضائها شخصاً من اسرة آل مكية ممن تتوافر فيه الصفات التي تؤهله لهذه العضوية، وهذه العضوية يتعاقب عليها أفراد الأسرة على مر السنين.

8 ـ تقوم اللجنة بوضع منهاج خاص بالاحتفالات التي تقام في القاعة. وعلى اللجنة أن تقيم الحفلات لكافة المناسبات الدينية والتاريخية التي لها قدسية واحترام في قلوب المسلمين.

9 ـ من الواضح أن مشروع جامعة الكوفة قد أصبح له صدى كبيراً ويقتضي على الجمعية المحترمة أن تضاعف جهودها ونشاطها لتنمية هذا الصدى وعليها أن تستغل المقومات والمجالات الممكنة كافة لتعزيزه.

10 ـ ان أهم المقومات التي يحتاجها مشروع جامعة الكوفة في الوقت الحاضر هو قيام الجمعية بتأليف لجنة للدعاية والاعلام ويكون لها مجلة علمية واعلامية تلم بالبحوث العلمية القيمة وتنشر ما تقوم به الجمعية من نشاطات وفعاليات وما يرد اليها من بحوث وآراء واقتراح وهذا ما سيجعل لجمعية الكوفة مكاناً مرموقاً وصوتاً مسموعاً ورأياً مقبولاً.

هذه بعض المقترحات التي أردت عرضها على جمعيتكم المحترمة ولابد أن يكون للاعضاء المحترمين آراء ومقترحات أخرى تكون أبعد أثراً وأصلح رأياً. داعياً العلي القدير أن يأخذ بأيديكم لتحقيق ما تصبون إليه أنه سميع مجيب والسلام عليكم.

المخلص

محمد كاظم مكية

إن جمعية جامعة الكوفة مهما بالغت في تقديم الشكر والامتنان إلى المتبرع السيد محمد كاظم مكية فإنها لا تستطيع آن تفي حق هذا المحسن على اندفاعه المحمود، وتبرعه السخي المشكور، وإنما تقدر بإكبار وإجلال شعوره وتحسسه لهذا المشروع الإنساني الكبير. والجمعية اذ تتمنى أن يكون هذا المحسن قدوة لأمثاله من المحسنين، فالواجب يقضي على المحسنين والميسورين أن يمدوا يد العون والبذل والإسناد إلى هذا المشروع ليخلدوا لهم ذكرى وتاريخاً مجيداً في سجل الجامعة التي سينبثق من معاهدها نور العلم والمعرفة والكمال وسيقضي كيانها على الجهل والتخلف والشقاء.

وتحقيقاً لهذا الغرض، فقد قام السيد محمد كاظم مكية بمعاملة تفريغ الأرض باسم الجمعية. وطلب المباشرة بإعداد الخرائط والتصاميم للقيام بتشييد البناية المذكورة، وقد قامت الجمعية بتصميم البناية وأنجزت قسماً من الخرائط. وإن القسم الآخر ما زال العمل قائماً فيه، وسيتم عن قريب وضع الحجر الأساس لهذه البناية إن شاء الله. ونشير إلى آن الارض المتبرع بها تقع في منطقة الهندية ـ الكرادة الشرقية وتبلغ مساحتها حوالى 2500م على مقطع ثلاثة شوارع منها الشارع العام، والمبلغ الذي قد خصصه المتبرع السيد محمد كاظم مكية لتشييد البناية هو خمسون ألف دينار.

وقف السادة الحاج محمد رضا، ومحمد جواد، ومحمد هادي، ومحمد كاظم، وعدنان، أولاد المرحوم الحاج عبد الرسول خنده علي، نصفَ الخان الواقع على الساحل النهري في الكوفة على الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة لتستغله في أغراضها الثقافية والعلمية. وقد اعتزت الجمعية بهذا التبرع الكريم.

خان السيد جواد الكليدار

وقف الأستاذ المحامي السيد حسين الرفيعي سادن الروضة الحيدرية، والسيد الوجيه السيد عبد الوهاب الرفيعي، خانَ والدهما المرحوم السيد جواد الكليدار الواقع على الساحل النهري بمدينة الكوفة على الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، لتستفيد منه في أغراضها العلمية والثقافية. وقد أعلنت الجمعية عن بالغ اعتزازها بهذه الثقة الغالية والدعم الكريم لمشروع جامعة الكوفة.

آخبار ومراسلات الجمعية

موسى الصدر يزور الجمعية

كان سماحة العلامة السيد موسى الصدر قد زار مقر الجمعية، وأعرب عن سروره للذي وقف عليه من أخبارها وبارك مسعى العاملين فيها، وأعرب عن أمله في أن يمتد نفعها إلى البلدان الإسلامية. وسماحته من علمائنا الأفاضل، الذين وهبوا أنفسهم للرسالة الدينية، وهو من العاملين على انهاض، وتطوير الرسالة الثقافية، والاجتماعية، في لبنان.

الزمالات الدراسية

لقد اعلنت الجمعية في بداية العام الدراسي الحالي عن تخصيص زمالات دراسية في جامعة بغداد للمتفوقين المعوزين من طلاب الثانويات المتخرجين خلال هذا العام. وقد قررت الهيئة الإدارية في اجتماعها المنعقد بتاريخ 3-7-1967 إناطة مسؤولية وضع الشروط المناسبة لهذه الزمالات بمجلس التخطيط العلمي وقد فرغ من وضع الشروط ورفع توصياته إلى مكتب الرئاسة في الجمعية. وقد قام مكتب الرئاسة بدراسة الطلبات المقدمة إلى الجمعية وخصص الزمالات الاربع إلى الطلبة الذين توافرت فيهم الشروط المطلوبة وهم السادة:

1 ـ محمد جمال ـ طالب في كلية الهندسة.

2 ـ عبد الامير محسن لفتة ـ طالب في كلية التربية.

3 ـ شوقي تاريش رشيد ـ طالب في كلية الحقوق.

4 ـ عبد الامير عبد الله الاشبال ـ طالب في كلية الطب.

الموسم الثقافي في مقر الجمعية

لقد شهد مقر الجمعية في شهر رمضان المبارك موسماً ثقافياً حافلاً. نظمت خلاله مناهج لندوات اسبوعية متتالية كان أولها منهاج الاسبوع الثاني من شهر رمضان ابتداء من يوم الثلاثاء الموافق 12-12-1967 وتحدث فيه الاساتذة:

محمود الحبوبي ـ مختارات شعرية.

جعفر الخليلي ـ بعض ما احتفظت به الذاكرة من الحوادث.

صالح الجعفري ـ مختارات شعرية.

وفي يوم الأربعاء الموافق 13-12-1967 جاء دور المتحدثين، الاساتذة :

الدكتور ضياء الدين ابو الحب ـ العقل البشري سر الاسرار.

صادق القاموسي ـ مختارات شعرية.

محمود المظفر ـ مع القائلين بعلمانية الدولة.

اما منهاج الاسبوع الثالث فكان مخصصاً للامام علي (عليه السلام). وكان المتحدثون بتاريخ 19-12-1967 الاساتذة السادة:

الدكتور حسين علي محفوظ ـ الإنسان الكامل.

طالب الحيدري ـ مع الإمام (شعر).

مرتضى العسكري ـ جهاد الإمام في المحافظة على الإسلام بعد الرسول (ع).
المهندس أسعد الشبيبي ـ من وحي الإمام (شعر).
وفي يوم الأربعاء الموافق 20-12-1967. تحدث الاساتذة السادة:
الشيخ محمد مهدي الآصفي ـ الإمام علي ورأيه في توزيع المال.
عبد الغني الحبوبي ـ سياسة الإمام علي (شعر).
الدكتور عناد غزوان ـ الخصائص الفنية لأدب الإمام علي (ع).
وكان منهاج الاسبوع الرابع هو ختام الموسم الثقافي. وقد تحدث في يوم الثلاثاء الموافق 26-12-1967 الاساتذة السادة:
الدكتور صالح احمد العلي ـ تنظيم المدن الإسلامية.
فؤاد عباس ـ المكيفات في الادب.
الدكتور فوزي رشيد ـ الموسيقي عند العراقيين القدماء.
وفي يوم الأربعاء الموفق 27-12-1967 تحدث الاساتذة السادة:
الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ في رحاب القرآن
الشيخ علي الخاقاني ـ أندر المخطوطات في العراق.
الدكتور محمد جواد رضا ـ النزعة التأملية عند الإمام علي (ع).
وأقامت الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة ندوات ثقافية بمناسبة ذكرى وفاة الإمام الصادق عليه السلام تحدث فيها الاساتذة السادة وفق الترتيب التالي:
السبت 27-1-1968:
الدكتور حسين علي محفوظ ـ تراث الشيعة والإمام الصادق.
الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ لمحات من التراث العلمي للامام الصادق.
الدكتور صادق مهدي السعيد ـ الضمان الاجتماعي في فقه الإمام الصادق.
الاحد 28-1-1968:
الدكتور حسين أمين ـ عصر الإمام الصادق.
السيد عدنان البكاء ـ الإمام الصادق وعصره.
الاثنين 29-1-1968:
السيد محمد بحر العلوم ـ الاسرة في فقه الإمام الصادق.
الشيخ أسد حيدر ـ حياة الإمام الصادق.
الدكتور عناد غزوان ـ الخصائص الفنية في أدب الإمام الصادق.

أنباء اخرى

ـ تسعى الجمعية لإقامة متحف حضاري في جامعة الكوفة تعرض فيه النماذج الزخرفية والبنائية، والادوات عبر تاريخ الكوفة الطويل. وتحتفظ الجمعية في مقرها اليوم بنماذج متعددة من الزخارف الكوفية، منظمة بشكل معرض جميل.
ـ من الدراسات التي توصلت اليها لجنة الدراسة التحضيرية المنبثقة عن لجنتي الطب والهندسة هو ادخال الدراسة التحضيرية في جامعة الكوفة، حيث جرت دراسة مستفيضة حول هذا الموضوع.
ـ تعكف اللجان المختصة في هيئة كلية الطب وهيئة كلية الهندسة على وضع التقارير النهائية بالمناهج الدراسية المتعلقة بهذين الموضوعين.
ـ تصاميم جامعة الكوفة ومقر الجمعية في بغداد:
من المعلوم، أن الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة سيكون مقرها الدائم في بغداد. وهي تقوم الآن بوضع التصاميم اللازمة لهذا المقر الذي سيشيد في الكرادة الشرقية.

وقد اودعت الهيئة الإدارية بجلستها المنعقدة بتاريخ 20-11-1967 إلى السيد رئيس الجمعية أمر وضع التصاميم اللازمة بهذا المقر.

أما التصاميم الخاصة بالمدينة الجامعية في الكوفة ومنشآتها فستتخذ الإجراءات بشأنها حالما تنتهي اللجان العلمية من وضع الشكل العام للمنهاج التخطيطي للجامعة ومراحله والاقسام التي ستفتح.

- الملاك الإداري في مقر الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة في بغداد.

يتألف الملاك الإداري من السادة التالية اسماؤهم:

1 - عبد الصاحب الهر - مديراً للإدارة والذاتية.

2 - عبد الحسين طاهر - ملاحظاً للإدارة.

3 - علي محمد مهدي - أميناً للمكتبة.

4 - ولسن جورج خوبير - كاتباً للطابعة.

5 - أحمد حمودي - حارساً.

6 - فاضل عباس - فراشاً.

7 - عبد الله عبد الوهاب - موزعاً.

8 - رحيم عباس - بستانياً.

ما نُشر عن الجمعية في الصحف العراقية

- ن أول ما نشر عن الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة، كان في جريدة المنار بعددها الصادر في 20-10-1966: قدم عدد من رجال الفكر والمجتمع في العراق طلباً إلى وزارة الداخلية لتأسيس جمعية بإسم الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة. وستقوم الجمعية بإعداد كل ما يلزم من امكانات علمية ومالية وفنية لإنشاء جامعة على أسس قوية في الكوفة تعمل على نشر المعرفة الحقة وبث الثقافة الجامعية الأصيلة واحياء التراث العربي والإسلامي والإسهام في النهضة العلمية المعاصرة.

- أما جريدة البلد، فقد نشرت بعددها الصادر بتاريخ 11-11-1967 في حقل مساهمة الشعب بالتعليم الجامعي (ان فكرة تأسيس جامعة أهلية في الكوفة قد نالت تأييد كثير من الناس وحينما تنتقل الفكرة الي حيز الواقع وتقوم في الكوفة جامعة، فإن منطقة الفرات الاوسط كلها ستنتعش ثقافياً واقتصادياً وعمرانياً.

- ونشرت البلد في عددها الصادر بتاريخ 21-5-1967 (تقول الأنباء الواردة من بيروت انه قد عقد اجتماع في منزل السيد عبد الرزاق مرجان، حضره عدد من أبناء الجالية العراقية في لبنان، وفتح باب التبرع لجامعة الكوفة فتم جمع مبلغ (75) ألف دينار، من (25) شخصاً. ومن المنتظر أن تبلغ قيمة التبرعات أربعة ملايين دينار. وستكون جامعة الكوفة أول جامعة من نوعها في الشرق الاوسط، من حيث النظام، والمنهاج، والتخطيط ويدعمها ويشجعها المرجع الديني الأعلى في العراق سماحة الإمام السيد محسن الحكيم وستفتح الجامعة أبوابها لأبناء العراق والبلاد العربية.

- تلقت الجمعية البرقية التالية من المؤتمر الثالث لغرف التجارة العراقية المنعقد في كربلاء بتاريخ 28-2-1968 والتي تعبر عن أصدق مشاعر الدعم والتأييد لإقامة الكيان الجامعي في مدينة الكوفة:

نص البرقية

الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة بغداد

يحيي المؤتمر الثالث لغرف التجارة العراقية المنعقد في كربلاء بتاريخ 28-2-1968 الأهداف الجليلة لجمعيتكم من أجل النهضة العلمية والثقافية وجهودكم الموفقة لرفع مستوى الحضارة وخدمة أبناء الجيل الجديد، ويدعم المؤتمر مشروعكم الكبير ويبارك له ويساهم في سبيل اخراجه لحيز الوجود بتسخير طاقاته المادية والمعنوية.

رئيس المؤتمر

هاشم نصر الله

كما أجابت الجمعية على هذه البرقية بكتاب الشكر الآتي:

الاستاذ الفاضل السيد هاشم نصر الله المحترم.

رئيس المؤتمر الثالث لغرف التجارة العراقية ورئيس غرفة تجارة كربلاء

تحية كريمة،

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير برقيتكم الرقيقة التي عبرتم فيها أصدق تعبير عن مهام وأهداف هذه الجمعية التي تكون موضع ثقتكم واعتزازكم، مؤكدين بأنها ستواصل السير حثيثاً من أجل تركيز المفاهيم العلمية الصحيحة، وستساهم ايضاً في دفع عجلة التطور العلمي بما يتناسب وحضارة هذا البلد العريقة خدمة لأبناء الجيل الصاعد.

ان هذه الجمعية في الوقت الذي تعتز بهذه المشاعر الصادقة، ترجو مخلصة بأن تكلل أعمال مؤتمركم بالنجاح والتوفيق.وتفضلوا بقبول فائق شكرنا وتقديرنا.

الدكتور محمد مكية

رئيس الجمعية

1. دليل وثائقي أصدرته الجمعية المؤسسة لمشروع جامعة الكوفة العام 1968 عن مطبعة الأزهر ـ بغداد بنسخ محدودة. وقد شمل هذا الدليل وثائق المشروع ومراسلات الجمعية مع الجهات المختصة كافة، تنشر كما هي من دون تعديل أو إضافة.

خلاصة ايضاحية للتصميم المقترح
المكتب الاستشاري للتصميم والتخطيط
1/130 ـ كرادة مريم ـ بغداد ـ عراق ـ ت 3460

تقديم

على ضوء دراسات وتوصيات اللجان والمجلس العلمي وقرار الهيئة الادارية فقد اعدت التصاميم المقترحة للتخطيط الأساسي العام لمشروع جامعة الكوفة على الأراضي المخصصة لها.

وقد اعدت الدراسات التمهيدية المسبقة للمشروع على ضوء الاستطلاعات والدراسات العلمية والاختصاصية المتوافرة في التخطيط الجامعي وتطوره الحديث لما يناسب والتكوين الجديد مستوعباً لأكبر حد ممكن المرونة اللازمة وطبيعة اقتصاد المشروع الأهلي، ونطاقه ومهام مراحل تنفيذه وقد حظيت مهام التخطيط للأبنية الجامعية وتكوين ما يحتاجه المجتمع الجامعي والوظائف العلمية للأبنية والمنشآت والمرافق ومهام التوسع والتطور دراسات كبيرة في الآونة الاخيرة. ظهرت وهذه الدراسات بالتقارير والندوات الخاصة والتي نشرتها الدورات العلمية والمؤسسات المختصة في التخطيط والتصميم المعماري.

ونرى من الأفضل ان يشار إلى بعض هذه المراجع في ملحق هذا التقرير كما اشير ايضاً إلى الاعضاء المساهمين في وضع هذه الدراسات، والى المشاركات والاستطلاعات ومطالعات النقد والتحليل التي مرت على التصاميم منذ البدء بإعداده وإعداد الدراسات الاولية. وان التصميم المقترح جاء نتيجة التطور والتعديل المستمر للتصاميم التمهيدية والتحليل العضوي لهيكل الوجود الجامعي. وسيكون في الامكان بالمستقبل قيام عرض خاص بهذا العدد يشير إلى كيفية تطوير الفكرة التصميمية والأدوار التفصيلية للمرحلة التي هي عليه الآن. هذا مع العلم بأن التصميم سيستمر في تطويره للأجزاء والفقرات التي تنمو بمواقعها المختصة. ان من المهم في هذه المرحلة هو التأكيد على اهمية التخطيط الاساسي العام والتقيد بخطوطه العامة وقوامه الرئيسي، وان من شأن بديهية التخطيط واهدافه مدى الاستيعاب الشامل الذي تحتمه النظرة للمستقبل القريب والبعيد، ولا شك ان هذه تحقق بالاضافة إلى الفوائد العملية في التنسيق واداء الوظائف للمباني التعليمية مبدأ اقتصادي هام بالنسبة إلى التكلفة والصيانة والإدارة الخ..

إن واقعية التخطيط هو ان ينظر لما قد يثمر قريباً او في مراحل وان يكون جزءاً من وجود لكيان عام. وقد اكد التخطيط في تصاميم الأبنية مهام التكرار من دون ملل وذلك عن طريق التوصل إلى كتل حجمية ملائمة وليس مجرد مخططات مسطحة لمواقع. وان مفردات المبنى الواحد بإمكانه ان يتغير إلى حدود ما تفرضه المتطلبات الجديدة ويحافظ الوقت نفسه على الاستمرارية والتقارب مع المفردات المسبقة له، وبهذا اقتصاد واضح في تفاصيل التصاميم وتنفيذ المباني من قبل المقاولين وتكرار للوحدات المتشابهة التي حين تتكرر تكون تنسيقاً ملازم المعنى للمنشآت الجامعية وطابعها المتميز.

وقد اكد التخطيط الإرث الحضاري للمنطقة بصورة طبيعية غير مفتعلة وبساطة استعمال المواد المحلية، مراعياً في كل الأحوال الطبيعية الجغرافية والمناخ والبيئة التي يبنى فيها، اذ ان من الملاحظ في عصرنا الحاضر وتصاميمنا الحديثة انها تفرض بوحي ما تصدره المجلات والنماذج المعمارية الحديثة ويراه المهندسون بضاعة سهلة التناول ومقبولة للاستهلاك.

لقد سهل التصميم الاساسي العام وجود المواقع اللازمة عند الضرورة وحرية التصميم لها ضمن مفاهيم التخطيط العام. ويؤمل ان تسترشد انجازات التصاميم لأبنية المستقبل لأقصى حد ممكن بفلسفة التخطيط والفكرة التصميمية العامة ويتجنب الاهواء والحيل المعمارية والتصاميم البراقة. وان التأكيد على الاعتقاد بمدى اهمية التصميم سيكون له دافع أساسي هام في الكيان الجامعي في الكوفة، وبداية أمينة حريصة على المستوى والمقاييس الملازمة للبيئة الجامعية الجديدة. ونرجو مؤكدين بأن التخطيط بمفهومه الشامل يحقق بأقل تكلفة ممكنة وباقتصاد أصيل ودائم، وفي هذه المرحلة حيث قد تصعب وفرة المال لهذا المشروع ويؤمل ان يستعاض على

الاقل بتحقيق تصاميم تصبو للقريب والبعيد على اسس التأمل والدقة وعدم الانسياب بدافع سذاجة واقعية اليوم والغد له حسابه في يومه. نأمل تجنب مآسي اخطبوط الفكر ونسعى بعون الله وقوته والايمان بأن «العلم دين يدان له».

موقع المدينة الجامعية

إن المدينة الجامعية محاطة جنوباً بالشريان الرئيسي لشارع كوفة ـ نجف وهو شارع جسر الكوفة إلى الحلة وبغداد، وشمالاً الشارع الجديد المقترح امتداداً لموقع الجسر الجديد والذي يتصل بشارع كربلاء ـ نجف، وشرقاً في الجهة الشمالية الامتداد الساحلي لنهر الفرات لواجهة بمسافة تقريبية تساوي 2000 متر طول، شرقاً من الجهة الجنوبية الحدود الطبيعية لنهر كرى سعدة.

أما بالنسبة إلى الاتجاه الغربي فيحد الموقع شارع عرضي يوصل الشارع الرئيسي كوفة ـ نجف بشارع الجسر الجديد «حلة ـ كربلاء»، وان هذا الشارع الجديد في الاتجاه الغربي سيكون الشريان الرئيسي لحدود الجامعة في هذه الجهة، وقد اعدت دراسة تصميمية لعرض الشارع المقترح 60 متراً، وارسل تقرير بهذا الصدد إلى المتصرفية وقائمقامية النجف وجرت مداولات ايدت فيها الإدارة المحلية التعاون في تحقيق هذا الشارع وإجراء التسوية الترابية، وإبداء المساعدة في امكانية تشجيره على ضوء المخطط والتقرير المرسل المرقم 631 /68 والمؤرخ 3/10/68 والمرفق نسخته في ملحق هذا التقرير.

ان الواجهة النهرية للمدينة الجامعية تقدر بمساحة حوالى الف دونم وعلى ضوء معدل تكلفة للدونم الواحد 30-40 ديناراً فإن الاستملاك المطلوب سيكون بحدود معدل تكلفة 000.35 دينار، علما بأن البساتين النهرية بمساحتها القليلة قد اشتريت بمعدل 60-80 ديناراً مع المدروسات وحقوق المغارسة التي قدرت بنصف الثمن للدونم الواحد.

ولا شك هنا في اهمية الواجهة النهرية في احياء المنطقة وخلق الجو الجامعي وتهيئة المرافق المناسبة، وما سيكون له النفع والفائدة للمدى البعيد في التخطيط العام. علاوة على ان المرفأ النهري سيحقق بعض مهام المواصلات النهرية التي سبق للكوفة ان تولت مكانة هامة كثغر على نهر الفرات ويوصلها بمدن وقرى الحوض الأوسط للمنطقة، كما انه سيحقق الافق النهري والواجهة الساحلية للبيئة الجامعية، وموقعها المتميز وايصالها بالساحل الشرقي في مهام التخطيط للمستقبل.

التوزيع العام للأراضي الجامعية والمباني والمرافق الجامعية ـ المجاميع الدراسية

ان توزيع المساحات للأراضي على ضوء الدراسات، التي يتطلبها الوجود الجامعي المتكامل، يتأتى اعتماداً على الدراسات التي تهيئها الجامعة في مستقبل ومراحل نموها كجامعة علمية شاملة لحقول المعرفة، والدراسات النظرية والتطبيقية والبيئة السكنية الطلابية والهيئات التدريسية والادارية مع المرافق التي تحتمها مهام متطلبات المستوى المعمول به في التكوين الجامعي الحديث، كذلك في التقارير الدراسية واللجان المنبثقة من مهام التخطيط للدراسات الجامعية في العالم.

ومما يلاحظ بصورة رئيسية في مثل هذه التقارير لجامعة المستقبل هو:

1 ـ التأكيد على المساحة التي تتطلبها مهام التوسع المستمر في نطاق التعليم الحديث وزيادة المعرفة وتفرعها.

2 ـ التأكيد على معدل للحد الاعلى لمجموع الطلبة والاخذ بنظر الاهتمام المعدل الجديد للجامعة الحديثة على ضوء الزيادة في السكان والاقبال على الدراسة الجامعية كاستمرار للدراسات المسبقة في الاعدادية. وهناك احصائيات تشير إلى ان عدد طلبة الدراسات ما بعد الثانوية يراوح بين 2% ـ 4% من سكان المنطقة وان الدراسة المقارنة والاحصائية في ملحق التقرير توضح طريقة التوصل إلى مقترح عدد طلبة جامعة الكوفة بحدود لا تتجاوز عشرين الف طالب لأقصى حدود التوسع في المستقبل، وهذا العدد يتناسب مع ما جاء بآخر التقارير بالنسبة إلى الجامعات الجديدة. وان توزيع الفضاءات والأراضي والمساحات قد دُرس على ضوء هذا العدد وتوزيعه على مختلف الدراسات العلمية. وبهذا فإن احتساب الفضاءات المطلوبة جاء كما يلي:

1 ـ المباني والمنشآت الجامعية العلمية 184 دونماً:

إن هذه المساحة احتسبت على ضوء كون الأبنية بحدود طابقين وتشمل المساحات والحدائق والأراضي الداخلية المرتبطة بها بالنسب التصميمية المعمول بها في مستويات الكثافة. وقد اشارت الدراسات التحليلية التي قام بإعدادها المهندسون الاستشاريون لجامعة بغداد إلى تحليل يستحق المراجعة نظراً للخبرة الاختصاصية لهذه المؤسسة في التخطيط والتصميم للمنشآت الجامعية في العالم.

2 ـ منطقة الحزام الأخضر والتشجير للجامعة حوالى 200 متر حول المحيط.

3 ـ المنشآت والمرافق والساحات الرياضية 130 دونماً بضمنها ساحة الفروسية.

4 ـ أبنية المعاهد الزراعية والصناعية 85 دونماً.

5 ـ السكن الطلابي بنسبة 80% من الطلبة300 دونم 16000 طالب سكن.

6 ـ السكن الطلابي للمعاهد الزراعية والصناعية 65 دونماً لعدد 4000 طالب.

7 ـ سكن الهيئة التدريسية، عدد أعضاء الهيئة التدريسية 2000 عضو بنسبة 1/10.

عدد اعضاء الإدارة والموظفين بنسبة 1/15 1300

المجموع 3300، باعتبار 2/3 العدد للسكن من 1200عضو معدل المساحة التقديرية لكل سكن مع الحدائق 135 دونماً الخاصة 150م حدائق خاصة للمرافق السكنية بنسبة 1/3 405 دونماً.

8 ـ القرية الزراعية وسكن المستخدمين 1000 دار 40 دونماً معدل 100م للدار الواحدة.

وبمعدل حدائق وساحات ومرافق خاصة 40 دونماً بالنسبة نفسها.

9 ـ متطلبات حاجات الدورة الزراعية للمحاصيل الشتوية 1500 دونم للتجارب الايضاحية وللتكسير (عدا زراعة الشلب).ودورة خاصة للشلب والقطن 500 دونم.

10 ـ المخيم السياحي الطلابي حوالى 150 دونماً.

المخيم السياحي الأهلي

11 ـ الطرق الرئيسية والممرات ومواقف للسيارات والمراكز الرئيسية وأبنية وساحات الخدمات المختلفة بنسبة 10% ومطار الهليكوبتر 400 دونم.

12 ـ حقول تجريبية ومشاتل ومزارع للدواجن 300 دونم وتربية الاسماك، وحديقة حيوانات وما يخص دراسات الري وتنظيم القنوات.

13 ـ مشاريع دراسية للأراضي القاحلة 100 دونم.

14 ـ القنوات المائية لنهر كري سعدة مع مقترح 400 دونم.

القنوات المقترحة والآبار الارتوازية عدد (5) 10% من المساحة وبضمنها الحديقة للماشية.

15 ـ المستشفى التعليمي والعيادة الخارجي والمركز الطبي 50 دونماً.

16 ـ بساتين الفاكهة المختلفة، فاكهة متساقطة، بستان النخيل والليمون (مع مقترح الزيتون) وحقول تجريبية 300-400 دونم.

الاعتبارات التصميمية في التخطيط العام

لقد حاول مقترح التخطيط الاساسي للوجود الجامعي في حدود الأراضي المخصصة ان يحقق ما يلي:

1 ـ ما توصلنا اليه في نطاق مفهومنا واستقصائنا للفكر التعليمي الجامعي في اسسه وفلسفته العامة واستقصاءات وردت في البحوث واللجان المعنية في التعليم الجامعي وأغراضه وهدفه وتطويره الحديث على ضوء اداء تسهيل الوظائف التعليمية بالكفاية التي تتحقق عن ارتباط سليم في المهام المتعددة في التكوين الدراسي.

هذا التكوين الذي في مستوى المجموعة الكلية للكيان الجامعي ووجوده ليعبر عن أهداف الفكرة الجامعية ومقوماتها التعليمية والتطبيقية ومفهوم المجتمع الجامعي والطلابي لتسهيل تحقيق بيئة تعليمية بالمستوى الجامعي اللائق.

2 ـ اضافة إلى ما ورد في الفقرة الأولى من المفاهيم الجامعية العامة فإن فكرة الكيان الجامعي للمشروع المطلوب يتطلب ان يستمد مقومات خاصة به. وان من هذه المقومات التي روعيت في التخطيط والتصميم للتصميم الاساسي لجامعة الكوفة هو اهمية دراسة تأثير الطبيعة الجغرافية والمناخية في التصميم العام، وتصاميم المفردات التي يتكون منها هذا التخطيط. وقد كان بالنتيجة هذه ان راعى التصميم في توزيعات فضاءاته وجمعها عوامل المناخ وبيئة العراق والبيئة المحلية وظهرت الحلول الملائمة لهذا الغرض فقد اكدت الفضاءات الخارجية استعمالاتها وتحديد مواقعها وتنظيم الفسح واحاطتها بالأروقة المكشوفة وما نجم من حلول تختلف في مجموعها

عن حلول التصاميم الاساسية للجامعات الأوروبية ذات البيئة وطبيعة المناخ المختلف عما هي في موقع جامعة الكوفة. وان التأثير للطبيعة المحلية على التخطيط يتطلب مراعاة الطقس الجوي وحركة الشمس ومهب الرياح ودرجات الحرارة صيفاً، ومدى اختلافها في خلال ساعات اليوم بين النهار والليل، وكذلك كما سيتضح في دراسات التفاصيل للمباني والتأثيرات المشار اليها في الأبنية واستعمال المواد الانشائية.

3 ـ اضافة إلى دراسات تأثير البيئة الطبيعية والمناخية، فإن دراسات تأثير البيئة التاريخية للمنطقة وتراثها المعماري للمعالم الإسلامية الشاخصة بصورة عامة والعمائر الإسلامية في النجف والكوفة بصورة خاصة اعتبر من المهام الرئيسية في مهام مقومات التخطيط الاساسي لجامعة الكوفة. بالاضافة إلى التراث المحلي والتقليدي، الذي لا تزال آثاره موجودة في مدينة الكوفة والنجف. لقد استمد التصميم التأثير بهذه الدراسات التي جاءت بصورة استمرار لتراث جديد وليس احياء لتراث قديم. حيث ان مثل هذا التراث كانت له مقومات اصيلة لوجوده تأتي من الواقع المحلي والكيان الاجتماعي، وباستعمال مواد بنائية محدودة، وان نتيجة التبلور العلمي والتكنولوجي التي حققت مجالات جديدة ومواد حديثة فلابد من ان يحقق حسن استعمالها في مجالات جديدة تظهر في التعبير عنها اساليب حديثة يستفاد منها في التكوين والقوام الجديد لما قد يشار اليه في مدرسة فكر معمارية مستمدة من مقومات اصيلة وتمتلك الخصائص الفنية المتأتية من ارثها الحضاري وتعبيرها الواقعي لمعالم المعمارية للبيئة والمدينة الجامعية الجديدة.

4 ـ وان ما يقترن بالإرث الحضاري لا يقتصر فقط بمهام الصناعات والقابليات الفنية التي حوتها الأبنية بل يشمل ايضاً الارث التعليمي والاجتماعي ومدى تأثرها في التكوين والتخطيط الجامعي، وان من الضروري مراعاة عدم فرض مالا تقبله حتمية الواقع. إلا ان التأمل الدقيق وعدم التحيز بغفوات القديم او الحديث عما من شأنه ان يتولى المصمم المسؤول الاحاطة الكافية والتحري اللازم للمفاهيم الاجتماعية ومدى تأثرها المباشر وغير المباشر في تحقيق التصميم بمستوياته التي تؤهله بالمميزات الخاصة المتبقية لا بحدود البيئة الطبيعية وحدها ولا التأثيرات للمعالم التاريخية والاثرية بل ايضاً بمدلول المفهوم للإرث الاجتماعي المتميز في البيئة والعقيدة للمجتمع الإسلامي. ومن نتيجة هذا التحري نرى الحلول التصميمية تتسم بخفايا بألفاظ او رموز ذات معان كامنة في محتواها ووسائل التعبير عنها، فالإيوان مثلاً في تقاليدنا الاجتماعية وحلقات التدريس والمناظرة يمكن ان يجد مجالاً للاستمرار في التعبير عنه في التخطيط حيث قد يتوسط واجهات الأروقة المحيطة بالفضاءات الجامعية ويسهل التعرف بالاتجاهات والاتصالات ويمكن ان يعلو فيشمل اكثر من علو طابق وبدوره يمكن ان يؤدي إلى اوساط مركزية في توزيع المنشآت التعليمية، وتعدد وظائفها وسعة أحجام قاعاتها، والحلقة الدراسية التي شاع استعمالها في الجامعات العالمية المتفوقة قد تعود في اصلها وجذورها لصفوف المدرسة الإسلامية، والتي تتولى بيئة النجف والكوفة المكانة العليا والمنزلة العلمية في تنظيم حلقات الصفوف التدريسية.

5 ـ حاول التصميم ان يحقق تنظيم شبكة الشوارع الرئيسية داخل الأراضي الجامعية، لسهولة الاتصال بالخارج في الاتجاهات المؤدية لشوارع المدينة الجامعية واتصالها المباشر ببوابات الجامعة في الاتجاه الحيوي ويؤدي الشارع الرئيسي لمدخل الجامعة إلى المركز الجامعي، ويكون العمود الفقري بين تتمة الشارع الشمالي لبوابة الحلة في اتجاه ما بعد جسر العباسية للاتصال بالمركز الجامعي، والقطاعات الخاصة في تلك المنطقة. وتصل الشارع الغربي في الحي الجامعي الصناعي بالشارع المحيط في الأراضي الجامعية، والتي يحدها في هذا الاتجاه والذي يتصل بالبوابة الغربية وفي هذا الشارع واتجاهه يؤدي وظائف الخدمات المختلفة للحي الصناعي الجامعي ومتطلباته في الخدمات والصيانة.. الخ. والمدخل الساحلي لمدينة الكوفة الذي هو امتداد لشارع كورنيش الكوفة إلى البوابة النهرية. ومن هذه البوابة تتمة شارع رئيسي في حي السكن للهيئة التدريسية والدار الرسمية لرئيس الجامعة ومبنى دار الضيافة للجامعة. وان الشارع الخلفي الذي يجمع هذه الاتجاهات بحدود المباني الجامعية التعليمية ويتصل بشوارع فرعية خاصة يؤدي مهام الاتصال إلى الأقسام والمجاميع الجامعية، ولقد روعي في التخطيط تنظيم حركة السير الآلية بوضوح، وبمأمن وانعزال عن الحركة الداخلية في ضمن المجاميع والأقسام الدراسية، ويمكن ان تعتبر هذه الناحية من اهم العوامل التي يجب توضيحها والتقيد بها في التخطيط العام من أجل حصر وعزل الحركة الآلية، وتأمين وصولها إلى الحدود المطلوبة. كما ان التخطيط قد راعى توزيع المواقف ووجود الساحات الكافية للسيارات في اماكن محددة لا تتجاوزها، والغاية التي يتوخاها التصميم ويؤكدها هو ضرورة ومهام تحقيق فضاءات جامعة هادئة ومماشٍ وشوارع خاصة بالحركة الطلابية مشياً على الأقدام ومن دون ازعاج وتهديد وضجيج متأت من طبيعة

السير والسرعة لحركة النقل الآلية للسيارات، وبهذا يضمن التصميم حقوق الإنسان في الفضاءات وفي الوقت نفسه يضمن الحد الأقصى المناسب لتنظيم وسائل المرور الاخرى وحتمية وجودها وتغلغلها للوصول إلى مواقعها المطلوبة.

6 - تتجمع في المركز الجامعي الأبنية التالية:

أ - مبنى المكتبة المركزية التي تتوسط الكيان الجامعي، وذلك تعبيراً واعترافاً لما للكتاب ورمزيته في هذا الوجود، فقد ورد في ذكر الكتاب وما يسطره تدوين القلم في الكتاب الآية الكريمة «والقلم وما يسطرون» كما ان المكتبة المركزية هي الوسط الذي يجمع شمل كافة الأقسام وتلتقي به كافة الأوساط الطلابية والهيئات التدريسية وبرج هذا المركز الجامعي هو مقترح برج الكتاب المتصاعد، والذي ينمو بنمو المعرفة للإنسان والتزايد في ما يسطره العلم ويدونه اهل العلم والدراسة في بطون الكتب التي تتجمع في صفوف الرفوف المتزايدة، وتقترن بوجود المكتبة بالاضافة إلى الكتب وقاعات المراجعة والبحوث والمطالعات العامة والخاصة، ومعارض المخطوطات والكتاب الخ.. يخص المرافق التدريسية ومجال الحلقات الدراسية العامة.

ب - ويقترن بالمركز الجامعي وجود القاعة الجامعية الكبرى التي تتمركز فيها فاعليات المناسبات الجامعية والمقامات العلمية التي تشملها مناهج حاجات الجامعة ومركزها الرئيسي.

ج - مبنى ادارة الجامعة في فقرات التكوين للمركز الجامعي، ووجوده في مركز الحركة بالنسبة إلى المدخل العام، وبالاضافة إلى مكتب الرئيس ومساعديه والهيكل الاداري وملحقاته فإن المبني يمكن ان يقترح ايضاً الوسط العلمي للاجتماعات ونقاش الهيئة التدريسية، واجتماع اللجان العلمية المختلفة وتسهيل بعض المرافق العامة للهيئة التدريسية.

د - المركز الطلابي وموقعه المقترح في الجانب الشمالي الشرقي حيث يتقارب موقعه والاتصال إلى اتجاه الحركة للبيئة الجامعية السكنية، ويتصل ايضاً بمبنى المسجد الرئيسي للمدينة الجامعية.

هـ أروقة الميدان الرئيسي تجمع شمل الأبنية وتحقق صحناً جامعياً عاماً له خصائص معمارية متميزة ويسهل في ضمن فضاءاته الداخلية التجمعات واللقاءات، وندوات الفضاء الطلق التي تتحقق في ما يماثلها في صحن وأروقة المساجد والعتبات المقدسة.

7 - تتفرع في اتجاهات مختلفة من المركز الجامعي تجمع الأقسام العلمية المختلفة، والتي يمكن تسهيل حصرها في ضمن المجاميع العلمية:

أ - قطاع المجموعة الهندسية، وتحوي اقسام وهيئات الدراسات الهندسية ونموها، وقد روعي استمرار اتجاه هذا النمو بالنسبة إلى القطاع الحي الصناعي في الجامعة، والذي يحوي في طرفه الآخر الدراسات المعهدية والمنفصلة بادارتها عن الجامعية، ويتقارب موقع مبنى الهندسة الزراعية من أجل ان يتصل بالحي الزراعي الذي يشمل المنطقة الشمالية من الأراضي الجامعية.

ب - المدرسة المعمارية في موقعها بين الدراسات الهندسية ومجموعة مباني الدراسات الاجتماعية والإنسانية ويقترن بالمدرسة المعمارية المتحف الحضاري ودراسات الفنون الجميلة والفنون التطبيقية بالمستويات الجامعية.

ج - مجموعة مباني الدراسات الاجتماعية والإنسانيات.

د - مجموعة المباني للعلوم الطبيعية وتتميز بقطاع قابل للنمو في اتجاهات مختلفة، وفي ضمن المجموعة وفي اتجاه الدراسات الطبيعية تتوزع الأقسام العلمية برابطة عضوية متاتية من طبيعة دراسة التصميم المقترح.

هـ اقسام الدراسات الطبية والمتشفى التعليمي:

إن اقسام العلوم الأساسية تتقارب مع بدء ونحو التكوين للمختبرات والصفوف والقاعات التي يحتاجها المركز او المجموعة الطبية للدراسات الجامعية. فيبدأ من الصفوف العامة في اتجاه المركز وينمو في محور اتجاه المستشفى التعليمي الذي يكون في النهاية الاخرى في الاتجاه الشرقي، وان طبيعة المستشفى التعليمي علاقته الخارجية بالمرضى والمراجعة مما يحتم ملاءمة موقعة الذي جاء في شمال مدينة الكوفة، وقرب مزار جامع السهلة والاتصال المباشر له عن طريق الساحل النهري، ومقترح الشارع الذي يحيط الجامعة في شمال مدينة الكوفة.

8 - مبنى السنة التحضيرية: تكون هذه المجموعة بحكم طبيعة المنهل وجوداً خاصاً وله اتصال بالراسات الهندسية، كما انه يقرب من مجموعة العلوم الاساسية. ويعتبر هذا المبنى البداية في اسبقية التكوين.

9 ـ المجموعة الرياضية: تحوي المنشآت والمباني التي يتطلبها تكامل النمو في مراحل المستقبل، وان وجودها يقرب الفضاءات الخارجية والحقول العامة ويسهل تحقيق مهامها. فقد يكون في نطاقه استمرار واحياء تراث رياضة ركوب الخيل والفروسية التي كان لها شأناً في المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده. كما أن المجموعة الرياضية بالوقت نفسه لا تبعد عن الحي الجامعي، وان سهولة الوصول وحركة ومواقف السيارات لا تؤثر بضجيجها وحشود على الجو في المناطق التعليمية.

10 ـ إن السكن الجامعي للطلبة مع الأبنية الجامعية للقطاعات المختلفة والمركز الجامعي، وحقول الرياضة تكون بمجموعها الشعور بمدينة مترابطة الاجزاء وهذا ما روعي التصميم ان يحققه في فلسفة وجوده ويعبر عنه في ان توحي المجموعة ببيئة جامعية، وليس مجرد أبنية لمؤسسات مختلفة قد تظهر بشكل معسكرات سكن ومواقع لصفوف التدريب والتلقين.

11 ـ وبالنسبة إلى السكن الجامعي للهيئة التدريسية فالتصميم المقترح حاول ان يظهر حياً جامعياً لمؤهلات المرافق الضرورية ومكانة الشاطئ النهري والملحقات التي تتطلبها الراحة، والجو السكني بالنسبة إلى أعضاء الهيئة التدريسية والادارية مراعاة ما من شأنه الإغراء للانتماء إلى التدريس في البيئة المقترحة.

12 ـ القرية السكنية للمستخدمين في المهام الزراعية والصناعية في الاحياء التعليمية والحقول التجريبية. ان الموقع المقترح لمثل هذه الحاجة ضمن الأراضي الزراعية وفي اتجاه يقرب إلى الحي الصناعي، وامكانية التحقيق يمكن ان تدرس على ضوء تكوين وتعاونية خاصة وفي تنظيم اقتصادي ذاتي يمكن للجامعة ان تقوم بدور هام في النواحي الفنية والتخطيطية في اقتصادياته.

الاعتبارات الاقتصادية ومهام التنفيذ

1 ـ ان وجود تخطيط اساسي عام مبني على دراسة مستوعبة لمفاهيم فكرة الجامعة ومتطلباتها في بيئتها وكافة مراحل نموها هو بحد ذاته الأساس الاقتصادي الرئيسي، إذ ان معنى ذلك ان يتجنب الاسراف في الصرف والنفقات الاضافية التي يتكبدها المشروع نتيجة الارتجال والتصاميم التلقائية التي قد تعني بحدودها الطبيعية سرعة التنفيذ وبعض واقعية الاجراءات في التخطيط يضمن استعمالات الارض للفائدة القصوى ان كان في نطاق الوظائف المخصصة لها او في المنفعة والاستثمار الخ..

2 ـ إن التخطيط على ضوء مراحل طبيعة المشروع بنطاقه الأهلي وتمويله الخاص يتطلب دراسة اقتصادية خاصة تختلف بطبيعة الحال وواقع العمل عن المشاريع المماثلة التي تتولاها الدولة وتعين لها مسبقاً الارصدة المالية الخاصة بها. وعلى ضوء هذا الاعتبار فإن التصميم المقترح، وتوزيع المنشآت المطلوبة في مراحله الاولى، تضمنت استمرارية تحقيق الاجزاء الاولى منها وتشكيل كيان منفصل ومنسجم، لا يعتمد إلى حد بعيد على الوجود المتكامل، فالأبنية الاولى تكون بذاتها مجموعة قابلة للامتداد بطريقة تساعد على تنفيذ البرنامج الخاص والعام. فتجزئة المشروع إلى مراحل وتجزئة المراحل إلى اقسام ما من شأنه ان يحقق على ضوء القابلية المتوافرة في التمويل وعند تهيئة الفرص اللازمة بداية للمشروع وذلك بتهيئة الأبنية اللازمة للسنة التحضيرية الجامعية، ولا شك ان هذه الأبنية في وضعها التصميمي تحقق اقصى حدود المنفعة ضمن مجموعتها ولسنين المستقبل، فلقد روعيت في وجودها المرونة اللازمة التي ترافقها، ان سير النمو في التكوين الجامعي يضيف إلى نواة التكوين حلقات متجانسة في موقعها، كما يوضح ذلك التصميم الخاص بايضاح المراحل.

3 ـ الاقتصاد في وحدات الصفوف وتصميمها: يتكون التصميم من أبنية للصفوف الدراسية والقاعات التي درست على ضوء وحدات حجمية تتكرر في ضمن تنسيق وتخطيط خاص بكل مجموعة. ان هذه الوحدات السياسية التي توصل اليها على ضوء المقاسات والمواصفات للمساحة والحجم والاستفادة القصوى التي توصل اليها في الحلول التصميمية للمنشآت الدراسية الجامعية. إن هذا النوع من التكوين والتنسيق في التكرار لاشك هو من العوامل الاقتصادية الهامة في التكلفة من النواحي التنفيذية، بالاضافة إلى المرونة التي هي العامل الاقتصادي في طريقة استعمال الصفوف لأقصى حد من الساعات. ففي الصف الدراسي لا يقتصر على قسم معين في اوائل تكوينه بل يحقق التدريس ضمن جدول اسبوعي لأقسام اخرى، وهذا بطبيعة الحال متأت من وجود الجامعة في كيان موقع شامل.

4 ـ فضاءات الساحات والممرات ومهامها الاقتصادية: ان الاقتصاد الضروري المتأتي من التصميم الملائم للطبيعة الجغرافية والمناخ، بالنسبة إلى الوحدات الأبنية واضاءتها وتهويتها ودراسة مقارنة لتكلفتها، جاء بالحد الأدنى بالنسبة إلى التصاميم المماثلة التي تميل في اتجاهها إلى سلوك تبعية التصميم للاقطار الغربية والتي لها عائدية مناخية خاصة تفرض كثرة استعمالات النوافذ الزجاجية

وتعرضها المباشر للأجواء الخارجية من أجل الضوء. إن الممرات المظللة والساحات الوسطية هي بحد ذاتها بالنسبة إلى بيئة الكوفة تحقق في اكثر المناسبات الكثير من الأغراض الدراسية كقاعات وساحات وفضاءات حوار ومناقشة كما هو الحال في صحن العتبات المقدسة وصحن المدارس الدينية في النجف. وان الفضاء المكشوف المحاط من الجوانب له هذه الاهمية التي روعيت في تخطيط المباني الجامعية وتجمعها حول ساحات وسطية واتصالها بأروقة مكشوفة.

5 ـ المواد البنائية والأروقة: من النواحي الانشائية والاعتماد على ابسط المواد ذات قوام الادانة فإن فقرات ومفردات التخطيط الاساسي في تكوينها روعي استعمال المواد المحلية وصلاحيتها بالنسبة إلى الأجواء الخارجية. والتأكيد اللازم الذي يظهر في التفاصيل بالنسبة إلى متطلبات اعمالها التكميلية. إن القوام الكونكريتي للهيكل الرئيس للمباني واستعمال الجدران الآجرية والاستفادة من خصائص الآجر في الصيانة والطلاء من العوامل الهامة في هذا الصدد، وسيتناول البحث في تفاصيل هذا الموضوع التقارير الخاصة بالأبنية المطلوبة.

6 ـ الحدائق والتشجير: بالنظر لتوافر وجود مياه السقي والإرواء بإكمال خمس آبار ارتوازية فسيكون لمياه هذه الآبار وصلاحيتها تأثير في القيام في تنفيذ مهام التشجير وتسوير الأراضي الجامعية واحيائها المختلفة. اذ ان السواقي او القنوات وما يلحقها من غرس هي من اسهل وانفع وارخص الطرق في تهيئة الجو الجامعي وتحقيق البيئة الخضراء تدريجاً، علاوة على مدى تأثير نمو هذه الأشجار في الطقس والمناخ والملائمة وسهولة وسرعة النمو في المنطقة، ولابد من تهيئة تخطيطات خاصة لتنظيم البيئة الحديقية والاستعانة بالاخصائيين لوضع التخطيط العام لها، علماً بانه سبق في مداولات واجتماعات تفضل بها الاخصائيين المعنيون في هذا الحقل ان ابدوا مطالعات اولية. فقد اشار الدكتور وفقي الشماع الأستاذ في كلية الزراعة إلى ملاحظات هامة حول مستقبل التنفيذ لمهام الزراعة والبستنة والحقول التجريبية في المنطقة كما ابدى السيد صادق البعلي الخبير الزراعي ومدير الزراعة العام اهتمامه في تهيئة دراسة لأصناف الأشجار الملائمة، وطلب كل منهما تزويدهما بمخططات التصميم الاساسي للدراسة والمداولة في هذه المهام.

كما حاولت الجمعية الاتصال بمديرية الأراضي القاحلة لإبداء دراسة حول الموضوع في ما يخص التقارير الدراسية لمشروع الأراضي القاحلة وبالنسبة إلى الشوارع الداخلية فإن البدء بالمشروع لا يتطلب سوى جانباً من شارع رئيسي واحد يبدأ من البوابة الرئيسية لشارع كوفة ـ نجف ويتم تنفيذ الشوارع الاخرى عند توافر الامكانات وتنفيذ المراحل للمباني الجامعية.

7 ـ الأبنية والمهمات المخصصة لها: بالنظر للتخصيصات المالية المعينة من قبل المحسنين والمتبرعين في تشييد الأبنية فإن التصميم بصورة عامة اخذ بنظر هذه الناحية، وذلك بوجود الوحدات البنائية المشار إليها، وكذلك اجراء الوحدات التي تحقق عائدية الهبات وعنوانها وان التفاصيل التخطيطية للمباني سيشمل في محتوى عنوانها ضمن هذه الهبة والعائدية المالية، كما ستحمل القاعة او المبنى ما يتناسب واظهار ذلك. بالاضافة إلى السجل الرئيسي التي تظهره اللوحات التذكارية في المقر الرئيسي لإدارة الجامعة.

آ ـ الدراسات التحليلية للمباني الجامعية

ان التخطيط الاساسي لجامعة الكوفة اخذ بنظر الاعتبار علاقة السكن الجامعي والمدينة الجامعية وترابطها كبيئة لمدينة علمية طلابية، اذ جعل من التخطيط الاساسي الترابط الذي من شأنه ان يظهر للمجاميع الجامعية وحدة مترابطة لجو مجتمع طلابي واقسام علمية. ولا شك ان هذه الناحية في التخطيط تظهر اعتباراً مستمداً من تراثنا التقليدي في التعليم والرابطة العلمية والاجتماعية بين مختلف الطلبة وبين الاساتذة والطلبة وقد اخذت الجامعات المتفوقة مثال جامعة كمبردج وجامعة اكسفورد وغيرها هذا المنهج في الاوساط السكنية الجامعية فتؤخذ بشكل كليات سكنية لكل منها مشرفيها الخاصين.

وعلى ضوء الحاجات العامة بالنسبة إلى الجامعات بصورة عامة وبالنسبة إلى الجامعات الحديثة في الدول الإسلامية بصورة خاصة فقد جاء التكوين العام للتخطيط بالمحتويات التالية:

ا ـ الدراسة التحضيرية الجامعية

تتألف من مجموعة للصفوف الدراسية للمواضيع العامة بمساحاتها المختلفة وكذلك متطلبات المختبرات لهذه المرحلة الدراسية حسب التفاصيل الواردة في مشروع رقم 1/1.

2 ـ المجموعة الهندسية

تتألف كمجاميع لوحدات واقسام علمية هندسية تكون القطاع الدراسي الهندسي وتتفرع من الوسط وباتجاه امتداد النمو اللازم في المستقبل، ان الدراسات المقترحة في هذه المجموعة حسبما جاء في تقرير التخطيط والمساحات المخصصة لقسم الهندسة الميكانيكية وقسم الهندسة المدنية، وعند توافر الامكانات في فتح اقسام هندسية اخرى، فقد اخذ بنظر الاعتبار تهيئة المواقع اللازمة لقسم الهندسة الكهربائية وقسم الهندسة الكيمياوية، على ان مقترح قسم الهندسة الزراعية ان سيلتحق بالدراسات الزراعية لكلية الزراعة في الجامعة.

3 ـ مجموعة أبنية كليات العلوم

تكون قطاعاً يتفرع من المركز الجامعي ليشمل مجاميع الأقسام العلمية التي تتكون منها كلية العلوم، وقد أخذ بنظر الأهمية في التخطيط الاساسي المرونة اللازمة للنمو في المستقبل للأقسام الدراسية المختصة على ضوء السعة الطلابية ضمن المعدل العام للنسبة المطلوبة والمقترحات التي تتوصل اليها الهيئات الجامعية في التنمية العلمية والاسبقية التي تقرر بالنسبة إلى العلوم الطبيعية الاساسية.

4 ـ المجموعة الطبية

تكون قطاعاً مشترك مع قطاع أبنية العلوم ويمتد في اتجاه التوسع لاحتواء الدراسات الطبية والمختبرات الاختصاصية وما يتطلبه التكوين العام والخاص للمركز الطبي الجامعي وموقع المستشفى التعليمي بالنسبة إلى المجموعة الطبية الجامعة وانعزاله الخاص الذي تتطلبه طبيعة مهام وطبيعة المستشفى بالنسبة إلى المراجعات الخارجية العامة والخاصة. وقد خصص مدخل خاص يقترب إلى مدينة الكوفة وفي الوقت نفسه هو جزء من أبنية الجامعة.

5 ـ المكتبات الدراسية والمتاحف العلمية

على ضوء الاسس لمتطلبات التكوين العلمي للمجاميع المشار اليها وما اشارت اليه تقارير التخطيط الجامعي فقد اعدت مواقع أبنية لمكتبات مجاميع هذه الأقسام العلمية والتي تتطلب ضرورة وجودها لقاعات الدراسة والمطالعة والاستعارة الخ، وتكون محاور فرعية للوسط الطلابي وهيئات التدريس المختصة. كما اعدت مواقع لمتحف تطور العلوم التكنولوجية والمتحف الزراعي والمتحف الحضاري للصناعات والفنون الإسلامية.

6 ـ المركز الجامعي

- المكتبة المركزية
- القاعة الجامعية الرئيسية
- الإدارة العامة
- المركز الطلابي

ويتجمع حول ميدان صحن عام يعتبر النواة المركزية للجامعة وتتفرع من هذا المركز المجاميع الدراسية المختلفة. وكذلك الاتجاهات المؤدية إلى المرافق الجامعية والسكنية.

7 ـ مسجد الجامعة

يكون محوراً ووسطاً خاصاً يتصل بالمركز الجامعي والمركز الطلابي كامتداد له، وكذلك يرتبط بمحور اتصال اساسي مع كلية الفقه والآداب الإسلامية في ضمن المجموعة للأبنية الجامعية للإنسانيات.

8 ـ الحقول الرياضية والتربية البدنية

وتتمركز هذه المجموعة من أبنية ومنشآت وساحات وحقول حول المدرج ـ الجامعي، ويجاور مقترح ما خصص لساحات الفروسية والتدريب باعتبارها حقلاً من احياء التراث الرياضي في البيئة العربية.

9 ـ المجاميع السكنية الطلابية

تحيط الأبنية الجامعية والمساحات المخصصة لنموها وفي اتجاهات مختلفة مجاميع السكن الطلابي الذي يتكون من وحدات سكنية تتجمع لتكون ما يسمى بـ «كليات سكنية» وتحقق النشاط الاجتماعي في ضمن تنظيم المجاميع.

10 ـ سكن اعضاء الهيئة التدريسية

في اتجاه الموقع النهري الساحلي وامتدادات معينة الاتجاه يمكن ان تهيأ مساحات لدور وحاجات تختلف بالنسبة إلى الحاجة العائلية وتشمل الحي السكني للاساتذة المرافق الضرورية لناد اجتماعي وعائلي وروضة ومدرسة على ضوء الاسس والمقاييس المطلوبة والاحصائية العددية.

11 ـ المرافق العامة والخدمات

المخيم السياحي

تهيئة المساحات اللازمة في التنظيم من أجل تحقيق أغراض الزيارات والوفود الطلابية ومستقبل سهولة السفر والتنقل لمثل هذه الزيارات وخصوصاً المكانة القدسية والتاريخية التي تتميز بها بقاع الكوفة ومدينة النجف الاشرف.

والموقع المقترح هو امتداد لفضاءات الساحات والملعب وحي الرياضة.

الحدائق الجامعية الأهلية

وتكون هذه الساحات المدخل الرئيسي لشارع الكوفة ـ نجف وان هذه الفضاءات التي ستكون الحدائق العامة وستكون لها اثر هام في مستقبل التطور لمدينتي الكوفة والنجف والتنسيق العام، وتوضح اهمية الأراضي الخضراء وامتدادها من الشارع المشار اليه إلى الساحل النهري على الفرات.

12 ـ وسيكون بالامكان تهيئة أبنية مرافق لمقاه و«كشكات» تؤدي الخدمة تؤجر لمنفعة الجامعة بالاضافة للمنفعة المتاتية من الحي السكني.

13 ـ الحقول الزراعية

على ضوء المداولات مع اللجان المختصة وما اوضحه التقرير من معلومات حول استعمالات الأراضي للأغراض الزراعية والاعمال التطبيقية الحقلية فإن الأراضي الشمالية قد خصصت لهذه الأغراض والتي تشمل:

ـ متطلبات الدورة الزراعية

ـ البستنة والتشجير

ـ دراسات حقلية للأراضي القاحلة

ـ دراسات حقلية لنماذج الري والبزل

ـ حقول ومشاتل تجريبية للنخيل والارز والقطن والزيتون حسب الدراسات التي تقررها الهيئات المختصة.

ـ حدود سياج الجامعة

المقترح، ان تحاط الحدود للأراضي الجامعية بحزام من أشجار معينة وان وجود ترعة نهرية سيكون من شأنها بأقل تكلفة ممكنة ان تحقق السياج الجامعي، وفي الوقت نفسه تكون الشريان الرئيسي للسواقي التي تتفرع من هذا القنال. وان موقع الآبار الارتوازية سيسهل هذه العملية والادامة اللازمة للمغروسات.

14 ـ البوابات الجامعية

ان مواقع هذه البوابات ترتبط بالشبكة الخارجية للطرق الرئيسية، والتصميم المقترح اوضح وجود اربع بوابات رئيسية:

أ ـ بوابة الكوفة ـ نجف

ب ـ بوابة الساحل النهري

جـ بوابة الحلة

د ـ بوابة كربلاء

ويقترن مع البوابة البيئة اللازمة من حراس واستعلامات، وبصورة خاصة بالنسبة إلى البوابة الرئيسية «كوفة ـ نجف» التي ستشمل مرافق تؤدي الخدمات الجامعية المرتبطة بالمصالح الأهلية والمستخدمين ودائرة البريد والاستعلامات والبدالة الخ..

ب ـ الأدوار التنفيذية للتصميم الأساس

حيث ان المشروع الجامعي هو مشروع أهلي فانه يستمد امكانات تنفيذه على ضوء ما يتيسر من هبات وتخصيصات في برنامج التنظيم المالي الذي يعد وتدرس فيه الامكانات والتخصيصات التي قد تتوافر ضمن مناهج التمويل. ولكن على الرغم من هذا فإن من الضروري مقترح أولي لبرنامج تنفيذ مشاريع الأبنية التي تتكون منها الجامعة ضمن مراحل زمنية تتسم بالمرونة التي تتطلبها لبيعة المشروع.

فبالنسبة إلى التكوين العلمي، والأبنية التي ترتبط بالأقسام والمدارس العلمية، فانه يمكن ان يكون للمشروع الجامعي المتكامل أدوار عدة، يقترح ان يكون عدد هذه الأدوار أربعة على ان يحوي كل دور على مراحل معينة للمشاريع التي ترتبط بمهام التخطيط العلمي والتي تقترب تدريجاً نحو النمو من أجل التكامل العام ويمكن ان تلخص هذه على الوجه التالي:

الدور الاول عدد الطلبة 5000 طالب

المرحلة الاولى

السنة التحضيرية

المرحلة الثانية

1 ـ كلية الهندسة

أ ـ الهندسة المدنية

ب ـ الهندسة الميكانيكية

2 ـ كلية العمارة والفنون

3 ـ المستشفى التعليمي

أ ـ العيادة الخارجية

4 ـ كلية ادارة الاعمال

5 ـ قسم من المجاميع السكنية

المرحلة الثالثة

1 ـ كلية الهندسة

أ ـ الهندسة الكهربائية

2 ـ كلية الزراعة ـ والهندسة الزراعية

3 ـ المستشفى التعليمي

أ ـ ردهات لمائة سرير

4 ـ قسم من المجاميع السكنية

المرحلة الرابعة

1 ـ كلية الهندسة

أ ـ المكتبة الهندسية

ب ـ الهندسة الكيمياوية

2 ـ كلية الآداب والفقه الإسلامي

3 ـ قسم من المجاميع السكنية الطلابية

الدور الثاني عدد الطلبة 10.000 طالب

المرحلة الاولى

1 ـ العلوم

أ ـ العلوم الطبية

ب ـ الحيوان والنبات

المرحلة الثانية

1 ـ كلية الطب

2 ـ العلوم

أ ـ الفيزياء

ب ـ الكيمياء

جـ الجيولوجي

المرحلة الثالثة

1 ـ المختبرات الطبية

2 ـ ردهة بمائة سرير للمستشفى التعليمي

3 ـ الإنسانيات

أ ـ اللغات

ب ـ التاريخ الإسلامي

4 ـ السكن الجامعي للاساتذة

المرحلة الرابعة

1 ـ الكلية الطبية

أ ـ المختبرات الطبية

2 ـ العلوم

أ ـ الرياضيات

الدور الثالث ـ عدد الطلبة 15.000 طالب

المرحلة الاولى

1 ـ الأبنية المركزية الجامعية

أ ـ الإدارة

ب ـ المكتبة المركزية

المرحلة الثانية

1 ـ المركز الطلابي

المرحلة الثالثة

1 ـ تكملة كلية العمارة والفنون (اكاديمية الفنون)

2 ـ الإنسانيات

أ ـ الجغرافية

المرحلة الرابعة

1 ـ المسجد الجامعي

2 ـ متحف الحضارة والفنون الإسلامية

الدور الرابع - عدد الطلبة 20.000 طالب

المرحلة الاولى

1 - قاعة الاجتماعات الرئيسية في الجامعة

المرحلة الثانية

1 - المدينة الرياضية

المرحلة الثالثة

1 - متحف تطور العلوم

المرحلة الرابعة

1 - المستشفى التعليمي

2 - الخدمات

3 - الشوارع

4 - الاعمال التكميلية العامة للجامعة

جـ على ضوء دراسات اللجان والمجالس العلمية المختصة واعتماداً على الدراسات التي تمت من قبل الهيئات المختصة لكل من جامعتي الموصل والبصرة، فلقد تم احتساب وبصورة تقديرية ما يحتاجه كل طالب وبالمتر المربع. بالنسبة إلى كل كلية من كليات الجامعة وعلى ضوء التقدير الاجمالي بالنسبة إلى طلبة كل من تلك الكليات على اختلاف مراحل بنائها ونموها المقترح فلقد تم احتساب مساحة تقديرية اعتماداً على حاجات كل طالب من تلك الكليات من الامتار المربعة وضرب تلك المساحة في عدد طلبة كل كلية.

اما بالنسبة إلى التكلفة التقديرية لكل من كليات الجامعة بالنسبة إلى مراحل بنائها المتعددة فلقد تم احتسابها اعتماداً على الدراسات المعنية والتي تم التوصل اليها على ضوء الدراسات الموضوعة بالنسبة إلى مختلف جامعات العراق كما أخذ بالاعتبار امكانية الجامعة كمؤسسة أهلية وأممية ذلك من الناحية الاقتصادية. وعلى هذا فلقد تم احتساب تكلفة المتر المربع التقديرية بالنسبة إلى كل من تلك الكليات، وعلى ضوء المساحة التقريبية لكل كلية فلقد تم احتساب التكلفة التقديرية للمراحل المتعددة بالنسبة إلى كليات الجامعة والجدولين الآتيين يوضحان المساحة التقريبية لكل من كليات الجامعة بالنسبة إلى مراحل نموها والكلفة التقديرية لكل مرحلة من مراحل نمو تلك الكليات.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

اختلطت في «خواطر السنين»، مذكرات المهندس المعماري محمد مكية، مع تاريخ مدينة بغداد. وهي أقرب إلى عرض سيرة شخصية وتجربة حياتية للكاتب وللمدينة معاً، صاحبهما النجاح والفشل. وبقدر ما حاز الكاتب نجاحاً شخصياً كبيراً وصيتاً واسعاً عمّ أرجاء العراق والعالم العربي وامتدّ إلى أوروبا عبر صلاته التي وطّدها مع معماريين عالميين، فإنه ما زال يعاني ألم الفشل في تحقيق حلمه بإنشاء مشروع المدينة الجامعية للكوفة، وإقامة ميدان يمتد من بوابة جامع الخلفاء إلى جهة النهر، وإعادة تخطيط طرق بغداد ومحلاتها وأن يظللها بأشجار النخيل.

أحلام إنسانية ذات رومانسية عالية. ليست مستحيلة التحقيق، لكنها ما زالت خارج الزمن العراقي. ولعل الملل من انتظار اللحظة المناسبة لتحقيق هذه الأحلام، هو ما دفع مكية «الحالم» إلى أن يبحث عمّن يتولى بعثهما في قرن قادم أو حتى ألفية قادمة! عندها ستكون بغداد «جنة خلد» تتعالى حتى على مجدها العباسي.

نبذة عن المؤلف

محمد مكية ولد في بغداد عام 1914. درس الهندسة المعمارية في جامعة ليفربول، ثم أنهى دراساته العاليا في جامعة كامبردج. أسس عام 1959 القسم المعماري في كلية الهندسة ـ جامعة بغداد. أنجز مشروع إعادة تصميم وإعمار جامع الخلفاء، العباسي، ومئذنته الشهيرة. وقام بمشاريع معمارية عديدة في الكويت ومسقط والبحرين والإمارات والسعودية.